

إيكادولي



الكتاب: إيكادولي

المؤلف: حنان لاشين

تدقيق لغوي: وسام محمد نبيل

تنسيق داخلي: سمر محمد

رقم الإيداع: 27004 / 2016

978-977-6541-25-2 :L.S.B.N

مدير النشر: أحمد حمدي

المدير العام: محمد شوقي

مدير التوزيع: عمر عباس

01150636428

لراسلته الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

إيكادولي

رواية

حنان لاشين



للنشر والتوزيع

إهداء

إلى

المحاربين

مقدمة

"قد تكون الكلمات وكل الكتابات ميّة، مكفنة في أوراق
دفاترنا البيضاء، معانٍها مدفونة بين السطور،
على الرفوف وفي أدراج المكاتب، لا تحيا إلا عندما تُقرأ
فتجري الدماء في أوصالها بخيال القارئ، وعندما يصدّقها
تضجّ بالحياة!"

(١)

أبادول

مطر خفيف كالبكاء يرشق الرمال الناعمة بعذوبة، من بعيد ثمة نهر ريان
يتدفق ماؤه العذب بهدوء. ضوء الشمس الذهبي يميل بدلال فيداعب تلك
الغدران الصغيرة التي تكونت هنا وهناك لتنعكس ألوان الطيف وتعانق في
الهواء. سعف النخيل يظلل الأفق من بعيد وكأنه سحاب أخضر. صيحة
غريبة صمتت أذنيه ثم شعر فجأة بمخالب تقبض على كتفيه، فرفع بصره
ورأى طائراً عملاً يبسط جناحيه مظلاً فوق رأسه، تسارعت أنفاسه وهو
يطير على ارتفاع شاهق فوق وادٍ عميق يقطعه نهر ماؤه رقراق زمردي اللون!

لاحت من بعيد أكواخ صغيرة لكتها متقاربة مصفوفة بانتظام في مجاميع
يفصل بينها ممرات أرضها مغطاة بزهور صغيرة صفراء. تناهى إلى سمعه
صوت أنثوي ناعم، كان يناديها ويكرر كلمة غريبة لم يدرك كنهها! استعدب
الصوت للحظات لكن خفقات قلبه التي بدأت تؤلمه في صدره أنسسه حلاوة
الصوت، وفجأة! انفلت من بين مخالب الطائر لم يهوي تجاه مصب ذاك النهر
الفياض بسرعة شديدة، كان لون الماء يزداد قتامة كلما اقترب منه، أراد أن
يرفع عينيه ليرى هيئة الطائر الذي كان يحمله، لكن ظل جناحيه الكبارين
المهيبين كان قد حجب عن عينيه كل شيء، فتح ذراعيه وباعد بين ساقيه
فحلق لفترة وجيزة، للحظات شعر أنه أخف من الريشة، وكأنه يحلق بروحه لا
بحسده، على صفحة الماء لاح له رمز غريب الشكل، حدق فيه وهو يقترب،
ويقترب، ويقترب، وفجأة.. التقطه الظلام، وظل رنين حاد يتتصاعد مخترقاً
أذنيه.

أيقظه رنين هاتفه النقال، وكان قد وقته على السادسة والنصف، مدّ
ذراعه بصعوبة بعد أن قاوم ذاك الشعور بأنه مثلول البدن ليوقف صوت
الرنين المزعج. مسح جبينه الذي كانت تتلاألأ عليه حبات العرق وجلس على

طرف الفراش يلتقط أنفاسه. نفس الكابوس الذي يتكرر، نفس المخالب، نفس الطائر الذي لا يدرك كنهها! نفس النهر الذي الماء الأخضر الزمردي، وذاك الرمز الغريب. سار بخطوات بطيئة نحو المرأة وطالع وجهه وكأنه يطالع شخصاً غريباً عنه، عينان بندقيتان وحاجبان كثيفان على وشك الالتحام، وأنف ذو انحناءة لطيفة يتتوسط وجهها مستديراً ظللته لحية خفيفة. أحياناً يشعر أنه غريب عن نفسه وخاصة في تلك الحظات التي تعقب استيقاظه من ذاك الكابوس المتكرر. غادر غرفته ومر برواق البيت فلمح والديه فحياماً سريعاً وأسرع يصب الماء البارد على رأسه لعل الأفكار التي تنهش عقله تهدأ، ثم لحق بهما في المطبخ الذي كان يعقب براحة القهوة، جلس وقد بدأ على وجهه علامات الإرهاق، أزاح والده الجريدة التي كانت تحجب وجهه عنه وطالعه من فوق عينياته بتمعن وقال بتيرة هادئة:

- هل رأيت نفس الكابوس؟

- نعم.

- هل سقطت في الماء؟

- لا... كالعادة استيقظت قبل أن يلمس جسدي الماء.

- هل رأيت رأس الطائر؟

- لا... لا يا أبي.

رفع الأب سبابته وحرك عينياته على أربعة أنفه وعاد للقراءة، كانت تلك الأسئلة الثلاثة تتكرر في كل مرة يستيقظ فيها "أنس" وعلى وجهه علامات الإرهاق، وكان أبواه يقرأ صحفة وجهه فيدرك أنه رأى نفس الكابوس! شرد "أنس" للحظات قبل أن يقول بخفوت:

- لكنني سمعت صوتاً لم أسمعه من قبل!

انتفض والده وكان هناك من ورائه بإبرة وألقى الصحفة وسأله وقد اتسعت حدقتا عينيه:

- صفت لي الصوت وأخبرني ماذا قال لك.

أغمض "أنس" عينيه ليجترّ ما رآه وأحسّ به، ثم قال بصوٌت متهدّج:

- كان صوتاً أنشوئاً رفيقاً وجميلاً، لم أسمع مثله من قبل، غناء رِيماً أو كأنّ هناك فتاة ما تهمس في أذني.

خلع الأب عيوناته وعاد يحدّق في وجهه وسألَه بتتوّر:

- ماذا قالت لك؟

- كانت تردد كلمة لم أفهمها ولم أدرك معناها، أظنهما بلغة غريبة ما !

- ما هي الكلمة؟

- لا أذكر.

- حاول أن ترکز أرجوك...كررها أمامي.

التفت "أنس" متعجباً من إلحااح والده عليه وهزّ كتفيه بلا اكتتراث وهو يقول:

- للأسف نسيتها.

شحب وجه الأب وطالعه بنظرات مرتابة، التفت "أنس" لأمه التي مسحت على ظهره بحنان لكي يطمئن، التقط يدها ووضعها على صدره، كان يشعر بانقباض لا يبارحه عادة إلاّ بعد فترة طويلة في مثل هذا الموقف، يتلاشى رِيماً بعد عدة أيام!.

تناول قهوته على عجل ولم يكمل إفطارة، فقد دقّت الساعة معلنة أنها السابعة والنصف.. ولا بدّ أن يُسرع حتى لا يفوته موعد القطار. على مكتبه كانت تستقر حقيبة جلدية من النوع الفاخر اعتاد أن يحملها على ظهره عندما يسافر، شاحن الهاتف وجهاز الحاسوب النقال، كانا أهمّ ما حرص "أنس" على وضعه في حقيقته.

ثُمَّ العديد من القمصان المكونة أولها القميص السماوي اللون الذي يفضلُه، مع بنطال من الجينز، ومنامات صوفية تقيله البرد، والكثير من الجوارب كان كلّ هذا ما حرصت الأمّ على وضعه في حقيبة ابنها الأخرى منذ البارحة، فسيسافر لبيت جده في الفيوم ليقضي معه أسبوعاً لطيفاً، فهو لم

يروح عن نفسه منذ أنْيَ عامه الأخير حيث كان يدرس بكلية الهندسة. لا بد من وقت مستقطع يبتعد فيه عن صخب الحياة فقد أرْهَق كثيراً في الأيام الماضية، وما أجمل أن يكون هذا الوقت في بيت جده المحبب إليه. على عجلٍ ركض على الدرج خلف والده، ملوحاً لأمه وشقيقته من نافذة السيارة، اختفى طيف وجه أمِه الملائكي عندما دلفت سيارة والده لشارع جانبي. راقب الأُبَخْرَة التي تتكاثف على زجاج النافذة إثر ملامسة أنفاسه الدافئة له، رفع إصبعه ورسم عليها ذاك الرمز الذي رأه على سطح الماء وهو نائم، قطع ذلك الشرود الذي غرق فيه صوت والده وهو يلقي على مسامعه نصائحه مثلما اعتاد في كلّ مرّة يسافرون فيها لقضاء الإجازة مع جده، يبدو أنه لن يتوقف عن نصحه ومعاملته بتلك الطريقة، حتى بعد تخرّجه وربما عمله أو حتى لو تزوج وأنجب العديد من الأحفاد، كان هذا يضايق "أنس" لكنه لم يُظهر ضيقه أبداً لأبيه وكان ينصت إليه بأدب بلِيج، سيبقى في عينيه الابن الذي يحتاج النصيحة، قال الأب وهو يعدّل عويناته:

- لا تترك جدك وحده لفترة طويلة، فأنت هناك لكي تؤنسه، ليس من اللائق ألا تنظر إليه وهو يحدّثك فهذا يزعجه كثيراً، أنصت إلى نصائحه بلا جدال، استأذن منه قبل أن تستعيّر أي كتاب من مكتبه الخاصة، كن ضيقاً خفيفاً ولا تُثقل عليه.

كانت تلك المرة الأولى التي يسافر فيها وحده، لم يُفاجأ بقرار أبيه وأمه فقد أخبراه أنَّهما لن يتمكنا من السفر معه لأن شقيقته "حبيبة" مرتبطة بدروسها الخصوصية الخاصة بالثانوية العامة، أصرَّ "أنس" على السفر فقد كان مشتاقاً لرؤيته جده، والذي كان يشجعه كثيراً على القراءة فقد قضيا معاً ساعاتٍ طويلة في مكتبة جده الخاصة، ذاك البناء البديع والمكون من غرفة واحدة واسعة ويتوسّط حديقة منزله حيث تحيط به أشجار الياسمين من كل جانب، وحيث الكثير من الكتب العتيقة التي قضى الجدَّ عمرًا في جمعها وقراءتها والاعتناء بها وكأنَّها أفراد أعزاء من عائلته. لم يكن لدى "أنس" العديد من الأصدقاء ليخرج معهم، كان شاباً تقليدياً كما يقولون له، لا يدخن ولا يصاحب الفتيات، لم تمطر سحابات الحبَّ على شرفات قلبه طوال سنوات الدراسة! رغم كثرة قراءاته عن الحب فهو لم يجرِّبه حتى الآن، النفس تشتاق، والأحلام تمرّ على جبينه من آنٍ لآخر، لكنه لم يصطدم بتلك

التي تحسن التوقيع على شغاف قلبه حتى الآن.

طريقته في تناول الأمور كانت تزعج زملاءه أحياناً، فهو حاد في حكمه يسبعد من طريقه كل من يخطيء خطأ واحداً ويتبع عنده حتى وإن كانت فيه ميزات أخرى تدفع له! خطأ واحد من صديقك كان يكفي لكي ينحيه جانبًا وكأنما وُصِّمَ به للأبد! كانوا جميعاً يطلبون ودّه ويقتربون إليه فهو شاب جذاب مثقف ذو خلق ورياضي، كما أنه ذكي جداً، لكنه كان مندفعاً أحياناً يركض خلف حده، في الحقيقة.. لم يفسح المجال إلا لصديقين فقط من جملة من التفوا حوله.

وصلا سريعاً لمحطة القطار والتي كانت -كعادتها- مزدحمةً بالركاب، كان الأب يسرع في خطواته ليجاري خطوات "أنس" الواسعة، انتبه "أنس" فرقاً لأبيه فهدأ من سرعة خطواته قليلاً حتى لا يرهقه. كان الجو بارداً جداً. اقترباً من أحد المقاعد وجلسا يراقبان الأخبار الهمالية من أفواه رواد المحطة، كانت هناك مسحة من الضباب تشوب الأجواء. أما السماء فكانت نصف السحاب تنتشر فيها بشكل واسع، بدت وكأنها على وشك البكاء. التفت "أنس" لوالده وقال وهو يفرك كفيه:

- لقد وصلنا مبكراً.

سحب الأب نفساً عميقاً وقال بثيرة حازمة بعد أن رمق ساعة يده بسرعة:
- هذا أفضل.... أن تصل مبكراً وتنتظر خير لك من أن تصل بعد فوات الأوان.

- اشتقت لجدي.

- وهو أيضاً ينتظر وصولك بشغفٍ يا "أنس".

- لا أدرى لماذا يرفض الانتقال إلى الإسكندرية ليقيم معنا!

- جدك مرتبط بيته وله فيه ذكريات طويلة.

- وأسرار.

رفع الأب حاجبيه الكثيفين وقال وهو يطالعه من فوق عيناته:

- أيَّ أسرار؟

لاحت ابتسامة ساخرة على شفتي "أنس" عندما تذَكَّر تلك الغرفة القابعة في الطابق العلوي والتي لا يجرؤ أحد على اقتحامها وكيف كان يركض مع أبناء عمّه عندما كانوا يقتربون من بابها المهجور وهم صغارٌ ويُلصقون آذانهم ببابها وينصتون فيسمعون أصواتاً تهمهم وهسَساتٌ غريبة فيفزعون ويركضون هاربين. قال لأبيه بحماس:

- غرفة الأشباح.

انزعج الأب من ارتفاع صوت "أنس" وتلفت يميناً ويساراً قبل أن يقول له لائماً:

- تعلم أَنْهَا غرفة خالية، ولقد رأيتها بنفسك، فلا تزعج جدك باقتحامها والسؤال عن سبب إغلاقها..أرجوك.

- لا تقلق يا أبي، ما عدت أخافها، ولا يهمني الأمر، فقط هو فضول! وددت لو أني حاورت شبحاً أو رأيته، يشغلني أمر الجن وهياتهم، كما أنتي.....

قاطعه أبوه قائلاً:

- بعض الفضول قد يفيد، وبعضه قد يؤذيك، فاحذر يا بني.

ران عليهمما الصمت للحظات، فلم يكن ذاك فقط هو ما يشغل بال "أنس" فبيت جده ممتهن بالأسرار، ولديه الكثير من الأسئلة عنه، وربما حانت الفرصة لينفرد بجده ويسأله عن سر كل ركن فيه.

علا صفيرقطار وهو يشق الضباب معلناً عن وصوله، همهم الأب في أذن "أنس" بالدعاء وهو يعانيه وتصعد الأخير ليقف ويلوح لأبيه وعلى وجهه ابتسامة حنون، انطلق القطار وجلس "أنس" يراقب الحقول الخضراء التي انبسطت أمام عينيه. لوحة ربانية تموج بالكثير من المعاني التي لا يترجمها إلا عاشق للطبيعة الخرساء!

مرق البرق صفحة السماء، أحبّ صوت قطرات المطر الذي استحال سماعه بعد لحظات وهي ترشق زجاج النافذة بجواره فشرد مسحوباً بالصور المتتابعة مصحوبة بتلك الألحان التي تعزفها قطرات المطر.

التفت يراقب ركاب القطار، ذاك رجل في العقد الرابع من عمره سريعاً ما أغمض عينيه ليسحب حبل النوم الذي قطعه منذ ساعة ويتعلق به مرة أخرى لعله ينعم ببقية حلم. وتلك فتاة صغيرة تراقب مرور الأشجار أمام عينها بسرعة خاطفة وكأنها هي التي تركض وليس القطار، كانت تضحك ببراءة وتحرك وجهها يميناً ويساراً تزامناً مع حركة الصور الخاطفة، أما أمها فكانت تطالع حقيقة يد فاخرة لامرأة أخرى تجلس قبالتها بإعجاب، والتي كانت تلقي على كتفيها معطفاً أنيقاً من القطيفة السوداء. من بعيد تناهى لسماعه حوار بين رجلين يبدو أن كلاهما يعمل في هيئة ما تختص بصناعة الأسمدة الزراعية، تحدثاً كثيراً عن الفوسفات. أما ذاك الشاب الأنثيق الذي كان يرتدي سترة جلدية سوداء فكان يصبح في هاتفه معاذباً صديقه على إلغاء الموعد الذي كان بينهما ليلة أمس. في مقعد آخر كانت هناك فتاة ساكنة كالصنم، تطالع كتاباً وتقرأ سطوره بهدوء شديد وكأنها حجر أصم، مرّ الوقت سريعاً وما زال "أنس" يحتفظ بهدوئه وحضوره اللطيف.

في تلك اللحظة كان أبوه لا يزال يقف خارج محطة القطار محملاً في زجاج نافذة سيارته التي كان "أنس" يجلس بجوارها منذ ربع ساعة بينما كان هو يقود السيارة منشغلًا بالزحام على الطريق وهو يقله لمحطة القطار، لقد رأى الرمز الذي رسمه ابنه على الزجاج بإصبعه عندما تكافأ البخار، أخرج هاتفه الجوال وقام بالاتصال بالجد ليخبره، جاء صوته الهريم على الطرف الآخر من الهاتف:

- مرحبا يا "كمال".

- أبي....لقد رأه يا أبي، لقد رأى "أنس" الرمز.

- ماذ؟!!

- رسمه منذ قليل على زجاج النافذة الذي تكافأ عليه البخار بإصبعه، وما زال مرسوماً أمامي. - امسحه بسرعة.

فتح الأب باب سيارته ثم مسح الزجاج من الداخل بمنديل ورق ثم تلفت حوله ليتأكد أن ليس هناك من يراقبه، ثم عاد يقول لأبيه:

- محوته يا أبي.
- يا إلهي..لا بد أن نستعد.
- وماذا سنفعل؟ هل سنخبره أم سنتنظر حتى يحين الوقت؟
- يبدو أنه قد حان الوقت بالفعل!
- نعم.. فالكابوس يتكرر، كما أنه...
- ماذا؟
- سمع صوتنا أنتويا الليلة.
- وماذا قال له؟
- لا يذكر... أخبرني أنه نسي ما همس به ذاك الصوت في أذنه، أنا قلق عليه، لا أطّله سيمتّوا بسهولة!
- لا تقلق عليه.
- وكيف لا أقلق وقد مررت بما سيممر به من قبل!
- لكثلك بخير يا ولدي.. أليس كذلك؟
- نعم أنا بخير لا تقلق يا أبي، وماذا عنك؟
- لا تقلق... سأكون بخير، "كمال" لا بد أن تأتي الآن في القطار التالي
- حسناً يا أبي سأفعل إن شاء الله
- انتهت المكالمة وقد بدأ القلق يستبد بـ"كمال"، هبت ريح قوية فأصابته قشعريرة فأسرع إلى داخل سيارته، تفّقّع أمام المقود وأطرق مفكراً يجترّ ما مرّ به في الماضي، متفكراً فيما سيممر به ابنه "أنس". كان يجلس صامتاً وعيناه تجوسان في حزن بين أمواج البشر، تذكر الخوف، الرهبة، أن يختاره أحد ما ويُثْقَب به وينتظر منه أن يقدم له الكثير! وتذكر الشعور المقيت بالوحدة هناك، انتبه للوقت فوثب خارجاً من سيارته وأسرع يستقلّ القطار التالي ليلحق بابنه "أنس".



خفف القطار من سرعته وأطلق صفيرا اهتزّله زجاج النوافذ، وشب الركاب من أماكنهم واحداً تلو الآخر عندما لاحت لهم لافتة المحطة، تزاحموا في الممر المؤدي لباب القطار فسقطت بعض الحقائب من أعلى الرفوف، ترجل "أنس" من القطار ثمّ وقف يفتح بين وجوده المارة عن وجه جده، أخيراً التقى عيناه من وسط الحشود فقامته المديدة وعليها المعطف الأزرق الطويل، ولحيته الرمادية اللطيفة التي بزرت من الوشاح الخوخي اللون الذي كان يلف به عنقه، عويناته المستديرة، ونظرته الواثقة من خلفها، وتلك الابتسامة الواسعة التي كانت تضيء وجهه، كل تلك اللفتات البسيطة التي يجدها "أنس" ميّرت جده عمن حوله فأسرع يحتويه في حضنه. طال العناد قبل أن يقول الجدّ وهو يمسح وجه حفيده بكفة الدافئة:

- ازددت طولاً يا أنس، وتباعد منبكاك.
- أرأيت، الآن أنا الذي يحتويك في حضنه يا جدّي وليس العكس.
- أوحشتني يا "أنس".
- وأنت يا جدي..أوحشتني كثيراً.

أسرعا بالخروج من الزحام واتجهوا معاً إلى بيت الجدّ حيث كانت هناك الكثير من الأحجيات التي لا يعرفها "أنس". من بعيد كان هناك من يراقبه ويرصد حركاته وهو يتبعه مع جده. كان يتفحّصه بإمعانٍ شديد.

وقفت سيارة الأجرة أمام بوابة بيت الجدّ الحديدية، والتي كانت تتتوسط السور الحجري الذي يحيط بالبيت، كان ارتفاع السور شاهقاً وقد تدلّت من فوقه أغصان الأشجار وكأنّها تراقب الطريق. بعض الفروع بدت مخيفةً وكأنّها تهدّد من ينظر إليها. كان السائق يحدّق في التوابعات حديد البوابة باندهاش، رفع حاجبيه وهو يلقط النقود من يد الجدّ الذي رمقه بصراحة وهو ينصت إليه وهو يقول:

- بوابة رائعةٌ وبيت أنيق.

أنطلق السائق متقدماً ومتبوعاً بنظرة تبرّم من الجدّ، وكأنّ السائق قد طالع للتو إحدى نسائه المختبئه في خدرها! حمل "أنس" حقيبته الجلدية على ظهره، ورفع الأخرى بيده عن الأرض ثمّ دلف مع جده من البوابة وسارا معاً

فوق ممر ضيق مرصوف بالحجارة بين صفين من الأشجار القصيرة على الجانبين. وقف أخيراً أمام باب البيت المصنوع من خشب الزان العتيق، آخر الجدّ مفتاح الباب من جيبه ليفتح الباب بينما كان "أنس" يتفحص النقوش الغريبة التي كانت تتوسط الباب والمطعمة بقطع دقيقةٍ من النحاس. انعكس الضوء عليها فتلاعب بريقها الذهبي بعيوني "أنس" الذي قال باندهاش:

- تلك النقوش بدعة حقاً، لا أدرى لماذا لم أنتبه لها من قبل!

رمقه الجدّ بطرف خفي ولم يعلق، ثم دفع بباب البيت بحرص فأصدر أزيزاً مزعجاً ليس غريباً عن "أنس" بل ربما يشتاق إليه، أسرع "أنس" بخطى وأثنية وألقى بحقيبته بجوار الحائط ووقف في وسط ردهة الاستقبال وفتح ذراعيه ودار حول نفسه وكأنه يحتضن أجواء البيت ثم قال بمن:

- كم أحبّ هذا البيت....أحبّه كثيراً.

ابتسم الجدّ وقال بود:

- هو بيتك يا حبيبي، وبيتكم جميماً.

فاجههما صوت ارتطام قوي، سقط شيء ما على الأرض. أسرع الجد إلى غرفة المعيشة وتبعه "أنس"، كان هناك كتاب على الأرض وحوله تبعثر حطام جزء من تمثال رائع من خشب الأبنوس الأسود لشجرة عجيبة، انحنى الجد وأمسك بالجزء المحطم، كان فرعاً من فروع الشجرة، بدت على وجهه علامات القلق وجال بعينيه في الغرفة وكأنه يبحث عن شيء ما، انحنى "أنس" والتقط الكتاب، تأمل غلافه الجلدي الباهت بتعجب، كان لونه يشبه لون التراب المبلل بماء المطر، شابته لفحات من لون يشبه لون قشر البرتقال الجاف، أمّا الأوراق فقد بدت صفراء عتيقة.

وقرأ عنوانه بصوت مسموع:

- "أبادول"...ماذا تعني تلك الكلمة يا جدي؟

cad "أنس" يفتح الكتاب ليقرأ اسم مؤلفه، لكنَّ جده خطفه من بين

يديه بطريقة لم يعهدنا منه من قبل! وأعاده إلى الرف ثم أسرع نحو النافذة غير مكترث برد فعل أنس وأزاح الستار ونظر إلى الحديقة نظرة فاحصة ثم التفت وعقد حاجبيه قائلاً:

- "أبادول" كلمة نوبية، تعني الجد (أبا) بمعنى (أبي) و(دوول) بمعنى (كبير).
 - ابتسم "أنس" ومازح جده قائلاً:
 - حسناً يا أبادول...من كسر الشجرة، ولماذا ألقى الكتاب على الأرض؟
 - رِيمَا "صفية"
 - ولكن أين هي "صفية"!
 - أو زوجها..رِيمَا!
 - لا أرى العم "راغب" هنا كذلك! هل لديك قطة يا جدي؟
 - رفع الجد حاجبيه وكأنه وجد صالتة وقال:
 - ربما، أحياً تقفز القطط من نافذة الحديقة، سأخبر "راغب" ليبحث عنها.
 - جدي..هل أنت بخير؟ يدك ترتجف!
 - أدرك الجد أن "أنس" قد لاحظ ارتباكه فرسم سريعاً على وجهه ابتسامة واسعة وأمسك بذراع حفيده وسار معه وهو يقول:
 - لم أفتر حتى الآن، يبدو أن معدل السكر قد انخفض في دمي.
 - ثم قال وهو يحثّه على المسير:
 - هيا هيا، بدّل ملابسك لتناول الفطير الشهي معّا، فقد أعدته "صفية" خصيصاً لك، فهي تستعد منذ أيام لوصولك.
 - اشتقت للحديث معها، ولقصصها عن جدتي.
 - نعم، كانت جدتك تُحبّها جداً.
- سار "أنس" مع جده الذي كان حريصاً على إخفاء الكتاب عن عين حفيده

قبل أن يخرج من غرفة المعيشة، في تلك اللحظات كانت تتعالى الهمسات في غرفة الأشباح بالطابق العلوي، هناك صوت أنثوي رفيق يصدر من تلك الغرفة الغريبة وينادي على "أنس"... بينما هو يمضغ قطعة من الفطير الساخن بجوار جده وينصت لحكايات "صفية" عن جدته التي توفيت قبل أن يولد.

وقف "أنس" ليراقب اهتزاز الأغصان من نافذة المطبخ، لم يغادره منذ أن تم طعامه هو وجده، كان المطبخ دافئاً وكانت أحاديث "صفية" وزوجها - والذان يعيشان في هذا البيت منذ عمر طويل - عن الماضي لطيفة وحميمية، وضع "أنس" كوب الشاي على طرف المائدة برفق وهمس لجده وهو يمدّ يده:

- أعطني مفتاح المكتبة يا جدي.

التفت الجد متوتراً قال:

- دعك من القراءة الآن واجلس معي فالإجازة طويلة.

- إذن فلنذهب معاً.

تردد الجد للحظات، وأطرق قليلاً ثم أخرج المفتاح من جيبه وأعطاه لحفيده وقال له:

- هذه المرة لا بد أن تذهب وحدك.

ابتسم "أنس" فقد تعجب من كلام جده، فهو يعلم حرصه الشديد على كتابه ولم يتركه أبداً يذهب إلى المكتبة وحده! أسرع بالتقاط المفتاح من يد جده وهو رول إلى المكتبة، بينما وقف الثلاثة - الجد وصفية وزوجها راغب - يراقبونه من خلف زجاج نافذة المطبخ المطلة على الحديقة، لو التفت إليهم لأفزعته عيونهم الشاخصة تجاهه! لكنه لم يتلفت.

دلف "أنس" إلى الغرفة بعد أن فتح بابها بصعوبة، يبدو أن المفتاح القديم قد صدئ.

كانت الغرفة باردة جداً على عكس أجواء الحديقة التي دفأتها أشعة الشمس، وكانت تعقب برائحة الورق العتيق الممتزج برائحة الرطوبة، التفت بعد أن قام بإضاءة المصباح وراقب الرفوف بتمعن. في كل مرة يقرأ

العديد من الكتب لكنه في النهاية يستقر على كتاب واحد. ويرفض الجد أن يعيده أياً منها أبداً، فتلك الكتب غالباً عليه وكأنها قطع من ماضيه وذكرياته تستقر على الرفوف. كان "أنس" يعود حزيناً ويظل على شوقة حتى يعود في إجازة أخرى ليقرأها.

من عادته أن يقرأ اسم الكتاب أولاً، ثم يطالع شكل الغلاف، ثم يقرأ اسم المؤلف، وأخيراً يطالع الفهرس بسرعة. لمح على أحد الرفوف العلوية مجموعة من الكتب تشبه ذاك الكتاب الذي رأهاليوم في غرفة المعيشة حيث كان ملقى على أرض الغرفة. نفس الغلاف الجلدي الباهت، نفس اللون القريب من لون التراب المبلل بماء المطر، وقد شابتة لفحات من لون آخر يشبه لون قشر البرتقال الجاف، ونفس الأوراق الصفراء العتيقة. استدار ليحمل السلم المستند على الجدار وقربه من الرف، ثم تسلاه بحدٍ ليسحب كتاباً من تلك المجموعة، اهتز السلم الخشبي فأسرع يهبط خوفاً من السقوط.

تناهى إلى سمعه صوت غريب، وكأنه صوت صرصور يعبث بالورق.

تجاهل الصوت وكاد يسحب كتاباً من رف آخر ليفاجأ بالكتب العتيقة التي كانت تستقر على الرف العلوي تطير في الهواء. حاقت فوقه وكأنّ هناك يداً خفية تحركها، كانت صفحاتها تتقلب بسرعة رهيبة، تصاعد صوت أنين وكأنّ هناك شخصاً يُعذّب، تلاه صراخ رهيب أفرع "أنس"، حاول أن يهرب لكنّ ساقيه تسمرتا بأرض الغرفة، كان يحدق في الكتب وهي تدور حوله في دوامة، توقفت الكتب فجأة وظلت معلقة في الهواء للحظات ثم هوت على أرض الغرفة بانتظام في حلقة حوله ودوى صوتها بقوة انخلع لها قلبه، تصاعد الغبار الذي كان متراكماً على أرض الغرفة فشكّل هالة من الدخان الخفيف حوله، عادت صفحات الكتب تتقلب بسرعة كطاوحين الهواء، انتشرت رائحة غريبة تشبه رائحة الصدأ، ثم انغلقت الأغلفة فجأة إلا كتاباً واحداً ظلّ مفتوحاً أمام "أنس" الذي كان يشعر بنوبات قلبه في عنقه، كانت الأوردة نافرة توشك على الانفجار، شفاته وعضلات وجهه ترتجف في فزع، وقد احتقن وجهه ، رفع يده التي كانت ترتجف ومسح وجهه، ثم بصعوبة حرك قدميه تجاه الكتاب وانحنى ينظر إليه، كانت صورة وجهه تظهر تدريجياً على الصفحة الأولى وكأنّ هناك شيئاً يرسمها بينما هو ينظر! ازدرد ريقه بصعوبة وحدق مرّة أخرى فيها وكأنه لا يصدق، ثم مدّ يده بوجل وأغلق

الكتاب ليقرأ عنوانه، كانت هناك كلمة واحدة مكتوبة بخط واضح "إيكادولي"، قلب الكتاب باحثاً عن اسم الكاتب فلم يجده، لكنه فزع عندما رأى العلامة التي رأها في الكابوس ليلة أمس على سطح ماء النهر الذي كاد يسقط فيه قبل أن يستيقظ، كانت العلامة مكتوبة باللون الأحمر الكرزي على الغلاف من الخلف، بيد أنَّ كل صفحات الكتاب كانت خالية من الكلام! التقط "أنس" الكتاب وركض إلى داخل البيت.



(٢)

"غرفة الأشباح"

كان الجد في غرفة المعيشة عندما اقتحم "أنس" الباب وركض نحوه، ثم جلس بجواره وبين يديه الكتاب، أنفاسه المتسارعة والتي كان يلتقطها من فمه تسببت في حفاف حلقه ولسانه، صاح بفزع :

- الجن.. تلك الغرفة مسكونة لا ريب... الأرواح... الأشباح.

- اهدا يا "أنس".

- الكتب تطير... و.. والأوراق تتحرك بسرعة.. هناك صوت يصدر من بين الكتب.

حدجه الجد بنظره ثاقبة وقال بجدية:

- هل رأيت الرمز؟

انقطعت أنفاس "أنس" فجأة، لم يتوقع هذا السؤال! ازدرد ريقه وقال بخفوت:

- أيّ رمز!

أمسك الجد بعلبة السكر التي أحضرتها "صفية" قبل دخول "أنس" بلحظات مع كوب آخر من الشاي الساخن وسكبها على سطح الطاولة ثم حرك إصبعه ورسم الرمز الذي رأه "أنس" في الكابوس وعلى ظهر الكتاب، كان الرمز يشبه حرف "تي" باللغة الإنجليزية ..

—
T

وفوقه خط أفقى يوازى قمة الحرف، حملق فى وجه جدّه ثم سأله:
- أخبرنى يا جدّي أرجوك، ماذا يعني هذا الرمز؟

- الرقم ثلاثة باللغة التوبية .. تويكو toycko .. لقد اختارك الكتاب يا "أنس".

- ماذ؟

وقف الجدّ واتجه إلى رفوف خشبية معلقة على جدار الغرفة وسحب الكتاب الذي كان بالغرفة عندما وصلا من محطة القطار، ووجده كلاهما ملقى على الأرض، أمسكه الجدّ أمام صدره وقال بجدية:

- لقد اختارني من قبل كتاب "أبادول" ومعناها الجدّ كما أخبرتك، وكان رمزي الرقم واحد ويرا wera .. أما والدك فاختاره كتاب "أمباب تود" ومعناه ابن أبيه وكان رمزه الرقم اثنان.. أوبيوو oywoo .. كلا الكتايبين يحكي قصة، صراع بين الخير والشر، النهار والليل، الأبيض والأسود، وكان لا بدّ من التدخل!

- لا أصدق، هذا هراء، الكتاب جماد! لا بدّ أن هناك أرواح تعبث به أو جنّ يسكنه!

امسك الجدّ بذراع حفيده وسحبه، سارا معاً تجاه غرفة "أنس"، قال وهو يسير بخطوات سريعة:

- تلك الكتب حيّة يا ولدي، إنّها تنفس، تعيش، وتشعر بنا.
هزّ "أنس" رأسه باستنكار وقال:

- مستحيل!

- ما حدث معك حدث مع أبيك ومعي أيضًا.

- ماذا تعني؟

- لا أدري عن أي شيء سيحكي كتابك، فالكلمات لن تظهر إلا لك.

- لا أفهم.

فتح الجد باب غرفة "أنس" وأمسك حقيبة حفيده الجلدية وأخرج منها الحاسوب النقال ثم قلها على الفراش ليفرغ كلّ ما بها، ثم قال وهو يتجاهل نظرات "أنس" الذي بدا عليه الضيق لأشياء المبعثرة:

- بعد أن تبدأ رحلتك ستظهر الكلمات على السطور، صفحة بعد صفحة.

- لماذا أفرغت حقيبتي بتلك الطريقة يا جدي!

- لن تحتاج لتلك الأشياء، سأزودك ببعض الأشياء الأهم، لا بد أن تستعد، ولتحمد الله أن هناك من يدلك فقد كنت أمضى في رحلتي قبلك لأول مرة وحيداً بلا دليل..هيا تعال معى.

- إلى أين؟

- غرفتي...هيا بسرعة الوقت ضيق.

- ما زلت لا أفهم.

دلف الجد لغرفته وفتح خزانته وأخرج صندوقاً خشبياً بديع الشكل عليه نقوش أزهار عجيبة وبارزة مطعمة باللون الذهبي، له قفل نحاسي لام وبراق ثم قال:

- يبدأ الأمر عندما يختارك الكتاب، لتدافع عنه، ربما عن تاريخ، وربما عن قيمة عظمى، سطرها أحد أمراء النوبة المعروفين قديماً وهو الأمير "أواوا" على أوراق البردي من خلال قصص ألفها بنفسه، كان شاباً نبيلاً، وأميراً طيب الخلق أحبه الشعب، لكن الملك لم يُحبه.

أخرج الجد قلادة عجيبة ألبسها لأنس فور أن سمحها من الصندوق، ورماية صغيرة زرقاء تحتوي على سائل أسود لنج محفوظة في علبة مبطنة بالقطيفة الحمراء، وقال بجدية:

- ستحتاجه، لم يتبق لدى إلا القليل فحافظ عليه.

- ما هذا؟

لم يُجبه الجد لكنه سحب خنجرًا عجيباً له مقبض ذهي نقوشه بدعة الشكل، ودمّها في الحقيبة الجلدية الخاصة بأنس، قال "أنس" بتورّ:

- خنجر ولم ساحتاج خنجرًا!

- ليس مجرد خنجر عادي يا "أنس".... ستقطع به مسافات طويلة

- كيف!!.. وإلى أين سأذهب!!

- سأخبرك بالتفصيل بعد أن أمتّك بما أملكه وربما سيفيدك.

خرج "الجد" من الغرفة وهو يشير له ليتبعه.

سأله "أنس" بتعجب وهو يتحسس القلادة ويتأمل النقوش التي عليه:

- هل كان ذاك الملك يكره ابنه "أواوا"؟

- بل عمّه... الملك "كاشتا" الذي لم ينجب أبداً، وكان قلبه ممتلئاً بالحقد تجاه أخيه الملك "ألازا"، كان يغار منه فقتلته ليفوز بالعرش.

- والأمير؟ ماذا حدث له؟

أسرع الجد إلى صالة الاستقبال حيث كانت تتدلى من السقف ثريتا بدعة ووقف يتفحّصها بتمعن وكأنه يبحث عن شيء ما، وقال على مهل وعيناه معلقتين بالثريا التي تتدلى من السقف:

- ألقى حواس الملك القبض على الأمير النبيل "أواوا"، وحبس في سرداد تحت الأرض مع زوجته وأبنائه، كانوا يطعمونهم كالكلاب، يلقون إليهم بالطعام من فتحة ضيقة، حتى الأطفال لم يرحموهم من هذا القهر، حتى رق إلى حالهم أحد الجنود فكان يحمل إليهم المزيد من الطعام في الخفاء، وطلب منه الأمير "أواوا" بعضاً من الأوراق ليبدأ بالكتابة والتدوين، وعكف على كتابتها لتكون مرجعًا لأبنائه، ليتعلموا منها.. نفذت الأوراق فانتقل ينحت على الجدران، لم يتمكن من التوقف عن التدوين، كان يكتب طوال الوقت، ثم امتلأت الجدران فجلس يحكى بقصتها لزوجته، وظل يكررها عليها حتى لا تنساها... ولكن...

- ما الذي حدث؟

كان الجد متوفراً ومرتبكاً بينما "أنس" يتبعه كظله وهو يتحرك بالبيت. ما يسمعه كان أكبر مما يستوعبه عقله، لكنه كان ينصلح لجده بتركيب شديد:

- مرض الأمير "أواوا" مرضاً شديداً، ظلت زوجته آنة سيموت، أوصاها وصيته الأخيرة ثم اختفى فجأة، فقد فوجيء العراس بزوجته وأبنائه وحدهم داخل السرير! كما اختفى معه الحارس الذي كان يساعد، استيقظت زوجته ولم تجده! في هذا الوقت لم يكن ابنه قد أتم العاشرة من عمره بعد، فخرجت زوجة الأمير ومعها ابنتها ، وحملت معها كتابات زوجها، وخلفت وراءها ما على الجدران رغمًا عنها، لو ملكت أن تنزع الجدران لفعلت، اكتفت بما تحمله من أوراق وما تحفظه من حكايا، هربت بابنتها وابنتهما واختفت لفترة طويلة، ولم تعد إلا بعد أن علمت بوفاة الملك الظالم، خلال فترة اختفائها كانت تقرأ ما دونه زوجها على ابنتها الأكبر كل يوم، وكانت شقيقته ما زالت صغيرة جدًا على استيعاب مثل تلك الأمور.

توقف الجد عن سرد الحكاية على "أنس" ثم مدد يده إلى قطع الكريستال البديعة التي كانت تتدلى من الثريا وبدأ يجذبها، أشار لأنس وقال وكأنه يستعجله:

- اقترب فأنت أكثر مني طولاً، اخلع القطع الزرقاء التي تبرق فقط، ستحتاجها هناك، لقد أخفيتها هنا منذ سنوات.

رفع "أنس" عينيه تجاه الثريا وأخذ يحملق في قطع الكريستال، كانت جميعها متشابهة، لامعة وتبرق! لا اختلاف بينها، لكنه بعد لحظات بدأ يميز التي تبرق بشكل غريب عن غيرها، كانت تومض وميضاً خفيفاً وكأنها تضاء من الداخل، بدأ يخلعها واحدة تلو الأخرى، كان يشعر بحرارة في كفه كلما التقط واحدة منها، أعطاها لجده الذي وضعها في كيس جلدي حتى ملأه ودسهها في حقيبة أنس. سأله أنس وما زال القلق يستبد به:

- وماذا حدث لهم؟

- عندما كبر الابن واشتد عوده وخرج للحياة، صدم بالواقع، وبحث حوله

عما قرأه في كتابات والده فلم يجد شيئاً من تلك المبادئ! فغضب غضبة شديدة، وتعلق الشر في نفسه إثر الظلم الذي وقع على والده وعلمه، ورأى من منظوره الضيق أن تلك المبادئ لا تصلح للحياة، وأن التمسك بها ضعف، وأن من أراد الحياة لا بد أن يكون حراً لا يخضع لحدود ولا تحكمه قيم، وأن هذا هو الأبقى والأصلح للحياة الأهنا والأرعد، عاث في الأرض فساداً، وأقبل على كتابات أبيه ليحرقها لكنه تراجع عندما غضب الكثيرون منه وبدأوا يدونونها بأنفسهم في أماكن متفرقة ليحفظوها مرات أخرى، فقد انتشرت بشكل كبير واشتهر أبوه بها، بعد فترة تخللتها الكثير من الأحداث استعان بكهيل لئيم بارع في الكتابة، فساعدته في تغيير محتوى الكتابات والقصص التي كتبها والده الأمير "أواوا" قبل وفاته وكأنه ينتقم منها، كره ما فيها وألقى علمها اللوم وكأنها السبب، زُيفت العبارات وتحت القصص قلبت نهاياتها وأصبح البقاء للأكثر سوداوية وخبئاً.

مرت الأيام والشهور وكبرت شقيقته وقرأت ما بالكتب، وأآل أمر حكم البلاد إليهما، فتنازعوا أمر الحكم فيما بينهما، وأصبح ابن الأكبر يحارب شقيقته الصغرى التي ظلت على نقاها وفطرتها ولم تنس أبداً ما روت له أمها عن أبيها من فضائل، وأنكرت ما فعله، انقلب عليهما ثم حبسها في نفس المكان الذي حُبس فيه من قبل... و....

قاطعه "أنس" قائلاً:

- ولكن تلك الكتب رغم اصفرار أوراقها ولو أنها المختنق هي حديثة عهد بالطباعة مقارنة لما تحكيه لي، ليست تلك أوراق برد!

تعصّب الجد وقال بحدّة:

- لا تقاطعني فالوقت يمر، دعني أكمل لك الحكاية حتى لا يداهموننا فجأة وأنت غير مستعد.

- من هم؟

أغمض الجد عينيه وتتجاهل السؤال الأخير وبذا وكأنه يصر على إكمال ما يسرده على حفيده أولاً حتى لا ينسى شيئاً وقال:

- عثر علماء الآثار على اسم الأمير "أواوا" المختفي منحوتاً على أجزاء من تمثال فخاري مهشم لأسير مقيد. يبدو أن عمه "كاشتا" قد طلب صنعه عندما فشل في العثور عليه، وهشموه عن قصد. كانوا يعتقدون أنه في حالة صنع مسجد للعدو، وكتابة اسمه عليه، ومن ثم تهشيمه، فإن ذلك سيلحق به الأذى أو يقتله عن طريق السحر. فقد رغبوا في إيزانه - عن طريق السحر- طالما أنهم كانوا عاجزين عن إلحاق الأذى به، هكذا كان اعتقادهم. كما عثر علماء الآثار أثناء الحفر على الأوراق المزيفة بجوار التمثال، وكانت مهترئة تفوح منها رائحة الصدأ، ولم يتمكن أحد من قراءة ما فيها نظراً لحالتها السيئة، كانت تتمزق وتتفتت بين أصابعهم، بقيت صفحات قليلة منها وتم إهمالها ورأى الباحثون أنها ليست ذات قيمة، تركوها مهملة حتى يقرروا هل سيعرضونها في متحف على حالتها أم ماداً، سرقها أحدهم وجمعها بحرصٍ شديد في أغلفة مخصصة، وعاد إلى الفيوم، وحملها لبيته ظاناً أنها من الممكن أن تباع ويحصل على ثروة إن أفلح في تهريبها وبيعها، وبات ليلته يُفكّر في الرموز القليلة التي بقيت على الأجزاء السليمة منها، في اليوم التالي استيقظ على صوت عجيب وكأنَّ أحدهم يبعث في الأوراق، وفوجيء بها وقد تجددت، والكلمات والرموز وقد اتضحت، فعكف يترجمها للغة العربية واحدة تلو الأخرى، رتب أموره وقام بدفع رشوة إلى العمال الذين يقومون بالحفر في المكان الأثري الذي كانوا يبحثون فيه، وزعم أنه قد عثر على كتابات جديدة في بقعة أخرى، أحدث اكتشافه هذا - كما زعم - ضجة كبيرة فقد كانت تضم بعضًا من الحكم والقصص النوبية القديمة، وتم طباعتها بإشراف هذا الباحث بعد ذلك. ومرت سنتون ابتلعت فيها صفحات الكتب التي طبعت كل الكلمات، تشربت الأخبار المطبوعة، رفضت الكتب أن تعكس الأكاذيب التي تسبّب ابن الأمير أواوا في نشرها حين طمس حكم ومبادئ وقصص أبيه، وحان وقت استعادة الحقيقة ولكل دور في هذا!!

- وكيف عرفت كلَّ هذا؟

- لأنني ذهبت إلى هناك بنفسي.

- إلى أين؟

- مملكة غريبة.
- أيّ مملكة!
- "مملكة البلاغة".
- أنت تمزح معي يا جدّي...أليس كذلك!
- زفر الجدّ بحنقٍ ثمَ قال وهو يثقبه بنظراته:
- "أنس"، الأمر أكبر مما تخね، هي بالفعل مملكة غريبة.
- هرول "أنس خلف جدّه وسأله":
- أريد أن أفهم، ما تفعله يا جدّي غريب ويوتني، هل سأسافر الآن؟
- نعم
- إلى أين...النوبة؟
- لا...لا... تلك ليست بلاد النوبة! كما أخبرتك سترحل إلى "مملكة البلاغة".
- صاحك "أنس" بهمكم، كان متوتراً وكاد يفقد عقله، سأله جدّه بعصبية لم يفلح في إخفائها:
- أيّ مملكة تلك!
- أرض غريبة، المناخ فيها دائمًا يشبه ذاك الذي نراه في نهار الشتاء، الشمس باهتة، لن تكون واثقاً أنها أشرقت، وفي ذات الوقت لا تستطيع أن تنفي أنها هناك! ستشعر دائمًا بالبرودة، الطيور هناك يغطّيها ريشُ غريب الشكل واللون، ستتجدها أكبر حجمًا مما هي عليه هنا، الماء أحضر اللون، الضباب يلف كلَّ شيء، الأشخاص غربوا الأطوار والهيئة والملابس، وكأنَّ كلَّ مجموعة منهم أتوا من حقبة زمنية مختلفة، وبينة مختلفة، وكأنَّ هناك من جمعهم فجأة من أزمنتهم أو استدعاهم لمهمة ما، كما ستنتقل أنت إلى هناك.
- ثمَ التفت جدّه إليه وطالعه بنظرة جادة وقال:

- لقد تم استدعاءك اليوم.

- ومن قال أنني سأذهب!

- بل ستذهب إن شاء الله.

قالها الجد بثرة واثقة وهو يركز في عيني "أنس" الذي رفع كتفيه باستنكار وقال:

- لن أذهب

- بل ستذهب!

- أخبرني برتك ما الدليل على وجود تلك المملكة؟ لا بد من دليل مادي قوي قبل أن أصدق كلاما كهذا، ما عدت ذاك الغلام الذي يحب القصص الخيالية يا جدي.. أرجوك توقف عن معاملتي بتلك الطريقة أنت وأبي.. لقد كبرت.

- لأننا نخشى عليك، لن تفهمنا الآن يا "أنس"، ربما عندما تعود من رحلتك ستجد لنا العذر.

عاد الجد إلى غرفة المعيشة باحثاً عن الكتاب الذي اختار حفيده والذي كان عنوانه كلمة لم يسمع بها "أنس" من قبل... "إيكادولي" وقام بوضعه في الحقيبة، ثم التقط هاتفه الجوال، والتفت لحفيده قائلاً:

- هل تثق بي؟

- طبعاً.

- أظنني أكذب عليك؟

- ربما أنت تمنحك معي يا جدي!

- أخبرني يا بني كيف ظهرت فجأة شجرة الأبانوس تلك في بيتي وتبيست كالصنم بعد عودتي منذ سنوات؟

ثم رفع رأسه ناظراً لسقف الغرفة المزينة بالنقوش وأردف قائلاً:

- وكيف ظهرت النقوش الغربية المطعمة بالنحاس الموجودة على أسفف
البيت كله هنا فجأة بعد عودة أبيك من رحلته هناك؟

- وبم تفسّر هذا يا جدّي؟

- إنّها هدايا "الحراس" لنا على ما قدّمناه.

- أي حراس؟

- حرّاس المكتبة

- أي مكتبة؟

رفع الجدّ الهاتف على أذنه بعد أن قام بالاتصال بابنه "كمال" وقال
بصوت حاد:

- لا تتأخر يا "كمال"...لقد اختاره الكتاب، لا بدّ أنّهم على وصول!

.....

- حسناً نحن في انتظارك يا ولدي.

تسارعت دقات قلب "أنس"، كان يشعر بها في أعلى عنقه، وصوتها المتسارع
كان يطغى على مسامعه، يبدو أنّ أباًه في الطريق بالفعل، قال بصوت
مت hazırlanج:

- هل حقاً زار أبي أيضاً تلك المملكة؟

- نعم.

- كيف سافر؟.. أو انتقل كما تقول؟ وأنت أيضاً؟

- صقر كبير.

- ماذا؟

تذكر "أنس" الطائر الذي يراه في الكابوس، ومخالبه الكبيرة وهي تقپض
على كتفيه، فسرت قصصه في جسدك كالنار، قال وقد زاغت نظراته:

- يحملكم من أكتافكم ويلقي بكم هناك.. أليس كذلك؟
- ليس هذا ما يحدث بالضبط فالامر صعب التفسير ولكن.. بل سيحملك الصقر إلى هناك.
- وأين هذا الصقر؟
- يظهر في الغرفة الموجودة بالطابق العلوي.
- غرفة الأشباح!
- رفع الجدّ يده وهزّ سبابته بعصبية وقال:
- أما زلت مصرًا على تسميتها بهذا الاسم؟ لا توجد أشباح.
- بل توجدوها أنت تحكي عنها.
- هي حقائق... ستصدقها عندما تراها بنفسك.
- ولماذا لا يظهر هذا الصقر في الحديقة أو المكتبة!
- رمقه الجدّ بنظرة توحى بأنّه سيخبره بأمر مهم وقال:
- السبب هو بعد الجغرافي يا ولدي... فوق تلك البقعة تحديداً وفوق أرض غرفة الأشباح - كما تسميهما أنت - عكف عالم الآثار الذي أخبرتك عنه والذي كان يعيش هنا على ترجمة الرموز والحرروف وإعادة كتابة تلك القصص باللغة العربية واحدة تلو الأخرى، مشوهة كما زيفوها قديماً، فغضبت الكلمات، واستيقظت الحروف، وكانت الروح قد دبت فيها، واجتمعت الكتب وقررت أن تختر من يدافع عن القيم والمعانى السامية.
- فأرسلت الصقور في كلّ مكان لتبث عن المحاربين، الذين يؤمنون بالمبادئ السامية، ليدافعوا عنها ويستردوا الحقيقة.
- إذن هناك صلة بين الحكماء هناك والكتب؟
- بل بين حروف الكتابة وحرّاس المكتبة... ستعرف عندما تصل إلى هناك.
- ولكن ما الذي يجبرني على تصديق هذا الكلام؟ ولماذا سأسلم نفسي لصقر! كل هذا يدفعني إلى الجنون يا جدي.

- لا بد أن ترحل.

- لماذا؟

- لأن امتناعك عن إجابة نداء الكتب سيعرضك للخطر هنا، فهناك من يترصدونك، كما أنك ستلتقي بأعداء هناك ولديهم عيون.

- ماذا تعني بالعيون؟

- الرمز كما يظهر لك يظهر لأحد أعدائك، سيترصدون بك ويرسلون لك صياداً تلو الآخر، ليأسرك أو يقتلك قبل أن تصل إلى الحقيقة هناك. كما أن هذا سيؤدي إلى محو القيمة السامية التي في كتاب "إيكادولي" إلى الأبد .. ستقرأ الأجيال القادمة ما سيكتب وسيصدقونه.

صمت الجد هنئه ثم سأله:

- والآن، ما هي الكلمة التي ترددت في النداء؟

- أي نداء!

- ذاك الصوت الذي سمعته يناديك في الحلم.

- وكيف عرفت أنني سمعت نداءً في الحلم؟

- أخبرني أبوك، فقد هاتفني فور خروجه من محطة القطار، رأى ما رسمته على الزجاج...الرمز!

فغر "أنس" فاه ولم ينبع ببنت شفة، الآن فقط انتبه، لقد كانت الكلمة التي تردد هي "إيكادولي ... إيكادولي" ، كانت الفتاة التي تقولها تطيل الحرف الأخير وكأنها تصيب به، صوت عنبر جميل تشوبه مسحة ألم وأنين كنوح الحمام. ارتفع زامور سيارة أجرة، لقد وصل للتو، ترك "كمال" باب السيارة مفتوحاً وركض نحو البيت بعد نقد السائق الأجرة، اقترب "كمال" وطالع ولده ياشفاقي ثم مد يده وأظهر سلسلة كان يرتديها في عنقه يتذليل منها مفتاح قديم نحاسي اللون وأمسك بيده "أنس" ووضع المفتاح فيها وأطبقها على المفتاح بحنان ثم ضغط بقوّة وكأنه يؤكّد على أهميته، سأله "أنس" وما زال القلق قابعاً في عينيه:

- ما هذا المفتاح؟

- ستحتاجه، علّقه مع القلادة، منذ أن بدأ الكابوس يتكرر عليك يومياً وأنا أحمله لك أعطيه لك في الوقت المناسب.

نظر "أنس" لوجه أبيه القلق وهو يربت على كتفه بحنان، ثم قال:

- لا أود أن أرحل يا أبي...لماذا أنا؟

مسح الأب بحنان على خد ابنه وقال بإشفاق:

- أين الفضول؟ وأين حسن المغامرة؟ ألم تخبرني أنك مللت من حياتك الريتيبة وأنك تستفاق لتغيير ما في حياتك، ظننتك تود أن تلتقي بشبح! أليس كذلك؟

- وهل تلك أشباح؟

- لا يا بني... الأمر مختلف!

- إذن لكل منا كتاب خاص يختاره. كتاب جدي معناه الجد الأكبر، وكتابك يا أبي معناه ابن أبيه وعنوان كتابي "إيكادولي" وهي تعني الحفيد إذن؟

- لا !!

- إذن ماذا تعني يا أبي؟

- أحبك

- وأنا أيضا يا أبي أحبك... فأخبرني الآن أرجوك ما معنى تلك الكلمة.

التفت الجد إليهما وهما يتعانقان وقال بتيرة ساخرة:

- أيها الساذج!... "إيكادولي" تعني "أحبك".

في تلك اللحظة هبّت ريح قوية اهتزت لها جدران البيت، سقطت أوراق أشجار الحديقة بكثافة وكان فصل الخريف حلّ فجأة، طارت الأوراق ثم

رشقت النوافذ فصدر صوت مخيف مزعج، أظلمت السماء، وامتلأت بالغربان السود، تدافعت الطيور نحو النوافذ كأنها تحاول اختراقها، صاح الجدّ وجهاً كلامه لحفيده والذي كان فاغراً فاه وقد اتسعت عيناه:

- "أنس" أسرع إلى الغرفة، فهي آمن مكان لك الآن.

صاحب "كمال" وهو يدفع ابنه أمامه على الدرج:

- لن ترحل تلك الطيور إلا بعد أن يحلق فوق البيت.

قال "أنس" وهو يصعد الدرج بخطوات متربدة:

- من؟

- الرمادي

- وما هو الرمادي؟

- الصقر الذي سيحملك إلى هناك.

- وهذا هو اسمه؟

- نعم...

- أنا خائف يا أبي.

عانق "كمال" ابنه، وضمه إلى صدره بقوه، ثم قبل رأسه وقال بحنان:

- "أنس" كن صادقاً وثابتاً مهما كان التّمن، ولا تخف من "الرمادي" فلن يؤذيك.

قاد "أنس" يقول شيئاً لوالده وهو يساعد في رفع الحقيبة على ظهره، لولا صوت تحطم الزجاج الذي دوى في بهو البيت، لقد استطاعت الغربان أن تحطم النوافذ، كانت تتوجه مباشرة نحو الطابق العلوي، نحو "أنس"، إنها

ترىده... تستهدفه... تطير تجاهه.

أدرك "كمال" أنها تقترب فدفع "أنس" إلى داخل الغرفة فأسقطه على الأرض وصاحت بصوت يمزقه القلق:

- أستودعك الله يا ولدي... في حفظ الله..

وأغلق الباب بسرعة، ثم بعد لحظات عم سكون مهيب على المكان... اختفت كل الأصوات عدا صوت خفق جناحيه في الهواء، لقد بدأ الرمادي يحلق فوق البيت فأضاءت السماء فجأة!



(٣)

"الرمادي"

كان "أنس" مستلقياً على أرض الغرفة عندما انفتحت النافذة فجأة، أضاءت السماء بنور قوي ناصع، حملق في تلك البقعة السوداء التي تظهر وسط الضوء أمامه، كانت البقعة تكبر وتزداد اتساعاً، وتزيد، وتنزد، ظهر طائر يبسط جناحيه على الجانبين ويتحقق بهما، رأى ظله يتعلّق أمامه حتى اندفع فجأة من النافذة ثمَّ ظلَّ يحلق في سقف الغرفة المترفع في دائرة فوق رأس "أنس" الذي زحف بصعوبة تجاه باب الغرفة يحاول فتحه لكنه فشل. كان الصقر ذا ظهر أزرق ضارب إلى الرمادي الأردوازي، والجسد أسود يخرج منه جناحان مبرقشان، وذيل طويل ضيق مستدير عند نهايته، ذو طرف أسود وعلامة بيضاء على أقصاه. ويظهر أعلى رأسه على الجانبين لون أزرق بديع، ويمتد على الوجنتين خطًّا كما الشارب يتباين بشكل حاد مع جانبي العنق الباهتين. بدا الصقر متيناً مهيب الطلعة.

هبط الصقر فجأة وانزوى في ركن الغرف وطأطاً رأسه ثمَّ ضمَّ جناحيه وألصقهما بجسمه، حدق في "أنس" بعينيه المخيفتين، ثمَّ غطَّس رأسه في جسمه. مرت لحظات طويلة على "أنس" استيقظت فيها كل حواسه، كان يرهف السمع بشدة لعله يسمع أي صوت يؤنسه، بالتحديد كان يتمفي أن ينادي أبوه أو جده من خلف الباب، حاول أن يفتحه مرة أخرى لكنه فشل، كان صلباً كالصخر الأصم وكأنه جزء من الجدار. سار ببطء محاولاً الاقتراب من النافذة، غغم الصقر وكأنه يحاول أن يمنعه من الاقتراب منها فتسمرت ساقاً أنس والتتصقتا بالأرض، ثمَّ رمى الصقر بطرفٍ خفي وهمس محدثاً نفسه:

- ظننتك أكبر حجماً منها "ا..ل..ر..م..ا..د..ي" كচ سور الأساطير العملاقة.

حرّك قدمه ببطء شديد ليخطو خطوة أخرى فتحرّك الصقر موازياً
لخطواته فتوقف "أنس" مرة أخرى وقال بسخرية:

- ترصدني إذاً أيمها الصغير!

- لست صغيراً يا صديقي.... أنا شيخ كبير!

شعر "أنس" وكأن ألف إبرة رشقت جسده، تكورت جذوع الشعر على جلده
فاستحال جلد إوزة، الصقر يتكلّم! ابتلع ريقه بصعوبة وكأن كتلة من
الأشواك تحتل حلقه، بسمل وحوقل وببدأ يقرأ آية الكريمي لعله يختفي من
أمامه، أغمض عينيه لعله يستيقظ من ذاك الكابوس.. لكنه لم يكن حلماً
أبداً! لم يتمكن من تحريك جسده مرة أخرى، باعثه الصقر وهب فجأة محلقاً
بضريبة جناح واحدة ووقف على كتفه الأيسر، ثم همس في أذنه:

- لا تخف معي يا "أنس".

كانت قطرات العرق تنسل على ظهر "أنس" متتابعة، وكاد يفقد الوعي،
لكنه تماسك. كان يخشب رقبته محدقاً بطرف عينيه بتريص نحو موضع
الصقر وراءه، وكأنه يخشى انقضاضه عليه فجأة، ظنَّ أنه سينقره في رقبته أو
أذنه لكن الصقر كان هادئاً جداً وساكناً. مرت دقيقة وهما على ذاك الحال
وكأنهما تمثلان من الشمع. أخيراً نطق الصقر مرّة أخرى وقال بلطف:

- هل هدأت الآن؟ لا أحب أن نبدأ رحلتنا وأنت ترتجف هكذا.

حرّك "أنس" عينيه تجاه كتفه وأدار رأسه ببطء وكذلك فعل الصقر
فتقاربوا عيناهما تماماً وحدق كلّ منهما في الآخر للحظات، ازداد "أنس" ريقه
بصعوبة وقال بصوت مرتعش:

- لا أصدق أنك ستتحملني؟

زفر الصقر فلامست أنفاسه بشرة "أنس" فانتصبت شعيرات ذقنه
الخفيفة، ثم قال له وهو يتسلق رأسه:

- لا تسير الأمور بتلك الطريقة يا صديقي، سأحملك حتماً ولكن بطريقتي
الخاصة.

استوى الصقر على رأس "أنس" الذي رفع مقلتيه لأعلى بينما بسط الصقر جناحيه في الهواء، ثم احتضن وجه أنس بهما ببطء ويهدوء شديد، حيث غطى وجهه كله بريش جناحيه ريشة فوق ريشة بانتظام، جهته وعينيه وأذنيه وخديه، لم يترك إلا أنفه وفمه ليتمكن من التنفس والكلام. شعر "أنس" بجسده يخدر، وسرى في نفسه شعور غريب، شيئاً فشيئاً خفّ جسده وكأنه ريشة في جناح الصقر! حاول فتح عينيه.. كان يظن أن ريش جناح الصقر ما زال يغطّهما، لكنه فوجئ بنفسه يطير وقد غمر الضباب كل شيء حوله، لفحته الرياح الباردة، وشعر برذاذ خفيف يبلل جبينه وكفيه، رائحة المطر الخفيف داعبت أنفه، عطس فجأة فإذا بصوت الصقر يصدر من أعلى:

- يرحمك الله يا صديقي.

رفع رأسه ففوجئ بالصقر وقد ازداد حجمه أضعاف حجمه الحقيقي الذي رآه منذ قليل في الغرفة، كانت مخالفه تقبض على كتفي "أنس" حيث يحلق به فوق "مملكة البلاغة"، ردّ بعد أن اضطرب قليلاً وتارجح بجسده من المفاجأة قائلاً:

- يالله!... يا له من شعور غريب!

- لا تخف من السقوط

- لا أصدق!

- بل صدق واستعد لما هو أكثر مفاجأة لك

- هل وصلنا؟

- اقتربنا، حاول أن تستمتع بالطيران.

بدأ الشعور بالخوف يغادر صدر "أنس" وحل مكانه تدريجياً الشعور بالفضول وبدأ حسن المغامر يدغدغ نفسه، كانت حياته راكدة لفترة طويلة، وهما هي الأمور تتغير فجأة! سأل "الرمادي" مستأنساً بحواره معه:

- هل تعرف جدي؟

- بالتأكيد.

- أخبرني أبي أنك صديق.

- أتمنى أن أحوز لديك نفس المكانة التي حزتها عند أبيك.

- كيف تتحدث كالبشر؟

- لا تسأل.

- لا بد أن أسألك!

- إذن ستقضي وقتك كله في الأسئلة، والوقت يمرّ، حاول أن تتقبل بعض الأشياء كما هي، لا تسأل إلا عما يفيدك، أما ما لا يعنيك ولا يفيدك فلا تضيع وقتك بالركض خلفه.

قال "أنس" متلثثاً:

- إنه... فضول أنيس.

قال الصقر وهو يخفف من سرعة طيرانه استعداداً للهبوط:

- بعض الفضول قد يفيد، وبعضه قد يؤذيك، فاحذر يا صديقي.

سرت طمأنينة في نفس "أنس" عندما تذكر والده وهو ينصحه بنفس النصيحة، بنفس الكلمات عندما كان يجلس بجواره في محطة القطار بالإسكندرية، لكن تلك الطمأنينة تلاشت سريعاً عندما بدأ "الرمادي" يقترب به من مصب النهر الأخضر. تسارعت دقات قلبه أكثر فأكثر، كاد يقفز من بين ضلوعه، كان البرد يزداد كلما اقتربا من سطح الماء، بينما كان لون الماء الأخضر الزمردي يزداد بهاء ووضوحاً.

هبّت رياح خفيفة فمسحت وجه الماء مخلفة وراءها تمويجات متوازية بد菊花، من بعيد وعلى شاطئ النهر كانت أوراق الأشجار المتساقطة تدور مع الرياح، وكأن هناك أيادٌ خفية تلاعب بها، كادت ساقاً "أنس" تلمس الماء، لكن "الرمادي" وبعد أن حلّق به بشاشة فوق سطح الماء تركه على ضفة النهر وارتفع محلقاً لدورة كاملة قبل أن يعود ليقف أمامه من جديد ويحيي رأسه

وكأنه يحييه، من جديد ضم جناحيه وألصقهما بجسده فبدا وكأنه أمير يتلحف ببراءة أنيق. كان "أنس" ما زال يتطرق، للحظات قليلة كان قد فقد اتزانه، لكنه تمالك نفسه وقال بعفوية:

- أنت سريع جداً.

ران عليهمما صمت خفيف قبل أن يحرك الصقر جناحيه ويقول:

- والآن اسمح لي أن أنصرف، انتهت مهمتي.

- ولكن! ماذا سأفعل أنا!

- سيستقبلك "المغاتير" ويصحبونك للقاء "الحوراء".

- ومن هم "المغاتير"؟

- قوم صالحون يخفون وجوههم فلا تهفهم.

- ولم يخفون وجوههم!

- لا ينتظرون الشكر، ولا يتغرون الأجر، استغنووا عن الناس فأغنواهم الله عن الناس وصار الجميع يحتاجون إليهم، ودائماً هم في الطليعة. انتظرهم هنا على أطراف الغابة خارج حدودها ولا تتحرك من مكانك فهم لن يدخلوها أبداً.

رفع "أنس" حاجبيه وكاد يسأله لماذا لولا أن "الرمادي" باعاته قائلاً:

- سأمر عليك في وقت لاحق.

ثم بسط جناحيه وارتقي يحلق في الفضاء مبتعداً عن "أنس" ومتوجهًا

صوب جبل مهيب أحاطت قمته هالة حمراء قاتمة، بربت من وسطها تلك القمة بشموخ وقد كساها الجليد الأبيض، شعر "أنس" بقشعريرة تجتاح جسده عندما رأى الجليد، كان الجو بارداً جداً. صاح وهو يركض موازياً لطيران الصقر على الأرض:

- أرجوك لا تتركي الآن، أريد أن أسألك عن أشياء كثيرة.

أجابه "الرمادي" وهو يبتعد:

- ستجيبك عنها جلاله الملكة.

توقف "أنس" عن الركض حيث انتهى الطريق ووقف على حافة وادٍ كبير، أوشك أن يسقط فيه لولا أنه انتبه ثم أرخى ذراعيه بيأسٍ وهو يراقب "الرمادي" وقال:

- وداعاً.

عاد "الرمادي" للتحليل فوقه وقال بنبرة حميمية:

- لا تقل وداعاً يا صديقي، بل قل إلى اللقاء.

- حسناً.. إلى اللقاء.

اختفى "الرمادي" مخلقاً وراءه "أنس" وهو يتلألئ حوله يتأمل الأشجار التي بدت وكأنها تطالعه بفضول، سار بضع خطوات نحو ممر ضيق بينها، أجمل عندما تناهى إلى سمعه حفيظ الأشجار وشقشقة العصافير،

تحسّن القلادة التي ألبسها له جده وطالع النقوش التي علّمها مرة أخرى، طال سيره فأحسّ بالإرهاق، تفحص ساعة يده فإذا بعقارها لا تتحرك! لقد توقفت عند الواحدة ظهراً، نفس التوقيت الذي غادر فيه بيت جده!

تدّرك شعوره وهو يحلق في الهواء، مزيج من الخوف والحماس بدأ يعتمل في صدره، استعاد رباطة جأشه على نحوٍ سريع! ما عاد فزعاً كما كان لحظة ظهور الصقر لأول مرة، بل خفت ذلك الشعور، وما عاد خائفاً كما كان والكتب تدور حوله في غرفة المكتبة، لكنه بالطبع قلق. استغرقته المشاهد وهو يجترّ ما مرّ به خلال الساعات الماضية في شرود بينما يتّظر ظهور "المغايير"^(١).



١ - المغايير لقب يطلق على نوع من الإبل البيضاء النفيسة جميلة المظهر وغزيرة الوبر. يقول عنها أهل الباذية: المغايير نور القلب.

ملح "أنس" طيقاً يمرّ قريباً منه قد افترش ظلّه على الأرض وقبل أن يلتفت نحوه فوجئ بخطبة على كتفه فالتفت متأهلاً وأمسك بنراع هذا الذي باعه فجأة من الخلف وسحبه ثم انقلب به على الأرض واضعاً ركبته فوق صدره وقابضاً بأصابعه العشرة على رقبته، ابتسم الشاب بسخرية وقد فتح كفيه مظهراً استسلامه الكامل لـ"أنس" وقال بصعوبة من أثرقوه قبضة "أنس" على أنفاسه:

- مهلاً يا رجل، وددت فقط أن أرحب بك.

خفف "أنس" من قبضته وتركه وتراجع إلى الخلف، تحسّن الشاب رقبته وقال بنظرية ماكرة:

- يبدو أنك تمارس الرياضة، أليس كذلك؟

- من أنت؟ وماذا تريدين؟

- أين تعلمت تلك المهارات؟ هياً أخبرني؟

حدّجه "أنس" بنظراته، بدا وجه الشاب يحمل مسحة من الوسامنة بشعره البني، وبشرته الباهة وفكّه العريض، وتلك النظرة الساخرة التي تُطلّ من عينيه الضيقتين، لكن تلك الملامح جعلت "أنس" يرتّاب منه. كان يظنّ أنه سيلتقي بأناس سمر البشرة وبلامح نوبية، كتلك التي قرأ عنها ورأها من قبل. سأله متاجهلاً سؤاله الأخير قائلاً:

- ما اسمك؟

- أنا "شهاب" وأنت؟

- "أنس".

بدأ "شهاب" يدور حول "أنس" ويتأمّله بتمعن ناقلاً عينيه من أخمص قدميه حتى قمة رأسه، ثم قال باستخفاف:

- تبدو غريباً عن المكان، ألك صديق هنا؟

أجابه "أنس" بتحفّز:

- الرمادي.

- ذاك الكهل الأحمق.

شعر "أنس" بالإهانة وكأنَّ السبَّة وجهت له، فأخفى غضبه وسألَه:

- وهل تعرفه؟

- أنا أعرف الجميع هنا... حتى ذاك الكهل البغيض.

بدأ كلاهما يدور حول الآخر، سأله "أنس" بترقب:

- هل... أنت مثلي!

خرجت من "شهاب" قهقهات عالية، استغرقته للحظاتٍ قبل أن يقترب منه حد ملامسته وقد شَخَّصَ فيه بسحنة متَّوِّدة:

- لستُ مثلك!

ثمَّ تغيرت ملامحه الضاحكة فجأةً وصارت صارمة، وقال وهو يتراجع إلى الخلف:

- أنا لست مثل أحد... أنا مختلف! أنا مميَّز.

التفت "أنس" تجاه الطريق الممتد أمامه بين الأشجار ورماه بنظرة حافظةٍ ثمَّ قال بهدوء محاكيًا طريقة "شهاب" في الكلام:

- كيف تعالج الأمور هنا؟

- أيَّ أمور؟

طاف "أنس" بنظراته في كل اتجاه ثمَّ قال:

- كلَّ شيء... أود أن أعرف ما دورِي.

- ليس لديك دور هنا، أنت مجرد شاهد.

- على ماذا؟

- على ما ستراء هنا من أحداث.
- لا أظنّ.

- ومن أنت حتى تظن أو حتى تفكّر!

تجاهل "أنس" نبرة الاستخفاف التي شابت الكلمات، وتخططاها قائلاً:

- لكلّ منا دور في حياته وحياة الآخرين، كلّ كلمة ننطق بها وكلّ فعل نفعله.
- لكن الأمور هنا ستسيّر رغم أنفك على طريقة لن تحددها أنت.
- صحيح، وهكذا الحياة كلّها، لكن لا تخبرني أننا هنا لنراقب في صمت كالجمادات.

ران عليهم الصمت للحظة، بدا فيها "شهاب" وكأنّه يجترب بعض الذكريات قبل أن يقول بنبرة تشوبها المرارة:

- أتدرى، ربما أنت على صواب.. كلمة (مسؤول) قد تقلب حياة شاب، كلمة (خيثة) قد تفرق بين اثنين، وإشاحة بنظرة قد تعني (أكرهك).

رمقه "أنس" وقرأ على وجهه الآلام فتحرك تجاهه وقال:

- والتفاتة قد تعني الحب، مجرد الحضور في موقف ما قد يعني الكثير لآخرين دون أن ندرك هذا، لكنهم يدركون، حتى الصمت أحياناً إن كان في موضعه الصحيح فله دور.

- حتى إساءتنا للآخرين؟

- نعم.. حتى إساءتنا للآخرين وإساءتهم لنا، أنت مثلاً قد تعزم على إزاحة جبل لكي تثبت لمن آذاك وأساء إليك أنه على خطأ، نحن نتعلم في مدرسة الحياة وما زال أمامنا الكثير من الدروس.

ابتسم "شهاب" وقال وهو يهز رأسه إعجاباً:

- تبدو حكيمًا يا فقي، بدأت أحبك.

ثم عاد يتفحّص وجه "أنس" قبل أن يقول وهو يحكّ أنفه:

- كم عمرك؟

- ثلاثة وعشرون عاماً، وأنت؟

- خمسة وثلاثون عاماً.

ثم سكت هنئه وقال لـ"أنس":

- هل..تحب أن تأتي معي؟

- إلى أين؟

- حيث أقيمت.

- لكنني لا بد أن ألتقي الملكة أولاً.

- الحوراء؟

- نعم هي "الحوراء"

ما كادا ينهيان الكلام حتى تناهى إلى سمعهما صوت حوافر الخيول وهي

تضرب الأرض ، أفعز صهيلاها "شهاب" الذي تلفت في اضطراب ثم شهد وقد
كست وجهه علامات الرهبة وركض سريعاً وشق الطريق بين الأشجار وكأنّ
الموت يطاردها تبعه "أنس" وهو يتساءل عن سبب فزعه، أصابته عدوى الفزع
لمجرد رؤية نظرات "شهاب" الشاحضة ثم شهقته التي جعلت "أنس" يرتكب
بشدة، كان "أنس" يركض وعينه على رأس شهاب.

في تلك اللحظة، ارتفع صهيل الخيول ثم علت أصوات حوافرها وأصدرت
شرارة وهي تقدح الأرض التي انتقلت إليها للتتوعد أن غادرت البستان المجاور
للغاية، كانت تلك الأرض تبدو كشريط عريض يفصل بين البستان والغاية
التي ركض فيها "أنس" خلف "شهاب"، لم تتحرك الخيول خطوة واحدة،
وقفت صفّا واحداً على ذاك الشرط الحجري الفاصل بين الجهتين، وهي
تنظر تجاه "أنس"، صاح "الزاجل الأزرق" بصوته الجهوري:

- يا إلهي.. تأخرنا!!

ثم قال بتوجس:

- بدأ رحلته دون أن يسمع متى!!



مالت الشمس فانزاح النقاب عن وجهها بحياة فأضاءت شرفات القصر، جلست "الحوراء" في ديوانها بوقار، حيث كانت ترتدي برسّاً مرصعاً بالجواهر تتدلى منه سلسلة ذهبية مطعمّة بالأحجار الكريمة، ثيابها البيضاء الواسعة تشعر من يراها بمهابةٍ وسکينةٍ كانت تلف رأسها بوشاح أبيض وقد انسدل من فوق رأسها شالٌ طويلاً غطى كتفها وقد لفّته باحتشام على صدرها. عجوز كانت .. لكنّها جميلة!

استأذن أحد رجال الديوان وقال بعد أن حيّاها بإجلال:

- مولاتي شغب بعضُ الجند في المنطقة الشرقية... ماذا سنفعل؟

أشارت "الحوراء" للكاتب الذي كان جالساً بالقرب منها وعلى يمينه الدواة والقلم وأمامه الأوراق متاهياً ليكتب ما ستقوله وقالت:

- لا يلبّوا على الشغب، ولا يوحّجون فيما بعد إلى الطلب.

هـ رجال الديوان رءوسهم وهمهموا موافقين، مرّت لحظات ناقشوا فيها كيف يكفون حاجة الجنـد حتى يتفرّغوا لما هو أـهم، وهو حماية "مملكة البلاغة" من الأعداء، ثم قال أحدهم:

- إن أهل المنطقة الشمالية رفعوا مظلمة يشكون فيها عاملاً هناك.

أشارت "الحوراء" مرة أخرى للكاتب ليدون خلفها وقال:

- أرسل لهم..."عيوني تراكم، وقلبي يرعاكم"

وأمرت "الحوراء" بإرسال من يتحقق من الأمر ويعود إليها، ثم التفتت إلى أحد رجال القضاء الذي قال وهو يرتو لرجل يقف بعيداً يراهم ولا يكاد يسمعهم:

- مولاتي لقد قمت باستدعاء والي المنطقة الغربية كما أمرت وهو يستأذن بالدخول.

- أذنت "الحوراء" له بالدخول وبعد أن ألقى عليها السلام

قالت بحزن:

- أخربت البلاد، وأهلكت العباد؟

فقال الوالي مرتباً:

- يا مولاتي، ما تحبين أن يفعل الله بك إذا وقفت بين يديه، وقد قرعتك ذنبك؟

فقالت "الحوراء":

- العفو والصفح.

قال الوالي بلهجة يشوبها الإحسان بالذنب:

- فافعلي بغيرك ما تختارين أن يُفعل بك.

صمتت "الحوراء" لوهلة ثم قالت:

- قد فعلت، ارجع إلى عملك فوالي مستعطف خير من والي مستائف.

أسرع الوالي بالانصراف وشيّعه رجال الديوان بأعينهم ثم قال أحدهم فور أن انصرف:

- حقاً يا مولاتي إنك من أفضل حكام المملكة حلماً.

قالت "الحوراء":

- وأنا والله أستلذ العفو حتى أخاف ألا أؤجر عليه.

فرغ الرجال من باقي مراسيمهم، وانتهى وقت الديوان وعادت "الحوراء" لقصرها واتجهت إلى صالة واسعة حيث كان الجميع يستعدون للاحتفال بمناسبة هامة^(١).



شد "الزاجل الأزرق" سرج فرسه الذي صهل بعنفوان قبل أن يقفز صاحبه به في الهواء قفزة رشيقة عابراً نهرًا رفيعاً يفصل المكان الذي كانوا فيه عن وادٍ فسيح بين جبلين يحتضن قصرًا مهيب الطلة، كان القصر بارزاً وكأنه تُحت داخل بلورة عملاقة، كل جزء منه كان رائعًا في حد ذاته، تحفة فنية لا تشبه ما يجاورها، شرفاته كانت وكأنها محارف متوجّه تطل منه لؤلؤات بد菊花، بواباته عليها نقوش والتواهات تشبه فروع الأشجار، وكان الأبراج المنحوته تضيّج بالحياة من روتها. وقف "المغاتير" أخيراً وكانت قواتم خيولهم مصطفة على التوازي بشكل أنيق أمام البوابات، رفع "الزاجل الأزرق" يده ولوح لحراس القصر ففتحت البوابات، فدلّف ومعه رفاقه لقاء الملكة.

بخطوات منتظمة سار "المغاتير" في زمرة مهيبة تجاه جناح الملكة، توقفوا جميعاً فجأة عندما بدأ الأرض ترتفع قليلاً في مستواها عما خلفهم، تقدم "الزاجل الأزرق" حيث استقبله خدام القصر بوجوه باسمة، وكأنهم كانوا يتربّبون وصولاً!

كان الصمت يخيّم على المكان، أشعة الشمس الحانية كانت تتسلل من النوافذ لتلقي على الأرض أمامه انعكاسات ذهبية خلابة، كانت تترافق أمام خطواته وكأنها ترحب به، بدت النقوش والزخارف بد菊花 على الحوائط وهي تحتضن وتتكلّف، وارتضت أوعية من الفخار على الرفوف تطالع أهل القصر من أعلى بشموخ. دلف حيث كانت الملكة تجلس بوقار وعلى الجانبيين عدد كبير من الرجال يجلسون على الأرض في صفين منتظمين وأمام كلّ منهم طاولة صغيرة عليها كتاب والكلّ مشغول بالتدوين، كان للملكة وجه به بقايا جمال متعب، بدت عجوزاً تخطّت السبعين لكنّها كانت جميلة الروح، تلك التجاعيد

١- بعض العبارات في حوار ديوان الملكة مقتبسة من حوار الخليفة المأمون في ديوانه.

الي حول عينها من الطرفين بدت وكأنّها تحضرن نظراها بحنان، كان بؤؤاها شديدي السوداد يسبحان في بياض عينها الشاهق بحياة، سقط حاجبها لكنّ جبيّها كان شامحاً بعزة، هشّت فور أن رأت "الزاجل الأزرق"، أشارت له ليجلس مكانه ففعل بهدوء، كانت تقف أمامها الفتاة احتشمّت برداء أرجواني اللون فضفاض واسع، له قلنوسة مذهبة الأطراف بشكّلٍ بديع، أكمام ردائها الواسعة كانت تصطف على حروفها فصوص من الياقوت الأحمر دقيقة جداً كانت الفتاة تقرأ بتائيرٍ من كتابٍ بين يديها وبصوت تشوبه بقايا بكاء:

"نكس الفارس سيفه وأجهش بالبكاء، كان قلبه يخنق بحرارة طغت على حرارة النار التي أحرقت قدميه، كان الحزن مذاقه اليووم مختلفاً، ليس قصيدة حزينة تتّرف في أذنيه، وليس خيراً مفزعاً يستقبله بالتحمّب، الحزن مر لأنّ صديقه الذي كان يشقّ به قد خان العهد. عاد الفارس إلى الديار بعد أن طاب جرحه ليبحث عنها، وأخيراً وقف أمامها يرجو المغفرة، ما عادت الحياة تطيب بعيداً عنها. وكانت "هيلا" تتوسد الصبر حتى يعود. لم تذق عيناها الجميلتان طعم النوم والراحة حيث ضاق بها المكان خلال غيابه، زُفّت إليه على عجل في ليلة ملأّت فيها كفه بالدموع وتفجّر في صدريهما ينبوع الحب، وأخيراً رقص جرید النخل، وتعانقت حبات المطر، وبات الصدق يجول في الأنحاء، في الديار، على التلال، شامحاً فوق الجبال، كما يجول الهواء في صدور الأنقياء الأصفياء"

أغلقت الفتاة الكتاب بين يديها، وفي نفس اللحظة أغلق كل الرجال الكتب أمامهم في آن واحد وكأنّهم قد اتفقوا على التوقيت، وتقدّمت الفتاة بخطوات ثابتة نحو "الحوراء" تسلّمه لها، ووضّح المكان بأصواتهم وكأنّهم يحتفلون بحدث عظيم. كانوا يحتفلون بـ "هيلا" وهو اسم لأميرة نبيلة وهو أيضاً عنوان قصة يحكى عنها هذا الكتاب.

في تلك اللحظة استدارت الفتاة التي كانت تقف أمام "الحوراء" وتقرأ، ورفعـت الكتاب الذي كان مكتوبـاً عليه بخط واضح "هيلا"، فهـلـل الجميع، كانت الفتاة مشرقة ولها وجه طفولي بـريء، لون عينها كان يتـأرجـح بين اللون الرمادي والأزرق الشـاحـبـ، كانت تطالـعـهم وعلى وجـهـها ابتسـامـةـ فـخـرـ، فـورـ أن رأت "الزاجل الأزرق" الذي لا تـعـرـفـ من ملامـحـهـ سـوىـ عـيـنـيـهـ الـواـسـعـيـنـ فهو يتـلـثمـ دائـماـ كـعادـةـ المـغـايـرـ، شـخـصـتـ بـعيـنـيـهاـ تـجـاهـهـ وـانتـفـضـتـ فـجـأـةـ وـتـغـيـرـتـ

لامحها، فهي ترید الرحيل فوراً والعودة إلى بيتهما وعاليها فقد أدت مهمتها على أكمل وجه، وتخشى أن يتحقق ما أخبرها به الحكيم "سامي كول"!!



تقدّم "الراجل الأزرق" ووجه تحيته للملكة وقال بعد أن لاحظت علامات التوتر التي تطلّ من عينيه:

- مولاتي، لقد وصل المحارب، وصل "أنس".

- وأين هو؟

- للأسف ركض في الغابة ولم نتمكن من الحديث معه.

- يا للمصيبة! كيف حدث هذا! أين الرمادي؟ وأين كنتم أنتم؟

- تأخرنا للحظات فقط... مجرد لحظات.

رفعت صوتها وقالت وهي توقع كلّ كلمة بنبرة صوتها المميزة:

- أن تصل مبكراً وتنظر خير لك من أن تصل بعد فوات الأوان.

- أعلم مولاتي، وأعتذر.. لن تتكرر.

- والآن كيف سنتواصل معه؟

من بعيد، ومن خلف الستار، كانت "مَرام" تراقب الحوار وقد كتمت أنفاسها عندما سمعت اسم "أنس"، ذاك الشاب الذي يتحدثون عنه تعرفه، فقد أخبرها "سامي كول"، ذاك العجوز ذو اللحية أثّها سلتقى بهذا الشاب، وربما تضطر للبقاء، وهي تود الرجوع إلى أهلها في الحال. ركضت خارجة من القصر في فزع والتف حولها العديد من الفتيات والجواري، اتجهت إلى الوادي القريب من القصر تنتظر أنثى الصقر التي ستتحملها لتعود إلى بيتهما، كانت ترتجف، غابت فرحتها فجأة، أرادت أن تتخذ القرار، ترید العودة لكنّ ضميرها يؤنبها هل تخبر "الحوراء" بما قاله لها "سامي كول" أم لا؟. كانت خائفة.

اقتربت "الحوراء" في موكبها وحولها الحراس، من خلفها كان يسير "الزاجل الأزرق" وهو يقلب ما حدث في رأسه، ماذا لو وصل "أنس" إلى الجنوب؟

في تلك اللحظة قالت "الحوراء" موجهة كلامها لـ "مَرَام" التي بدت على ملامحها علامات الارتباك:

- شكرًا لك يا "مَرَام"، حان وقت الرحيل.

وَدَعُوها ووقف الجميع رافعين رءوسهم ينتظرون " قطرة الدموع" لتحملها وتعيدها إلى موطنها، لكن " قطرة الدموع" ابتعدت فجأة عندما صاح منادٍ قائلاً:

- مولاي الحكيم "سامي كول"

التفت الجميع نحو باب القصر، واقتربوا حيث كان يقف الكهل فكلهم يعظمونه ويقدرونها لأنّه ذو شأن عظيم في المملكة، كان يشير وهو مغمض العينين! رفع ذراعه تجاه أنثى الصقر التي كانت تحلق في السماء والتي يطلقون عليها " قطرة الدموع" لتبتعد... كان الجميع يتساءلون:

(لماذا جاء ذاك الحكيم الذي لا يغادر بيته إلّا للضرورة في هذا الوقت من النهار؟)

رفعت "مَرَام" رأسها تجاه " قطرة الدموع" التي كانت تحلق فوق رءوسهم في السماء، تابعها بنظراتها وهي تبتعد بدون أن تحملها معها كما كانت ترجو، ثم ترجرجت الدموع في مقلتيها، بدت حائرة و Yasasa وقالت بخفوت وهي تسير بجوار الملكة:

- لماذا يبعد الحكيم "سامي كول" " قطرة الدموع"! ألم تحملني لدياري؟ ألم أرحل الآن؟

- يبدو أنّ هناك خبراً جديداً، انظري لوجه أبي!

تمتّمت "مَرَام" قائلة وهي ترنو إليه:

- بالفعل... هناك شيء ما!

- ما هو يا عزيزتي؟

زفرت بوهنه وقالت:

- ذاك الشاب الذي كنت تتحدثون عنه منذ قليل..

- ما به؟

- رأيت اسمه في منتصف كتاب "هيلاء"، ظهر لي بشكل واضح، وأخبرني العظيم "سامي كول" أن أبلغه إن ظهر مرة أخرى على صفحات كتابي، وأنه من الأفضل أن أبقى لو وصل قبل رحيلي.

- وهل ظهر اسمه مرة أخرى؟

- نعم.. أكثر من مرة، وكأن الكتاب يريد أن يخبرني عنه شيئاً ما.

- وهل قُمت بإخبار أبي؟

- بصراحة... لا!

التفتت "الحوراء" ورمقت "الزاجل الأزرق" بنظرية ذات معنى، هممهم "الزاجل الأزرق" وغضن حاجبيه قبل أن يقول وهو يقترب منها:

- هل كان هناك رمز؟

قالت "مرام" متلعثمة:

- لا أذكر.. فكما تعلمون كنت مشوشة في الفترة الأخيرة حتى أن إكمال مهمتي كان صعباً جداً.

دلف الجميع إلى القصر يتقدمهم رجل قوي البنية بارز العضلات، يرتدي سروالاً فضفاضاً وقميصاً أبيض ودراعه من الكتان، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء، ثم صاح بصوت جهوري ليعلم كل من بالقصر:

- مولاي الحكيم "سامي كول".

ارتبك كل من بالقصر، وأسرعت الحوراء نحو الديوان تعذّل من مكان جلوس أبيها، ثم أمسكت بزجاجة مرصعة بالأحجار الكريمة ونثرت بعض قطرات العطر منها على الكرسي بجوارها وكأنها تهيئه لاستقباله.

جلس "سامي كول" تجلله المبهبة وابتسماته العذبة تضوی على ثغره، كانت لديه لحية بيضاء طويلة ناعمة، بدا عجوزاً جداً كشجرة بلوط قديمة، انحنى قامته ووهن عظمه ولكنّه بدا صلباً متماسكاً، وأنبئاً أيضاً! كان يرتدي قباءً بنفسجية اللون مفتوحة عند الرقبة، أكمامها محللة بخيوط ذهبية، تغطي رأسه قلنوسوة زاهية اللون ومطرزة، وعلى كتفيه وضع طيلساناً أحضرَ.

حياءهم بحبور وشرد بفكره قليلاً، كانت له عينان شفافتان كالبلور! بدت على وجهه علامات القلق فأسرعـت ابنته بسؤاله وكانت ذكية اللـب حاذقة الفهم تقرأ حال أبها على وجهه فقالـت:

- هل أنت بخير يا أبي؟

قال بألم وهو يمسح وجهه بكفيه :

- مات صديقي الحبيب.

- رحـمه الله يا أبي، لا تحـزن.

قالـت "الحوراء" الجملة الأخيرة وهي تمسـح على كـتفـه مخفـفة عنـه ما ألم به من حـزن على فـراق صـديـقه العـزيـز والـحـبيب.

دمعـت عـينـاه وجـلس شـاخـصـاً بـعيـنيـه حـزـيناً وجـلـست "الـحـورـاء" توـاسيـه ثـمـ قالـت بعدـ أنـ هـدـأتـ نـفـسـهـ:

- أـهـبـت "ـمـرـامـ" مـهـمـتهاـ، لـكـهـا رـأـت اـسـم "ـأـنـسـ" يـتـكرـرـ فيـ كـتـابـهـاـ، وـتـقـولـ أـنـكـ أـخـبـرـهـاـ أـنـ الـضـرـوريـ أـنـ تـخـبـرـكـ إـنـ تـكـرـرـ ظـهـورـهــ.

- وهـلـ تـكـرـرـ؟

- نـعـمـ

- وهـلـ وـصـلـ "ـأـنـسـ"ـ؟

- نـعـمـ وـصـلـ.

- وأـينـ هوـ؟

- للأسف، بدأت رحلته قبل أن يلتقي بنا وتوغل في الغابة وحده.
- التفت العجوز فجأة تجاه "مَرَام"، ثم قال لها وهو يحرك سبابته في الهواء محدّراً:

 - لا ترحلِي، وأسرعِي خلفه فأنت تستطِيعين دخول الغابة أما نحن فلا... هيَا.

اقرب "الزاجل الأزرق" من الشيخ وسألَه بإجلال:

 - هلا أخبرتنا أهْبَها الحكيم عن سبب ظهور اسم "أنس" في كتاب "هيلاء" الخاص بـ"مَرَام"؟
 - كان لا بدّ من هذا، وربما ستظُهر صورتها في كتابه!
 - لماذا؟

سحب "سامي كول" نفساً عميقاً ثم صمت حتى أتَهم ظنوا أنه لن يتكلّم، ثم قال أخيراً:

 - ستخبرنا "مَرَام" بنفسها يوماً ما.

كانت "الحوراء" تدرك شعور "مَرَام" وشوقها للعودة لبيتها، سالت والدها وهي ترنو إلَيْها بحنان:

 - هل عليها البقاء وقد أذت مهمتها؟ أظنها اشتاقت لأهْبَها.
 - رفع الحكيم حاجبيه وقال:

 - على الأقل تحاول اللحاق به وتعيده، لن يستغرق الأمر منها وقتاً طويلاً، ربما ساعة أو ساعتين!

نهض "سامي كول" فجأة، قرر العودة لداره، يأبى البقاء في القصر، ويرفض الإقامة مع ابنته، حتى والمطر يهطل بغزاره صمم على الرحيل!

 - لكنَّك لم تخبرنا بأيِّ شيء جديد! ما سبب ظهور اسمه في كتابي؟ ألمست حكيم المملكة يا سيدي؟

قالتها "مَرَام" بضيق، ودت لو وضَّح العجوز شيئاً ما، فهِي تود العودة إلى بيتهَا في الحال.

التفت الكهل بعينيه البلوريتين ثم قال موجهاً كلامه لـ"مَرَام":

- سيكون طوق نجاَة لكِ، وستكونين طوق نجاَة له يوماً ما.

ثم سأَلَها:

- هل تدرِكين معنى كلامي يا "مَرَام"؟

ابتَلَعَت "مَرَام" ريقَها بصعوبة، ثم قالت بصوت مهترئ:

- في الحقيقة...لا!

لاح على شفتيه شبح ابتسامة، استدار وتركها وعلامات الخوف تتمسَّى في وجهها.

التفتت "الحوراء" تجاه "مَرَام" التي كانت تطالعها باهتمام شديد ممزوج بالتوتر، كانت تعصر كفَّها وتتنفس بصعوبة، رمقَتها الملكة بنظرة تشى بالكثير وقالت لها:

- "مَرَام" أعلم أن مهمتك قد انتهت، لكننا في الحقيقة نحتاج لوجودك معنا في المملكة لفترة وجيزة لمساعدتنا في هذا الأمر، فأنت تعلمين أننا لا نستطيع دخول الغابة، أما أنت فتستطيعين لأنَّك محاربة.

زفرت "مَرَام" ببُيَّاسٍ وقالت وهي تهزُّ رأسها:

- وهل لي أن أقرر أو أختار؟ قد كان اليوم احتفالاً بانهاء مهمتي وكنت على قيد أنملة من عودتي لداري!

رمشت الملكة بعينيها وقالت:

- للأسف...لن نستطيع السماح لك بالرحيل الآن.

مررت "مَرَام" بلحظة عصيبة قبل أن تقول:

- لكن لي طلب واحد.

- وما هو؟

- عند انتهاء الأمر رِيماً أطلب منك شيئاً ما، وأريد منك أن تعديني بأن تتحقق لي.

- وما هو؟

- ليس الآن...

- أعدك يا ابني طالما الأمر في استطاعتي.

- حسناً، والآن...ما المطلوب معي؟

اقرب منها "الزاجل الأزرق" وقال بتيرة جادة:

- الأمرها، وصل "أنس" وهو هي رحلته على أرض مملكتنا قد بدأت دون أن يلتقي بنا، أخشى أن تختلط عليه الأمور ولا يميز بين النقيضين، وقد تخدعه المظاهر ويُثْقَب بأحدهم فيقع أسيره ويختل ميزان الحكم لديه فيسلب منه حق استرداد كتابه، ودورك أن تتبعيه في الغابة، وكما تعلمين لأنك محاربة فأنت في أمان فيها أمّا نحن فلا، وعندما تلتقين به عودي معه إلى هنا بسرعة.

- حسناً...ولكن!

- ولكن ماذا؟

- كيف سأعرفه؟ هلا وصفته لي.

- الحقيقة أنني....لا أعرف شكله...لقد رأيته من الخلف فقط، كل ما لاحظته أنه طويل القامة وقوى البنية، ذراعاه مفتولان العضلات، كما أن لديه شعراً فحميّاً قصيراً، ويحمل على ظهره حقيبة جلدية، ويرتدي سروالاً سماوي اللون، لكنني لم أشاهد وجهه.

زفرت "الحوراء" بحنق وقالت:

- لحظة واحدة كانت فارقة.

نكس "الزاجل الأزرق" رأسه وقال بخجل:

- أعتذر مرة أخرى يا مولاتي.

أمسكت "الحوراء" بذراع "مَرَام" وقالت:

- هيا يا "مَرَام" إلى الغابة، لن نضيع الوقت.

في الحال، هرول "الزاجل الأزرق" تجاه فرسه وامتطاه بقفزة واحدة، صهل الفرس بقوّة فأجابتـه الخيول بـصـھـيل جـمـاعـي وـكـأـنـهـمـ يـسـتـجـيـبـونـ لـأـمـرـهـ، انـطـلـقـ المـغـاـتـيرـ يـصـحـبـونـ "مَرَام" نـحـوـ الـغـاـبـةـ، حـيـثـ سـتـدـخـلـهاـ وـحـدـهـاـ باـحـثـةـ عـنـ "أـنـسـ".



(٤)

"ناردين"

هنيئاً لهؤلاء الذين ينسون سريعاً، الذين لا تنطبع على نفوسهم بصمات الآخرين، ما زالت "ناردين" تشقى بقلب لين كالصلصال؛ كلما لامسته روح أحدهم في موضع غاصلت فيه احترق من حرارة تعليقها بتلك الروح وجفّ ليحفظ تلك الذكريات، أصبح فؤادها كالقالب، ذكرى ذكرى منقوشة فيه، ندبة ندبة تتحسسها فتوجعها، نقوش تحكمهم، هؤلاء الذين عبروا من بين ضلوعها، ولن تفني أبداً تلك العلامات إلا بموتها، ليتها تنام طويلاً وتتنسى كل شيء في الصباح.

نشأت "ناردين" في أسرة صغيرة من الفلاحين البسطاء، كانوا يعيشون في السهل الكبير الذي يتوسط قرى مملكة الجنوب التي تناشرت حولها تلك القرى وكأنّها حفنة من النجوم حول القمر، كانت القرى صغيرة وسكانها متشاربون لكثفهم متفرقون، لو استطاعوا ملء الفراغات بين القرى ببناء عدّة بيوت لاتصلت وأصبحت كيائناً واحداً عظيماً، أو حتى يحولونها إلى ممرات ويرصفون أرضها بالحجارة ويتناقلون بين القرى بالعربات، لكن لكل قرية معتقداتها ولسكانها طباعهم الخاصة، يقولون إنَّ البعض حاول أن ينتقل من قرية لأخرى لكنه لم يتمكن، أخبرها أبوها بأن هناك من لفظ أنفاسه الأخيرة على حدود قريته! وكان روحه تأبى الخروج من الحدود، تستطيع أن تخرج وتعود للتجارة أو غيرها، أما أن تعقد العزم على هجران أرض القرية وتبيع دارك ثم تحمل متعاك للرحيل فأنت هالك لا محالة، وكأنّها لعنة أصابت سكان المملكة جميئاً.

كانت صغيرة عندما استمعت لأدين الأشجار لأول مرة في حياتها، في الخامسة ربما أو السادسة من عمرها، كان هذا عندما صحمها أبوها للغابة

ليجمع بعض أوراق النباتات العطرية التي يستخدمها في صناعة الأدوية والوصفات التي يبيعها في دكان العطارة الخاص به، أحبت "ناردين" جمع أوراق الريحان فقد كانت رائحته تعلق بملابسها وكفيها الصغيرين، كما كانت تفضل جمع إكليل الجبل نظراً لأهميته الشديدة بالنسبة لأبيها، فقد أخبرها أن أوراقه تنشط القلب، وشرابه الساخن يزيل الصداع ويعالج غازات البطن، كما أن زيتها يفید الأطراف المرهقة لودلكت به، أحبت رائحته التي تشبه رائحة الصنوبر، كانت أمها تغلف اللحم به أحياناً قبل أن تقوم بشيء، كان يصفى نكهة لطيفة للحم وكانت هي تحبه كثيراً، حتى أنها دهنت بشرتها بزيتها..كم كانت أمها جميلة! لا تدري لماذا لا تشبهها. كانت تجمع الأوراق لأبيها وتحتفظ بالأشخاص فقد أوصتها أمها أن تجمع بعضها لتجرقها في أركان البيت فلها رائحة عطرية جميلة، وبينما كنت تضع الأغصان في جراب من القماش كانت تلفه فوق خصرها سمعت هذا الأثنين، انتفضت حينها وصرخت، ألقى الأغصان ووقفت تحملق فيها وهي تئن، استمر أنيتها فأدركت أن الصوت صادر منها بالتأكيد، حملتها مرة أخرى ومسحت علىها بحنانٍ كطفل رضيع فسكت، وكان بينهما وشيعة ما تربطهما! تفهم همهماتها وفهمها.

دستها في جرابها وسارت بين أشجار الغابة فإذا بفروع الأشجار تنحني وتقترب منها، تلامس بشرتها بلطف وكأنها تحيمها ثم تعود لهياتها، وعندما يقترب أبوها أو أحد رفاقه تسكن وكأن شيئاً لم يكن. أخبرت أبيها لكنه لم يصدقها، وأخبرت أمها فوصفتها بالجنونة، تكرر الأمر وكانت تخبرهم فيسخرون منها فتوقفت عن إخبارهم بما تراه وتسمعه وتشعر به، وأصبحت تعشق السير في الغابة وحدها، حتى أنها أحضرت نبتة صغيرة من تلك الغابة ووضعتها في أصيص بدارها وصارت تحدثها كثيراً وتخبرها بأسرارها، مررت السنون ومات أبوها فجأة وبعده مرضت أمها مرضًا شديداً ثم لحقت به، وتزوجت "ناردين" من شاب كان يعمل مع أبيها في دكان عطارته، أخبرته بأمر النباتات التي تحدثها فغضب وظنها مريضة وتهلوس بسبب الحمل، فبدأ يسقيها منقوع الزعتر والزنجبيل ودواهاها بخلطة مميزة قام بصنعها خصيصاً لها لكي تبرأ من الهملوسة فتوقفت عن الحديث معه عن أمر النباتات فعاد لحنانه وحبه لها ونسى الأمر، أنجبت بعدها ولدها الوحيد وقتل زوجها في شجار عنيف وكانت لا تزال ترضع ولیدها، انفطر فؤادها ولم تفلح في مداواة

جرح قلبها بالعطارة، لكتها داولته بالحب والرضا، حب ابنها وقرة عينها وشبيه أبيه فصبرت عليه طويلاً طويلاً.

مرت السنون ووهن العظم منها واشتعل رأسها شيئاً، وانحنى ظهرها وكبر ولدها وصار هو عكازها الذي تتوكأ عليه. ما زالت تذكر كل شيء، نظراتها إليها عندما أيقظتها صباح ذاك اليوم، نبرة صوتها وهي تخبرها بهجة مزيفة أن تستعد لأنهم سيخرجون لنزهة في البستان المحيطة بالقرية كعادتهم معاً ويأكلون الحلوى التي تتقن صنعها بعد أن يتناولوا الحم الخراف المشوي المتبل بإكليل الجبل كما تحبه، ضحكاها المصطنعة وهي تضع سلة التفاح في العريبة الخشبية، حق الحصانين المبرقشين كانوا يحرّكان رأسهما ويتلتفتان إليها وهم على الطريق وكأنهما اتفقت معهما على الخطة، أخبرتها أن ولدها يتظرها على أطراف البستان فصدقها، وكيف تكذب زوجة ولدها عليها؟! وظللت طوال الطريق تطالع مجاميع الأشجار الباسقة من نافذة العريبة بتعجب، أي بستان ذاك الذي ارتفعت أشجاره والتقت بتلك الطريقة!

لم يلحق بهم ولدها ولا أحفادها، لم يكن إلا هي وزوجة ابنها تلك وسائق العربية السكير الذي كانت تفوح منه رائحة الخمر والقدارة، لا بد أنه قبض الثمن غالياً، كان قرص الشمس يتوسط السماء عندما وصلوا إلى ذاك الكوخ، كانت تسير ببطء وتأبط ذراع زوجة ابنها بعدما ترجلوا من العربية بينما كانت تهمس الأخيرة في أذنها بصوت يشبه الفحيح:

- أسرعي فأنا على عجل أيتها العجوز الشمطاء!

تخشب لسانها في فمها فقد كانت تلك المرأة الأولى التي تخاطبها فيها بتلك الطريقة، حتى أنها كانت تدللها وتتناديه بأحب الأسماء أمام ولدها الحبيب!!

جلست على باب الكوخ تلتقط أنفاسها، أدبرت زوجة ابنها وهي تهرب تجاه العربية بعد أن ألقى السلة أمامها وألقى السائق بجوارها خرقة من القماش جمعوا فيها ثيابها على عجل عندما كانوا بالبيت ولم تنتبه لهم، تركوها ورحلوا وبدأت تصرخ حتى احترق حلتها، سقطت الشمس والتقطها الأفق وبدأت ترتجف، أوت إلى الكوخ وهي خائفة، فانحنت الأشجار واحتضنت جدران كوخها وأطلقتها بظلالها الوارفة والفت الوشائج حوله من كل جانب، هدأت بعد أن أرهقتها البكاء، وربط الله على قلبها بعد أن استعصم به وصبرت.

ومرت الأيام تتواли عليها، صباحٌ يشرقُ على ليلٍ بهيم، وليلٌ يمهدُ لإشراق عظيم.

ومنذ تلك الليلة وهي هناك، يمر الناس بعضهم براها وبعضهم وكأنه لا يراها، ما عادت تخاف، لكنه الشوق! اشتاقت لرائحة ولدها، رائحة عنقه، رائحة عرقه، اشتاقت لأحفادها.

حاولت أن تعود وسارت طويلاً بين أشجار الغابة، حاولت أن تتذكر الطريق، مرّ وقت طويل منذ صغرهما، كانت تنجح في الوصول لأطراف الغابة، ولكن في كلّ مرّة تصل فيها إلى الخط الحجري الفاصل بين أرض الغابة والأرض خارجها كانت وشائج الأشجار تتمدد وتطول وتلتف حول جسدها وتتلقّفها قبل أن تخطو بقدمها خارج حدود الغابة، وكانت تحملها بلطف وتعيدها مرّة أخرى لذاك الكوخ، ترفض رحيلها! تعبت من تكرار المحاولة وما عادت تقوى على المسير.

هطلت أشجار الياسمين بزهارتها على رأسها وكأنها تهانفها ألا تحزني، حتى العصافير كانت تحلق أمامها على مقرية وكأنها تؤنسها بريف أجنحتها حتى تعود. كانت تفرك يديها بأوراق الريحان من آن لآخر وتشمّها فتتعطّر روحها، حمدًا لله على تلك الروائح الزكية التي تخفّ عنها..

"حسناً حسناً...لن أرحل يا أحبابي لكنني ما زلت أشتاق، وما أقوى هذا الشوق، أشتاق لرائحة ولدي الأركي من رائحة الريحان"

همست بصوتها الحنون ووقفت تتأمل، مضى نصف اليوم حيث كنت تقف قريباً من الكوخ تراقب انعكاس صورة وجهها على صفحة جدول الماء القريب، أصبحت صلعاً! صلعاً منذ فترة طويلة، رأسها لا يحمل شعرة واحدة، حتى حاجبيها تلاشياً، تساقطت رموشها! ظنت أنها تخيف الناس بعيانها تلك، كانت لا تعلم أنها جميلة حتى وإن أرهقتها السنون، عادت تهمس محدثة نفسها:

"حمدًا لله أنني هنا فالأشجار ترعاني وتحبّي وهذا يكفيوني، أسمع أنينها وتسمع أنيني، أرى على جذوعها وتملّس أوراقها على وجهي".

هزّ رأسها وكأنها شخص آخر ينصت إليها ويوافقها على كلامها، قد يبدو

الحديث النفس بصوت مسموع نوعاً من الجنون، لكن "ناردين" كانت تتسلى بهذا من آن لآخر، تحدث نفسها وتحدث الأشجار، وتنصب إلى الرياح وما تحمله من حكايا... وربما تهمس لها ببعضها!!!

اهتز سطح الماء فجأة فقد مر بجواره ذاك الشاب المشاغب الذي يدعى "شهاب" كان يركض كعادته بسرعة كالبرق، حيرها ذاك الفتى بحواراته من أن لا خير معها، يبدو معجبًا بنفسه للغاية، أحيانًا تراه مجنونًا وأحياناً مشاكِسًا وكثيرًا ما يبدو مغرورًا بنفسه. لم تنتبه لمن كان يلحق به إلا بعد أن صدمها دون قصد منه فسقطت على الأرض وندت منها صرخة مكتومة اهتزت لها وشائج الأشجار وكادت تفتك به لو لا أنه توقف وانحنى يحملها وينفض الغبار عن ثوبها البالى وقال بحنان كانت تستاقت إليه:

- هل أنت بخير يا أمي؟

أمى !! -

خرجت الكلمة من فمه فوقعت من فؤادها موقعاً بليغاً، لم تسمعها منذ سنوات، اشتاقت لكرهها أم، اشتاقت للهفة الأبناء عليها، اشتاقت لتلك اللذة التي كانت تقع في نفسها كلما ناداها ولدها بها. رفعت رأسها تجاه وجهه وتحفّصته بتمعنٍ، كان من ذاك النوع الذي يأسرك فلا أنت تملك أن تصرف نظرك عنه ولا تملك أن تطيل النظر إليه، ليس شديد الوسامنة لكنه ساحر وجذاب، قالت وهي تحاول استعادة اتزانها إثر السقوط بينما تتकى على الفصن الغليظ الذي صار يلزماها:

بخاری ولدی۔

- آسف، كنت أحاول اللحاق بـ....

- "شیاب" .. اسمه "شیاب" ولن تستطيع يا ولدي اللحاق به فهو سريع جداً.

- أتعرفينه يا أمي؟ آخر بني أرين يسكن؟

كانت تستعبد منه كلمة "أمي"، أحياته وهي تتفحص ثيابه وتسأله: ما هي؟

- بمَ عَلِيٌّ مِنْ أَنْ لَا يَعْرِفُ أَيْنَ سُكِنَ ذاكَ الْمَغْوِرُ.

- أستاذنك فربما لو أسرعت الآن سأستطيع اللحاق به.
كاد ينصرف لكنه استدار عندما قالت له:

- سيعود إليك حتماً فأنت محارب.

غضن حاجبيه وقال بتعجب:

- هل قلتِ عني...محارب!

- نعم

- ولكنني لست محارباً!

- بل أنت محارب بالفعل.

- ولم تقولين هذا؟

- ملابسك وحقيبتك وحذاوتك، هكذا تكون هيأتكم عندما تصلون إلى هنا،
من بعضكم على من قبل، أنت محارب يا فتى.

- لا أدرى من أخبرك بهذا، لكنني.. لست إلا مجرد شابٍ عادي، ربما أجيد
بعض الفنون القتالية كالكاراتية، لكنني لست محارباً!

ابتسمت له وسارت ببطء نحو درج حجري صغير غطاه العشب من
الجانبين كان يفصل بين الأرض المجاورة لجدول الماء التي كانوا يقفون عليها
والتلّة البسيطة التي يعلوها الكوخ الذي تسكن فيه وجلست عليه ثمّ قالت
له:

- متواضع أنت يا فتى.

ثمّ أومأت بيدها وأردفت:

- على العموم، ستكشف نفسك هنا، على هذه الأرض ستعرف ما لا تعرفه
عنها، ليس شرطاً أن تحارب بسيف أو سلاح، بعض المحاربين قوتهم في
ثباتهم على الحق وليس في أجسادهم القوية.

- ماذا تعنين؟

- قوّة الروح، العزيمة يا بني، أرأيت كيف يقوى الكهل على صيام الهواجر ولا يقوى الشاب الفتى أحياناً! هكذا تكون قوّة بعض المحاربين، قوّة الإيمان، قوّة النفس يا بني.

ثُمَّ رمته بنظرة سريعة وتفحّصته من قمة رأسه لأخمص قدميه ثم غاصت في عينيه وقالت له:

- لكنني أظلك تملك القوتين، قوّة الجسد، وقوّة الثبات على الحق إن شاء الله.

أغمضت عينيها للحظة لتنقص فكرة ثُمَّ أرددت قائلةً:

- انتبه لكتابك، ستظهر أَوْل سطوره عندما تلتقي بأبطال قصّتك.

- وما أدرك بأمر الكتاب؟

- هكذا أخبروني هؤلاء الذين مروا من هنا.

وأشارت لصدرها وتحسست ضلوعها بكفها الضعيف وكأنها تمسمح أوجاعاً التصقت به.

اقرب الشاب منها وأنزل حقيبته عن ظهره وأخرج الكتاب وفتحه باحثاً عن أي جملة ربما تكون قد ظهرت على صفحاته الخالية، أغلقه ورفعه على صدره أمام عينها فقرأت العجوز عنوان كتابه بصوت مسموع:

- إيكادولي!!! انتبه إذن وحافظ عليه وفور أن تلتقي بهما عليك أن تراقبهما، فيما في حاجة لمساعدتك.

- هما!!!... ومن هما؟

- لا بدّ أنهما اثنان ولا ريب، فقصّتك تحمل عنواناً لعبارة لا تقال إلا بين اثنين، "إيكادولي"، وهي تعني أنا أحبك باللغة النوبية.

- قصة حبٍ إذن!

- بالتأكيد.

- وماذا بعد؟

- ستراقبها.

- لماذا؟

- لأنهما سيحتاجانك، ادعهما حتى لا يقعوا في الخطأ، فكل قصة وكل كتاب تعتبر دعامة للخير أو الشر هنا، ونراحك نجاح لها يا.... أخبرني ما اسمك؟

- "أنس"

- يا له من اسم جميل، وأنا "ناردين"

- وما معناه!

- هو اسم نبات طيب الرائحة، بديع الشكل، لا ينبت هنا بل ينبت في أرض بعيدة، هكذا أخبرني أبي فقد كان عطازاً بارعاً وكان يسافر كثيراً.

ابتسם بلطف ثم قال بعد أن تصفح كتابه مرة أخرى:

- عفوا... هل سأقوم بكتابة شيء ما على تلك الصفحات؟ في الحقيقة أنا لا أجيد كتابة القصص والروايات!

وضعت يدها على فمه لتخفيه مما عادت تملك أنساناً تزين ابتسامتها، ثم قامت فقام "أنس" احتراماً وإجلالاً لها، وسار بجوارها فقالت له:

- لن تكتب أنت، لكنَّ ما تراه بعينك وتعيشه سيظهر على السطور، فالكتاب لن يطلق سراح كلماته ل تستقر على السطور إلا عندما يشعر أنك تثق به، ثق في كتابك يا "أنس"، "إيكادولي" يثق بك وقد اختارك لأنَّه يحتاجك، الكتاب يعني صراعاً شديداً فأعنه على ما يلاقيه من صعاب، لا تظيره لأحد، ولا تخبر أي شخص باسم الكتاب، كن حاذقاً واعلم أنك ستعتمد على حصافتك وقوَّة شخصيتك أحياناً، ولو أدلَّمْت الأمور ابحث عنَّك، يعنيك.

- ومن أين عرفت كلَّ هذا؟

- مرت سنون يا ولدي تعلَّمت فيها الكثير والتقيت فيها بالعديد من البشر،

لابد أن يمرّ المحاربون من هنا.
وأشارت لضلعها مرّة أخرى....

هـ "أنس" رأسه ومسح جمّته وضغط بكفّيه على عينيه، وقال:
- ما زلت لا أستوعب الأمر، الأحداث تتسرّع وتتوالى على بسرعة، ترى هل
من الممكن أن تدلّيني على قصر الملكة "الحوراء"؟
- ليتنى أستطيع الخروج من الغابة!
- ولم لا؟

جاست عينيها في المكان وقالت:

- الحقيقة أنا لا أعرف أين قصرها، ولم أرها من قبل.
- هل يمرّ المغايير من هنا؟
صمتت برهة ثم ركّزت عينها في عينيه وقالت:
- أولم تلتقي بأي شخص غير "شهاب" قبل أن تلتقي بي يا بني؟
- لا... كنتِ أنتِ أول من رأيته بعد "شهاب"
ثم سألهما بقلق:
- بعد استعادة الكلمات في هذا الكتاب، هل سأعود؟
- بالتأكيد.

شعرت بانقباضة في صدرها، خافت عليه وكأنه قطعة منها فقالت تحذر:
- احذر "المجاهيم".
- ومن هم "المجاهيم"؟
قالت بعد أن أمسكت بذراعه:
- قوم وجوهم كالحة، يسلبون الناس أنفسهم وأنفاسهم.

رفع "أنس" حقيبته على ظهره مرة أخرى، ونظر إلى السماء ثم قال:
- ذاك الصقر "الرمادي" .. أين هو الآن؟

كادت تجبيه لكنها اكتفت بتأمل ملامحه، عيناه مألفوتان! وكأنها تعرف تلك المقلتين البنديقتين ورأهما من قبل!. كان حديثها معه قد أضاء الكثير من الدهاليز المظلمة، سار شارداً بجوارها نحو كوخها، قررت أن تمده بملابس أخرى غير تلك التي كان يرتديها حتى يتسى له التجوال في المملكة وكأنه واحدٌ من أهلها.

ترك "أنس" حذاءه الغريب كما وصفته "ناردين" وارتدى حذاء رآه هو غريباً! لكنه مجبَر على ارتدائه، وبَدَلَ بنطاله السماوي وارتدى سروالاً وقميصاً من الكتان الأزرق، كانت الملابس تناسبه تماماً وكأنها قد خيطت خصيصاً له، لم يجد أزاراً لقميصه فلفَّ خصره بحزام عريض من القماش وأخرج خنجره ذا المقبض الذهبي ودسه في حزام بنطاله من جهة الظهر وأسدل عليه القميص حتى لا يلاحظه أحد، لم تشعر "ناردين" بالخوف منه عندما لاحظت الخنجر ومقبضه المذهب! أعطته حقيبة من القماش كانت تعلقها بكتفها وهي تجمع أوراق الأشجار والنباتات العطرية ليحمل فيها متعاه، ومنحته حفنة من الريحان وبعضاً من إكليل الجبل، كان ممتنَا وكأنها أعطته كنزًا، ودت لوبيقي "أنس" قليلاً لكنه كان متوجلاً. صاحت وهي تراقبه وهو ينساب بين أشجار الغابة:

- تجول في القرية وتأمل كل ركن من المملكة، وافتح كتابك من آن لآخر، إن ظهرت أول الكلمات فاعلم أنك التقيت بأبطال القصة، فالأحداث تتم هنا بمسيئة الله، وما زلنا لا نعرف النهاية!

استدار وأومأ برأسه وحياتها بابتسامة عنذبة ثم لوح لها مودعاً، رفعت العجوز يدها وأغمضت عينيها وتندسست بعمق ثم طرقت الأرض بالغصن الذي تتکئ عليه فانتفضت الأشجار، وارتتج السهل وما حوله، وصدر من الأرض دوى مكتوم أفعى الطيور فحلقت بعيداً عن الأشجار.

سار "أنس" على نحو بطيء وسط الغابة، فهو لم يعتد انتعال حذاء مصنوع بتلك الطريقة من قبل، كان يشعر أن للأشجار عيوناً، وكأنها تراقبه!

كان يراقب السماء من آن لآخر يخشى أن يهبط عليه الليل وهو وحيد في تلك الغابة، قرر أن يحاول الركض لعله يصل سريعاً إلى أطراف الغابة، بدأ يركض وبينما تتطوى الأرض تحت قدميه شعر وكأنها تحولت إلى بساط وبدأت تدور وتتکور تحت ساقيه ثم انشقت فجأة فتعمّر وسقط على ركبتيه ليظهر أمامه زمرة من الرجال طوال القامة لا ملامح لهم! كان يتقدمهم واحدٌ منهم وعليه بربس أسود تدلّى منه ثلاثة جمامٍ صغيرة، تراجع "أنس" بينما كان ذاك الشبح يتقدّم تجاهه، نعم.. كان يشبه الأشباح، هذا ما وقع في نفس "أنس" وهو يحملق في تلك الظلمة التي تختل وجهه، وكأنَّ الظلام ارتدى برقساً ووقف أمامه!

رفع الشبح يده إلى السماء فشعر "أنس" وكأن صدره يصعد في السماء، خرجت أنفاسه واصطبغ وجهه بالزرقة وما عاد قادرًا على سحب شقيق يتثبت به في الحياة، ارتفع جسده في الهواء وانشق وكأنَّ هناك من يحمله، كاد الشبح يقتله بعد أن أداره في الهواء وجعل وجهه مقابلًا للأرض لولا القلادة التي تدلّت من عنق "أنس" فجعلته يخفض يده فجأة ويسقط "أنس" على الأرض وهو يسعل ويشهق شهقات متتابعة، دار ذاك الكائن حول "أنس" وانتظر حتى هدأ سعاله ثم خرج منه صوت غليظ رنان وكأنه خرج من مقبرة وسألَه:

- أنت محارب؟

ردَّ "أنس" بصعوبة وقال:

- نعم... أنا محارب.

- من أين لك بتلك القلادة؟

- أعطاها لي جدي

قال الشبح بصوت فيه إجلال:

- "أبادول"؟

عندما سمع البقية زعيهم ينطق باسم "أبادول" وضعوا جميعاً أيديهم على صدورهم وأحنوا رءوسهم وهم واقفون احتراماً له! يبدو أنهم جميعاً

يعرفونه، لاحظ "أنس" ما حدث فتحامل وتجلى وقام يستند على جذع الشجرة التي كانت بجواره، وسأله وهو يتحسس القلادة على صدره:

- أتعرف جدي؟

- كأنا نعرفه، وله فضل كبير على استرداد مكانتنا بين باقي الشعوب.

ثم أشار إليه بإصبع وسأله:

- ما اسمك؟

- "أنس".

- ما اسم "كتابك"؟

تدذكر "أنس" وصية العجوز "ناردين" له ألا يخبر أحداً باسم كتابه، فرد محاولاً أن يتجاوز السؤال:

- لماذا لا أرى ملامحك؟

- ليس الآن، ستراها يوماً كما رأها جدك "أبادول".

عندما كرر الزعيم اسم "أبادول" كرر كل من معه ما فعلوه أول مرة بإجلال وتقدير، وفعل هو كما فعلوا وضم يده إلى صدره وأحنناها في هيبة وكأن الجد يقف أمامه، قال بعد أن رفع رأسه تجاه "أنس" الذي كان يحملق في تلك الظلمة التي تتحدث إليه ولا يعرف كنهها:

- امض يا "أنس" فأنت في أمان حتى تخرج من الغابة، واحتفظ بالقلادة، وكلما مررت من هنا أظهرها وأنت تسير حتى يعرفك "المجاهيم"^(١).
همس "أنس" برهبة وقد كانت دقّات قلبه تتواكب في أسفل عنقه:

- المجاهيم! ومن أنتم أيها المجاهيم؟

١ - رجل جهم الوجه أي كالح الوجه، ومعنى جهم أي استقبله بوجه كره، ولقب المجاهيم بطلق على بعض أنواع الإل النجدية السوداء، كبيرة الحجم وضخمة العظام، تحمل الظروف القاسية بكل تحضاريها وتحولاتها المختلفة

التفت إليه زعيمهم وقال قبل أن تتلعله الأرض:

- اسأل جدك فهو من أطلق علينا ذاك اللقب بعد أن ألبسناه تلك القلادة.

اختفى "المجاھيّم" تمامًا، وعادت الأرض تتكوّر تحت قدمي "أنس" فانطلق يكمل ركبته حتى حدود الغابة أملاً أن يخرج منها قبل حلول الظلام ويصل إلى القرية التي أخبرته العجوز "ناردين" عنها، فهو لا يعرف تحديداً كم تبلغ المسافة.



(5)

"كِلُودَةٌ"

خرج "أنس" من الغابة يبحث عن "شهاب"، من بعيد بدأت تطلّ أمام عينيه القرية التي حدّثه عنها العجوز "ناردين"، دلف القرية يفتش بين الوجوه عن وجه "شهاب"، مزّ بحانوت بدا وكأنّه لبيع الأغراض القديمة، بعض الأوعية النحاسية، وأخرى فخارية، والكثير من الملابس، لكنّ ما جذب انتباهه ركن تكّدست فيه الكتب العتيقة فوق بعضها البعض بإهمال، الكثير من الكتب كانت بلا أغلفة، مهترئة الأوراق وملتفة الأطراف، ولكن القليل منها كان بحالة جيدة. أوراق صفراء وأغلفة باهتة من الجلد المدبّع والكثير من العناوين الغريبة. كان هناك شاب نحيل جداً، أقنى الأنف، له حاجبان مقوسان كأنهما هلالين، تبدو عليه أمارات الذكاء، نابه العينين، يجمع خصلات شعره الفحي خلف رأسه برياط بلون أحمر فاقع، كانت أصبعاه مصبوغة بنفس اللون فخمن "أنس" أنّه ربما يعمل في صياغة الأقمشة، وقف الشاب ينظم الكتب ويرتبها ويتحصّلها بعناية ثم يرفعها وينفع عنها الغبار ويمسّحها بطرف كمه بحرص شديد، كان صاحب الحانوت يقف ببطئ عملاق رجراج ويطالعه بازدراء حيث قال:

- لولا أنك تنظم الكتب وترتبها في كل مرة تزورني ما تركتك تدلّف للحانوت بحذائك المحتبر أمهأ البائس.

التفت إليه الشاب وقال في حرج:

- اهداً يا رجل، أتيتك هذه المرة ببعض المال، سأشترى كتاباً

- يا للهول! ومن أين لك المال أيهما الحثالة؟

- من کدّی ومن عرق جبینی!

تركه صاحب الحانوت بعد أن تسببت كلماته في التفاتات جميع من بالحانوت لحذاء الشاب المهرئ، بعضهم قام بالهمز واللمز وتعالت بعض الهممات من هنا وهناك، لماذا يتم هذا البائس بالكتب!

حرث صاحب الحانوت يديه بلا مبالاة وعاد ليجلس على الباب يحك رأسه وقد تدلّي أمامه بطنه الكبير، واختنقت أنفاسه بسبب سمنته المفرطة فتصاعد من صدره أزيز مزعج كلما تنحنج أو بدل مجھوداً بسيطاً، وبدأ يرافق النساء في السوق وهن يقلّبن أكمام الملابس المتكدسة والتي تبعثت هنا وهناك.

اقرب "أنس" من الشاب وحياه بصوت خفيض، فرد الشاب تحيته باقتضاب بعد أن استقرت عيناه على وجه "أنس" للحظات وكأنه يحاول التعرف إليه، عاد الشاب يقلب الكتب وينفض عنها الغبار ويسعها بطرف كمه، التقى "أنس" كتاباً له غلافه جوزي اللون مشبوج بلفحات خضراء وقال وهو يتصفّحه:

- لا يدرك هذا الرجل قيمة تلك الكتب..أليس كذلك؟.

مر الشاب على وجهه بسرعة بعينيه الكليلتين ثم عاد لصنيعه بالكتب ولم ينس ببنت شفة، قرأ "أنس" عنوان الكتاب الذي بين يديه بصوت مسموع قائلاً:

- الإكثير

- نعم..الإكثير!

- أعتقد أنني أعرف معناها، ربما قرأت عنها من قبل!

رفع الشاب حاجبيه وقال باهتمام:

- تعني الذهب الخالص، وهو كتاب رائع.

- يبدو أنك تحب القراءة.

لاحت على وجهه ابتسامة وقال وقد ضوئ بريق في عينيه:

- أنا أتنفس الكتب!

- اسمي "أنس"

حرّك الشاب رأسه تجاه "أنس" الذي مد يده ليصافحه وطالعه بانتباه وقد اتسعت حدقته، سريعاً ما كست وجهه علامات البشر، مدّ يده المحمّرة من أثر الصباغة وصافحه بودّ، شعر بانتعاش لمجرد اهتمام أحد ما به، تهلل وجهه وابتسم فكشفت ابتسامته اللثام عن أسنان ناصعة البياض وروح عذبة، يبدو أنه يعاني من تجاهل الجميع له، قال بصوت مرتجل:

- وأنا "كلودة" أنت غريب عن المملكة، أليس كذلك؟

- بلـ

- لهذا إذا تعاملني بوداً

- وما العيب في ذلك؟

- لو عرفت قصّتي ما صافحتني كما صافحتني منذ قليل

- ولم لا!

هز الشاب رأسه وابتسم ساخراً ثم التقط كتاباً ومد يده في جيب بنطاله وأخرج حفنة من النقود ودسرها في كفّ صاحب الحانوت وخرج مسرعاً، شيّعه صاحب الحانوت السمين بصوته الأجيش بالmızيد من السخرية من حذائه ويديه الحمراوين، وبالمزيد من الألفاظ البذيئة.

تبّعه "أنس" وصاح منادياً عليه:

- "كلودة" انتظر

التفت "كلودة" إليه وقال متعجباً:

- ماذا تريـد أهـمـها الغـرـيبـاـ!

- هـونـ عـلـيكـ ياـ فـقـيـ، كـنـتـ أـبـحـثـ عـنـ صـحـيـةـ، فـأـنـاـ أـشـعـرـ بـالـغـرـيـةـ هـنـاـ.

- أـينـ أـهـلـكـ؟

- أنا وحدي هنا، أحاول الوصول إلى صديق التقيت به أمس، فهلا ساعدتني في البحث عنه؟

استدار "كلودة" وسارعه خطوات بتؤدة وقد أخذن رأسه وكأنه يفكّر، ثم التفت لأنس وأشار إليه فلحق به وسارا معاً لفترة وجيزة قبل أن ينحني بهما الطريق إلى ساحة واسعة، يتوصّطاً مجموعة من التجار وقفوا يعرضون بضاعتهم استعراضًا أمام الجميع، بسط أحدهم ثوبًا من القطيفة الحمراء على ذراعه وكتفه ووقف ينادي واحتشدت حوله النساء كلّ منهن تتحسس طرف الرداء بكفها وتحملق فيه ثم تسأله عن الثمن، لم يملّ من تكرار الرد، بدت النساء مسحورات كلّ منهن تشتكي أن يكون الرداء لها وزاغت أعيانهن وهن يتخيّلن أنفسهن أميرات يرتدينه. وجلس آخر على الأرض وقد صفت أمامه أباريق من الزجاج الملون بدبيعة الشكل انعكست عليها أشعة الشمس الحانية فزادتها تألقاً وجمالاً، أما الثالث فكان يبيع العطور في زجاجات صغيرة مزينة بالنقوش، بدا وكأنّ هذا السوق للأثرياء فقط. أشار "كلودة" إلى الجهة الأخرى من الميدان الفسيح لينتقل إليها وقال لأنس:

- ما اسم صديقك؟

- في الحقيقة.. كنت أتبع شاباً يدعى "شهاب"

- "شهاب"!.. إذن أنت محارب.

- يبدو أن الأمر مألوف لدیکم.

- بالتأكيد.

- إذن، هلا ساعدتني، أود أن أصل إلى قصر الملكة "الحوراء"

- لا أعرف الطريق إليه!

- هل سمعت عن "المغاتير"؟

- سمعت لكنني لم ألتقي بهم من قبل!

- لكني تعرف "شهاباً" أليس كذلك؟

- ومن منا لا يعرفه!

سارا معاً كتفاً بكتف، ثم قال "كلودة" بعد فترة وجيزة:

- سِنْمَرْ أَوْلَا عَلَى الطَّبِيبِ، سَائِشْتَرِي دُوَاءً فَأَنَا مَرِيضٌ.

شفاك الله -

حرّك "كلودة" رأسه ممتنًا واخترقا معاً ذاك الحشد الكبير وبخطى سريعة وصلّى إلى عدّة بيوت متلاصقة ذات أسقف منخفضة، طرق "كلودة" باب بيت منهم ففتح له رجل أربعيني تكسو وجهه ابتسامة واسعة سريعاً ما رحب بهما ودعاهما للدخول، على أريكة من الخشب جلساً يراقبان حركته البطيئة بردائه الطويل والواسع الأكمام وقد انتشرت حوله على الطاولات والرفوف زجاجات الدواء، قال الطبيب بصوت متحشّج بسبب صمته الطويل قبل أن يدخله إلى بيته المتواضع:

- أعددت لك الدواء منذ أسبوع لكنك تأخرت.

- عفواً سيدي لم أتمكن من الحصول لسبب خاص.

- أخبرتك أكثر من مرة أنك تحتاجه لتحسين حالتك المزاجية والذهنية، أما زلت مشتّاً وترى تلك الكوابيس؟

- نعم..أراها كل ليلة.. ولكن.. سيدى، ألن أشفى من مرضي هذا؟ هل سأظل
هكذا؟

- للأسف يا "كلودة" لم أسمع عن حالة مماثلة عادت لما كانت عليه، كلّ من أعرفهم يستمرون على هذا الحال حتى...

وقف "كلودة" واثبأً وكان هناك من وخزه بابرة بعد أن نقد الطبيب قيمة الدواء وخرج من باب البيت كطلقة المدفع، تبعه "أنس" بخطوات واثبة، بدا جلياً أن "كلودة" حزين وغاضب، وكان هذا ما وقع في نفسه منذ اللحظة الأولى التي رأه فيها، روح متعية لشاب بسيط تفتش بين الكتب عما يسلی الفكر ويجب خاطر النفس المكسورة كحال الكثرين، هرب بالقراءة من واقع مؤلم فيعيش بين الكتب ويتنفس الكلمات، تردد "أنس" بين أن يتركه لحاله وبعد

فهو في حالة لا تسمح له بمجاراته في أحاديثه الودية، وبين أن يتحمله قليلاً ويسير معه على الأقل حتى بيته ليعرفه، لكنه قرر أخيراً أن يفارقه وسيسأل غيره، التفت عائداً من حيث أتى، فإذا بـ"كلودة" ينادي عليه ثم يقول:

- عفواً سامحي، سأسيء معك لأخرجك من القرية.

- لماذا؟

- ألم تسأل عن "شهاب"؟ هو يقيم بالغابة، لا بد أن تعود، ظننتك لا تعرف الطريق إلى الحدود المقابلة للغابة، هيا وسأسيء معك.

سار "كلودة" مهوماً بجوار "أنس"، كان "كلودة" يحب ابنة عمّه "أشريا" حباً جماً، لكنه لم يملك سمات الشخصية التي تتمناها وتحلم بها، كان يعشق اسمها، وملامحها، ودارها، والدار التي بجوار دارها، والطريق إليها، والجدران التي تستند عليها، والهواء الذي تتنفسه، طلماً للزواج مراراً وتكراراً وكانت تأتي، لم يبأس وكان يعود فيطلبها مرة أخرى من أبيها، ومررت الأيام تشد بعضها بعضاً ومات أبوها وما زال قلبه على العهد.

كان عندما يستبد به ألم جرح قلبه يخرج للبساتين القرية من بيته والممتلئة بأشجار البلوط العملاقة، فيجمع أوراق النباتات العطرية ويردد الأذكار وأحياناً يدندن بالأشعار، ويتصبر بخلوته مع الطبيعة الخلاقية، تغيرت أخيراً وصارت تضع له الشروط واحداً تلو الآخر، لو بنيت ييتاً كهذا ربما أوافق، لو توقفت عن فعل كذا ربما أوافق، لو...لو..

وكانت تمتنع عن الكلام معه وتكلّف أنها بالرد عليه. كان ذاك الهوان الذي يصيّبه بسبب حبه لها يظهره ضعيف الشخصية أمامها، وكانت هي تطمح إلى الزواج بشاب قوي الشكيمة تعتمد عليه. لم يكن هناك من يوجهه أو ينصحه ليتحمل ويتصنع ويتخلى عن تلك العفووية التي يعاملها وأمها بها فقد أساءت فهمه، فهو وحيد بلا أب أو أم، وليس له شقيق يشد عضده، بينما يسيران ويتبادلان أطراف الحديث سأله "كلودة" بفضول:

- هل عرفت الحب يوماً؟

- لا...لم يطرق الحب قلبي بعد، لم ألتقي بمن تخطف روحي حتى الآن.

رد "كلودة" بتأثير:

- أمّا أنا فلقيتها.. وليتها ما خطفت روحي!

وصلاً أخيراً إلى الحدود، حيث كان هناك فاصل حجري يحيط بالغابة، تخطأه "أنس" والتفت تجاه "كلودة" متسائلاً عن سبب وقوفه واجماً كما كان يفعل:

- ما بك يا "كلودة؟

- لم أدخل الغابة من قبل! يقولون أن من يدخلها يختفي للأبد ولا يعود.

استدار "أنس" وطالع مجاميع الأشجار أمامه وقال:

- أوتظن هذا فعلاً؟

بقي السؤال معلقاً في الهواء حتى التفت إليه "أنس" ومد يده ليصافحه، فمال "كلودة" وكأنه يخشى أن يتعرّف قدمه الخط الفاصل، اهترأَ الأرض فجأة وتارجع كلامها فوجد "أنس" نفسه يجدب ذراع "كلودة" دون قصد منه فدخل الأخير الغابة، ابتسم "أنس" بتوتّر وقال له:

- أرأيت، ها أنت هنا ولم يحدث لك شيء!

شعر "كلودة" برهبة تحتاج جسد، كان يتربّق أن يحدث شيء ما! لكن الأمر بدا أمّا كما يبدو!! سار مع "أنس" وانطلق معه يتوجّلان في الغابة، وعيناه تطھحان فضولاً. مرّا بجدول ماء فانحنى "كلودة" وغسل كفه ثم شرب منه....

"سبحانك سبحانك، ما أعدب الماء. ماذا لو لم يكن هناك ماء! كيف كان سرتوي، كيف كنا سنبلل ألسنتنا لنسبحك! حمدا لك يا ودود".

هكذا همس "كلودة" وهو يسير، كاد يسأل "أنس" كيف أتى إلى هنا ليسمع منه بالتفصيل، لولا الضربة التي باعنته فجأة وهو يمشي معه والتي صاح على إثراها متضرعاً إلى الله وهو يتوجّع:

"سبحانك سبحانك، أكفنا شرهم واجعل كيدهم في نحرهم"

بينما كان "أنس" يصارع رجلاً ضخم الجثة له وجه قبيح، لاحقه الآخر بعصا غليظة وصوت أجرش وجهه مقيّب، استسلم "كلودة" حتى يتوقف عن ضربه لكنه لم يتوقف، ضربة على كتفه، والأخرى على ذراعه، والكثير على ظهره حتى شعر أن جسده تذرّ من الألم، قيده ذاك الفحل المقيّب بالحبال بسرعة، ما زال "أنس" يصارع القبيح، كان يوجه ضرباته لأماكن متفرقة مواجهًا القبيح بجسارة وكأنه لا يخافه، لم تند منه صرخة ألم، لكنه كان يصبح بقوّة، تارة بيديه وتارة بقدميه، ود "كلودة" لو كان مثله، وصلت حفنة من "البغضاء" وأمسكوا به "أنس"، فالكثرّة تغلب الشجاعة، ضربوا "كلودة" على رأسه بشدّة فقدوعيه، قيدوهما بعد أن سلبوهما متعاهما، كان كل منهما يملك كتاباً، "أنس" بكتابه "إيكادولي" في حقيقته، و"كلودة" بكتابه الذي اشتراه من الحانوت قبل أن يدخل الغابة، بصدق القبيح على وجه "أنس" وكاد يقتله لولا المقيّب الذي صاح وهو يمسك بكتاب "أنس" بعد أن أخرجه من الحقيقة القماشية التي أعطتها له السيدة "ناردين":

- انظروا، كتاب غريب وخالٍ من الكلام!

تمشت علامات الرهبة على وجوههم الكالحة، التفوا حول المقيّب وتصفحوا الكتاب وقرأوا عنوانه، عادوا ينظرون لـ"أنس" بارتياح وقال أحدهم هامساً حتى لا يسمعه "أنس":

- يبدو أنه محارب جديد، فلنأخذه لقصر الملك "كمشاق"

رد آخر:

- نطلب المال أولاً قبل تسليم المحارب والكتاب.

قال القبيح:

- فلنقتله، ما حاجتنا إليه!

رد المقيّب وهو يحك شعر رأسه:

- ربما كان له ثمن فنحن لا نعلم كيف تسير الأمور، سمعت أنهم يعلقونه من قدميه ويثقبون قلبه وعندما تسيل الدماء يجمعونها في قوارير ويكتب الكاهن القصة في الكتاب وتنتهي أحداثها وهو يلخص أنفاسه الأخيرة.

كان "أنس" يراقبهم ويبحث بين أياديهم عن كتاب "كلودة"، أين اختفى!! اقترب أحدهم من "أنس" برأسه ونظر في عينه وقال بتوعد رافعا صوته الأجيش:

- سنقتلك أهلا المحارب.

رائحة أنفاسه الكريهة التي فاحت من بين أسنانه النخرة والمسوسة كادت تخنق "أنس" لولا نسمة هواء باردة مررت فحملتها بعيداً عن أنفه، قال بصوت حاول أن تكون نبرته قوية:

- وما أدراكما أنتي المحارب!

همهم البغضاء وقال أحدهم:

- هلرأيتم الرمز؟

- وما ذاك الرمز؟

- سمعتهم يقولون أن للمحاربين رموزاً! فلنبحث عن الرمز!

أطبق "أنس" فمه وجلس يراقبهم وهم يفتحون حقيبته وملابسها، زاجر القبيح غضباً وأمسك بالخنجر ذى المقبض المذهب وكان قد أخرجه من ثيابه وكاد يذبح به رقبته، حملق في وجهه بسحنة متوعدة ثم عاد خطوة للخلف، ران عليهم صمت مهيب وتنقلوا بأعينهم بين الشايدين، خلصوا نجياً وابتعدوا وبدأوا يتحدثون همساً حتى لا يسمعهم، كان "كلودة" لا يزال فاقداً لوعيه، عادوا واقتربوا متهماً ثم لطمه ذو الأنفاس الكريهة على وجهه وقال بعد أن جذبه من شعر رأسه:

- سنقتلكم معاً بعد أن نقبض الثمن.

رحل بعضهم وبقي ثلاثة يحرسونهما، ومررت لحظات ثقيلة، لم يسمع "أنس" حدثهم عن الملك "كمشاق"، لم يدرك أنه يسير تجاهه دون أن يشعر.



"نيرة"

أسدل الليل عباءته السوداء على المملكة فغرقت في ظلام حalk. كان القمر يتحرك ببطء كالشبح في السماء، وكانت الغربان تقف على شرفات القصر المكون من عدة طوابق، بدا البناء ضخماً مهيباً يشبه الجبل، أعلىه ضيق، وأمام الطابق السفلي فكان عريضاً وواسعاً جداً. ثبتت الأميرة "نيرة" من فراشها ودفعت النافذة بعنف ثم طالعت السماء بنظرة خاطفة، كانت تتمتع بخفة العصفور، وكبراء الطاووس، لعينيها الكحلتين بريق عجيب يشبه بريق عيني القلط في الظلام! من يراها بجملة النظر من بعيد يصور له وكأنّ عينيها جوهرتان! كانت "نيرة" تدرك أنها جميلة، لكنها كانت دائمًا كالقدر الذي يغلي فيه الماء بجنون. التفتت صارخة في وجه خادمتها بحنق شديد لكي تجهز لها ملابسها وتعينها في زيتها. قالت بتسلط:

- هي، أمامك عملٌ طويL، أريد أن أخطف الأنطـار الليلـة.
غمـزت الوصـيفـة بمـكـرٍ واقتـربـت منها ثم قـالتـ:
- أنتـ لا تحتاجـين لـزيـنة يا مـولـاتـيـ.

أبـستـها الوصـيفـة رداءً أحـمـرـ اللـون يـُـظـهـرـ أـكـثـرـ ماـ يـسـترـ، فـتحـتـ "نـيرـةـ" صـندـوقـ زـينـتهاـ وـتـخـيـرتـ ماـ يـنـاسـيـهاـ منـ جـواـهـرـ، وـدـهـنـتـ شـفـتـهاـ بـصـبـغـ أحـمـرـ قـانـ يـنـاسـبـ بـشـرـتـهاـ السـمـرـاءـ، ثـمـ اـسـتـرـختـ فـيـ مـقـعـدـهاـ وأـسـلـمـتـ رـأسـهاـ للـوـصـيفـةـ الـقـيـ بـدـأـتـ تـمـشـطـ شـعـرـهاـ بـحـرـصـ شـدـيدـ، بـعـدـ لـحظـاتـ كـانـتـ تـهـبـطـ عـلـىـ الدـرـجـ وـكـائـنـاـ الـقـمـرـ يـنـحدـرـ عـلـىـ سـحـبـ السـمـاءـ.

بـخـطـىـ سـرـيـعـةـ كـانـتـ تـدقـ الأـرـضـ وـكـائـنـاـ عـلـىـ وـشكـ دـخـولـ حـربـ معـ شـخـصـ ماـ، اـتـجـهـتـ إـلـىـ غـرـفـةـ أـخـمـهـاـ الـذـيـ كـانـ مـتـكـئـاـ عـلـىـ أـرـيـكةـ وـثـيـرـةـ وـبـجـوارـهـ صـديـقهـ

"حليم" الذي كان يرفل في ثياب فخمة تلبيق بمنصبه، والذي مرت عيناهما عليه وكأنه كتاب ممل لا تود قراءته، هي لا تحبه، لم يفلح في الدق على أوتار قلبها رغم عشقه الشديد لها، أمّا هو فأقبل عليها بنظراته وكأنه يود التهامها بعينيه، وجّهت نظراتها نحو آخرها قائلة:

- رأيت الرمز مرة أخرى، هناك محارب على أرض المملكة.

- أين هو بالتحديد.

- لا أعرف المكان للأسف.

ابتسم "حليم" وقال بلطف وهو يطلب ودّها:

- سأرسل رجالنا ليبحثوا عنه فلا تجهدي عقلك الجميل بالبحث عن مكانه، أرى أنه من المتوقع أن يكون في مملكة الشمال الآن.

على عكس مراده.. استفزتها كلماته فكّرت على أسنانها واستدارت مقتربة من المدفأة ورفعت كفيها نحوها تستمدّ منها الدفء ثم قالت بتنمر:

- أرى..أرى!!! ومن أنت حتى ترى!، ما شأنك أنت؟ أنت مجرد ضيف ثقيل!

اهتزّ القدر الذي كان بين يدي "حليم"، سقط الشراب على ملابسه فوشّب من مكانه ثمّ وضعه على المائدة والتفت غاضبًا نحو آخرها "كمشاق" الذي رمقه بنظرة واثقة وقال له:

- دعك منها يا "حليم"، إنّها مجنونة.

كانت "نيرة" دائمًا غاضبة، لديها لسان كحبة قرمذية دائرة تنفس سمومها في وجوه الناس، أدارت رأسها بعصبية ورمقته بمكر ثمّ قالت:

- أُشميك كثيرًا يا أخي.

رفع كفّه مشيرًا للوصيفات ليخرجون من الغرفة، واقترب منها وسألها بغلظة:

- أين أختك "أونتي"؟

قالت بسماحة:

- الحمقاء، نامت مبكراً كعادتها.

اقرب "حليم" وقال:

- لا أدرى لماذا تختلف "أونقي" عنكما!

ثم أضاف:

- حتى أنها لا تعرف أي شيء عن الأخطار التي تهددنا!، تبسيط مع الجميع وكأنها ليست أميرة! بينما لقلة نصجها وعمرها فهي تصغرك بسنوات يا "نَبِرَة"

ثُمَّ ارتبك "حليم" فقد شعر أنه باخر كلماته قد استفز الأميرة "نَبِرَة" التي هرّت كتفها وقالت:

- لأنّها حمقاء... مثلك.

أصبح جو الغرفة متوتراً، وأراد "كمشاق" أن يلطف من الأجواء فقال بهدوء:

- فلمبدأ قليلاً يا رفاق، ليس هذا وقت المشاكسة.

كان "حليم" في الثامنة والعشرين من عمره، كانت صداقته للملك سبباً في تغيير مسار حياته، فهو فارس مقدم شجاع وشاب ذكي وحاذق، ولما رأى الملك منه هذا كشف الأوراق أمامه وعقد معه صفقة، فطرح "حليم" فيها شروطاً لم يتحصل عليها كاملة بعد مقابل ولائه الكامل له، لم تكن "نَبِرَة" من ضمن الصفقة! لكنها صارت هدفه الذي يسعى وراءه فهو يتميّز رضاهما، يحبها بشغف وجنون، يرغب بها، وهي تمنع وترفض. وكان "كمشاق" يعلم عشقه الشديد لها ويستغلّ هذا لمصلحته، فصار "حليم" عوناً له على الحكم وعلى اصطياد المحاربين ومحاولة السيطرة عليهم لخدمة أفكاره السوداء، كان "كمشاق" يعربد بلا حساب، أطلق العنان لشهواته، خمرّ ونساءً ولهو، غارق في الشهوات حتى أذنيه، أما "حليم" فحبس نفسه عليها، ولم تنجح أنتي في اختراف شغاف قلبه، وبقيت "نَبِرَة" الفاكهة المحرمة التي لا يجرؤ على مساسها حتى الآن.

جلست "نَبِرَة" أمام أخيها "كمشاق" ووضعت ساقاً على ساقٍ وقالت بمرارة:

- لا بد أن نقضي على هذا المحارب بسرعة.

اقرب منها "كمشاق" وقال بتواتر:

- هل رأيت وجهه؟

- لا...ليس بعد.

- هل فقدت مهاراتك؟

قالت بعصبية:

- لا...اختفت فقط بومتي العزيزة؟ لم أرها الليلة! كلّما حاولت أن أرى شيئاً لا أرى إلا الظلام!

كانت "نبرة" تفخر دوماً بتلك الموهبة التي حباه الله بها، لكنّها لم تشكر الله عليها أبداً! من آن لآخر كانت ترى بعينيها كل ليلة ما تراه تلك البومة البيضاء التي يعرف الجميع ارتياطها بها منذ الصغر، كانوا يخشون منها لأنّها ستنقل الخبر للأميرة "نبرة"، كما أنها كانت شاهداً على الكثير من الأشياء التي قلبت الموازين وهرّت البعض حيث أصبح أمرهم مفضوحاً لدّها، في الحقيقة موهبتها تلك جعلت حربتها قوية، فلا يجرؤ أحد أن يقف أمامها في المملكة كلّها.

صَفَقت "نبرة" فأسرعت جارية بملء كأسها بالخمر وجلست تتجرّعه و"حليم" يراقبها.



غريت الشمس وكان "كلودة" قد بدأ يستعيد وعيه بصعوبة، فتح عينيه على طقطقات النار التي أشعلها اللصوص في المكان الذي قاموا بالتخييم فيه، وكان "أنس" و "كلودة" بلا قميصيهما فقد خلعهما اللصوص عنّهما وبحثوا في أجسادهما عن عالمة ما تدل على كون من يحملها محارباً، الأغبياء لا يعرفون عن رمز المحارب الذي يظهر في الرؤى لبعضهم، ظنوا عندما أخبرهم "أنس" أن

الرمز يظهر كعلامة على الجسد. اعتدل "كلودة" في جلسته، كان مصاباً بصداع قوي:

"سبحانك سبحانك، نجنا من مكر الماكرين."

قالها وهو يئن من الألم، مر الوقت ثقلياً، لم يغمض لهما جفن، أما الثلاثة فكان شخيرهم يزعج كل شيء حتى الطيور في أعشاشها، إلا تلك البومة البيضاء التي اقتربت منها قبل طلوع الفجر بساعة، كانت تقف بكبرياء على غصن شجرة البلوط الكبيرة التي كانا يستندان عليها، جميلة وأنيقه كملكة تقف وتتحف برداها المتألق، وقف "أنس" واقترب منها ويداه ما زالت معقودتين خلف ظهره، قفز بساقيه المقيدتين واقرب منها وطالعها بعينيه عن قرب ثم قال بحنان:

- كم أنت جميلة، أنت فاتنة! ترى هل تتحدين؟ هيأا أسمعني صوتك، تحدث إلى الصدور من قبل، لا بد أنك تتحدين كالرمادي.

عاد يتأملها عن قرب وكانت تطالعه بفضول بعينيها الواسعتين، ابتسم عندما حملق قليلاً في عينيها وقال بعذوبة:

- أنت جميلة، ما أروعك! ما أبدع لونك! تبارك الله!

صاح "كلودة" من خلفه وكانت يداه تؤلمانه بشدة:

"سبحانك سبحانك! يا خالق الجمال سبحانك!"

استيقظ أحد الرجال وصرخ في "أنس" بصوته الأ Jegش فطارت البومة وحَلَّقت فوقهما وبساطت جناحها الأبيضين وظل "أنس" يتبعها حتى اختفت بعيداً وعاد يجلس بجوار "كلودة":

"سبحانك سبحانك، الكون كله يسبحك، أفلانسبحك!"

همس بها كلودة وهو يئن من الألم وبدأ يس迴 لعل الله يجعل لهما مخرجاً.

في مكان آخر وتحت سقف بديع وعلى فراش فاخر، كانت "تبة" تستعد للنوم بعد أن سهرت لساعات طويلة مع رفيقاتها وجوارتها عندما شخصت فجأة بعينيها! لقد راودتها رؤى بعيبي يومتها البيضاء، لقد نظرت للتتو في عيني

شابٌ مليح الوجه، له عينان بندقيتان وحاجبان كثيفان على وشك الالتحام، ووجه وضاءً مستدير تظلله لحية خفيفة يتحدث هامسًا بصوت بديع، حركت بومتها مقلتيها وتأملته بتمعن، كانت "نَبِرَة" تحملق وكأنّها أمامه، وكان يتحدث بعفوية إلى البومة وكأنّها تفهمه.

حلّقت البومة وأدرات رأسها فرأرت "نَبِرَة" القيد حول ساقي "أنس"، تأكّدت الآن أنّه المحارب، فقد قال في كلامه أنّه تحدث لصقر! خيل إليها للحظات أنّه يغاظلها هي وليس بومتها البيضاء، سقطت جذوة الفتنة فوق قلبها ولن تنطفئ أبداً، الآن تعرف وجهه، ولكن.. هل ستُرغّب في قتله الآن وقد...
أعجبها!



(٧)

"مَرَامٌ"

هذا الهواء وجمع ضحاياه من الأغصان المنتشرة في أكواخ تحت الأشجار، انتزعت "مَرَامٌ" نفسها من أفكارها وبدأت تسير في الغابة، لا بد أن تسرع حتى تتمكن من الوصول لـ"أنس" قبل أن يحل الظلام، وتعود به إلى قصر "الحوراء"، كانت رائحة زهور الياسمين تفوح باردة وتفرش محمل عبيرها لأقدام "مَرَامٌ" وهي تسير بلطاف فوق الحشائش، لم تكن تلك المرأة الأولى التي تسير فيها بتلك الغابة، باتت تعرف الطريق إلى بيت "ناردين" فقد التقت بها من قبل، لكنها بالطبع لم تُحط بكل أسرار الغابة. حذروها دوماً من اللصوص في الجهة الغربية من المهر، لكنها لم تسلكها يوماً ولم تعبر المهر، كانت تعقد ذراعيها أمام صدرها وتضع كفها الأيمن تحت إبطها الأيسر والعكس بالعكس، فالبرد شديد وحاد هذا اليوم، ووصلت سريعاً لذاك الكوخ الذي تسكنه "ناردين" منذ سنوات، كم تشفع على تلك العجوز فهي تذكرها بجدتها، كان الكوخ هادئاً هدوء المقابر عندما وقفت أمامه وأخرجت يدها من تحت إبطها لتتحقق الباب خفقاً ضعيفاً، فتحت "ناردين" باب الكوخ ونظرت محدقة في عينيها بذهول قبل أن تقول:

- "مَرَامٌ" !! أما زلت هنا؟!

- كيف حالك يا جدة

- تعالى يا حبيبي فالرياح باردة.

دلقت "مَرَامٌ" وهي ترتجف، دثّرتها العجوز بثوب مرقع من الصوف كانت تتخذه شالاً تدفأ به كتفها. كان من المناسب لـ"مَرَامٌ" الآن أن تجد شخصاً متعاطفاً تبته أساها، وكانت تعلم أن العجوز ستحنّ عليها كعادتها وستسمع

لها وتحتومها كما فعلت من قبل، قالت بعد أن رشت من القدح الذي سكبت لها العجوز فيه بعضاً من الحساء الساخن:

- أحتاجه بشدّه فالبرد ينخر عظامي.

وضعت العجوز يدها على كتف "مَرَام" وسألتها بصوت خفيض:

- لماذا لم تعودي للديار يا "مَرَام"؟ من الخطر أن تبقى هنا، فقد انتهت مهمتك وصرت الآن أكثر ضعفاً عما قبل، ستكونين صيداً سهلاً يا ابني!

- ليس بيدي... إنها مهمة أخرى كلفتني بها "الحوراء".

- مهمة أخرى!... وما هي؟

- شاب جديد وصل اليوم ودلف إلى الغابة قبل أن يلتقي بالغاتير وكما تعلمين لا يستطيع أحد من أهل مملكة الشمال الدخول إلى هنا، طلبت مفي الملة اللحاق به لأنبهه.

- أتقصدin "أنس"؟

- بلى... هل مَرَبَكِ اليوم؟

- رحل منذ ساعة، لقد كان مشغولاً بأمر "شَهَاب"، كان يركض خلفه.

- لماذا لم تنبئيه أنه لا بدّ أن يلتقي بالملكة والغاتير أوّلاً؟

أشاحت العجوز بنظرها بعيداً عن وجه "مَرَام" وتنهدت بعمق ثُمَّ أغمضت عينيها وقالت بهدوء شديد:

- لقد ركض خلف حدسه، هو ليس من ذاك النوع الذي ينتظر أن ي ملي عليه أحدهم ما يفعله، لن يستطيع التراجع وليس له أن يخطو خطوة واحدة إلى الخلف!

ثُمَّ صمتت قليلاً وكأنّها تقتنص فكرة وأضافت:

- لا تقلقي فقد أخبرته بالقليل عما سيفعله، وسيكتفيه ليؤدي مهمته.

زفرت "مَرَام" بأسى وقالت:

- وددت أن أعود للديار، أخشى مما أخبرني به الحكيم "سامي كول"
- وبماذا أخبرك الحكيم؟
- سأحكى لك كل شيء...

بدأت "مَرَام" تصف للعجوز "ناردين" كيف كان يتكرر ظهور اسم "أنس" في كتاب "هيلاء" من آن لآخر، طقطقت النار تحت القدر وتصاعد الدخان من تلك الفتحة التي تعلوه فابتبخت من سقف الكوخ سحب الدخان مشكلة جبلاً مقلوّعاً من تموّجات في السماء، مالت الأشجار تنصت للحكاية، وكأنّها تهتم لأمر "مَرَام" وذاك المحارب الذي بدأ رحلته منقاداً وراء حده ومتبعاً لشخص لا يعرفه، مرّ الوقت سريعاً وكان لا بدّ من المضي في الطريق حتى لا يداهمها الليل وهي وحيدة في الغابة، ودعت العجوز في تلك اللحظة التي اقتربت منها "قطرة الدم" وبدأت تحلق قريباً منها لتؤنسها، كانت تلك هي أولى الصقر التي حملتها إلى ذاك العالم الغريب هنا.

قاومت "مَرَام" شعورها بالحنين لبيتها واحتياجها الشديد لأنفها وانطلقت تتحسّس جذوع الأشجار وهي تسير وكأنّها تسلّم عليها واحدة تلو الأخرى، عبرت جسراً صغيراً وهي شاردة ولم تنتبه لدخولها للجهة الغربية من الغابة، لما أدركت عادت سريعاً لتعديل مسارها، تناهى إلى سمعها صوت صهيل فاستدارت تجاه الصوت، على حين غفلة منها وثب رجل ضخم الجثة له وجه مثقوب بعينين ضيقتين تحتمما أنف عريض مفلطح وفم متকور كفوفة بركان ينفث غصباً، كمم فمها بكفة الغليظ وأحاط جذعها بذراعيه الأيسير وحملها وهي تقاوم وتصارع، انقضت "قطرة الدم" على الرجل وبدأت تنبش رأسه بمخلبها بينما تفلتت "مَرَام" من بين ذراعيه وهربت، انزلقت وهي تركض فأسرها رجل آخر وعاملها بصلف وقسوة، لطمها أولاً ثم ضربها على رأسها فقدت الوعي، كان مقينا لها سحنة شخص خارج من قبره للتو، عاد الرجل الضخم ورأسه تقطّر دماً وركلها بقدمه في غيظ ثُمَّ حملها على حصانه وانطلق الاثنان خارجين من الغابة ومتوجهين نحو القرية، لقد وقعت "مَرَام" في أسر تاجر للرقيق، عادت "قطرة الدم" لتخبر الملكة بما حدث، وبقيت "مَرَام" ملقاة على أرض في غرفة مكتظة بالفتيات. أفاقت بصعوبة وأمسكت برأسها، همّمت ببعض الكلمات غير مفهومة وسرحت نظراتها للحظات وهي تحسّ

بانقباض لا تدري مصدره، وأخيراً استواعبت ما حدث لها فندت منها صرخة
قصيرة جعلت كل من بالغرفة ينظر إليها.



الكثير من القدور الكبيرة الممتلئة بالماء الساخن، بعض المناشف ملقة هنا وهناك، المكان يعيق برائحة عطور مختلطة، وامرأة شقراء تجلس في ركن تزين وجه فتاة بالأصباغ. هنا يعدون الفتيات قبل أن يعرضوهن في السوق للبيع، أحياناً في بعض القرى ينتهي الأمر بموت من يسرقوهم من العبيد على حدود قريتهم وبالتحديد عند الحاجز الحجري المحيط بها، وهم لا يعرفون السبب! هذا ما يتناقلونه من قديم الزمان، ولهذا كان اللصوص يسرقون الفتيات من الغابة والبساتين حول القرى، لأمهن خرجن بأنفسهن وتخططن ذاك الحاجز الحجري بأمان للتسكع أو للقاء حبيب ربما وسيعدن في وقت لاحق، وكانت "مَرام" صيداً سهلاً في الغابة.

بوجه ممتلئ مستدير، وبعينين مكحولتين باتقان، وشفتين أغرقهما الصبغ الأحمر وكأنها التهمت فريستها للتو وقف امرأة ممتلئة القوام تتارجح في مشيتها أمام "مَرام" تتفحصها وكأنها تتفحص طيراً قبل أن تشربه من السوق، لكيتها بقسوة ثم جذبها من ذراعها وقالت بغيظ:

- هيأ أيتها الحمقاء اخلع ملابسك.

حدقت "مَرام" فيها بعدم استيعاب وقالت بخوف:

- لن أخلع ملابسي... اتركيوني.

جذبها المرأة من شعر رأسها وقالت وهي تز مجر:

- كفي عن الكلام واحلعي ملابسك ل تستحمي وإلا مزقتها أمام الجميع، يبدو أنك من قرية "الرباب" فأنت تشبيهينهم.

صاحت إحداهن بصوت رقيق:

- لا شك أنك كنت تلتقطين بعشيقك في الغابة، أيتها الخبيثة!

تلفت "مَرَام" حولها وهي تضع كفها فوق بعضهما على صدرها، كانت ترتجف، في حركة عصبية سريعة أمسكت مَرَام بإبريق نحامي قريب منها وسكت الماء على رأسها وبدأت تستحم بملابسها، رفعت المرأة حاجبها وقالت في تهكم تشوبه مرارة وهي تكزّ على أسنانها:

- يبدو أنك حمقاء... حمقاء

مطّلت المرأة كلماتها وهي تسْهِماً ورفعت صوتها بينما استمرت "مَرَام" في سكب الماء على رأسها بيد مرتعشة، كانت في هلع وخوف من أن يلقوا بها في أحضان رجل حquier يفترسها، أطربت للحظة تفكّر أين المغايير وأين الصقور وأين هؤلاء الذين كانوا حولها خلال الأيام الماضية، وكيف لا يعرفها أحد هنا، كادت تصرخ وتقول أنا محاربة، لكن...أي محاربة هي الآن !!

علت ضحكات البعض وهم يراقبون "مَرَام" وهي تتحمم بملابسها، ألقت بالإبريق علمن، وبدأت تصرخ عليهم، تشابكت مع بعضهن بالأيدي تارة، وببساقها كانت تركلمن تارة، لكنها كانت تنال منهن ما لا تطيقه، بعض الصفعات والركلات والقرصات، عضّتها إداهن في ذراعها، وضربتها أخرى على ظهرها بقوسية باللغة، جذبوا غطاء رأسها فانساب شعرها على كتفها، وقفّت المرأة أمامها تغلي كالقدر، كادت تلطمها لولا تلك المرأة طوبيلة القامة بملابسها السافرة وشعرها الأحمر التي اقتربت منهن وهزّت رأسها بثقة وهي تطالع عيني المرأة البدينة وقالت بصوت شابته رنة دلال مصطنعة:

- اتركيها لي، لن تفلح تلك الطريقة معها فلديها بعض الكبرياء، سأجهزها بنفسي.

استدارت المرأة وغادرت المكان في تبرّم بعد أن نالت "مَرَام" حظها من نظراتها البغيضة، وقالت ولسانها يقطر حقداً:

- فلتکسرى ذاك الكبرياء.

وتركتها بين يدي تلك المرأة التي أحاطتها بمنشفة كبيرة وهمست في أذنها بحنان:

- تعالى يا صغيرتي، تعالى معي.



كانت الغرفة تسجع في هدوء غريب، الكثير من الملابس المزركشة معلقة هنا وهناك وكأنه معرض كبير، بخطوات واثقة تحركت المرأة بقامتها الطويلة وسحبت رداء شفافاً واقتربت من "مَرَام" وقالت بصوت متهدّج:

- خذي هذا الثوب وارتديه سيزيد جمالك، فلونه يناسب لون بشرتك.
رفعت "مَرَام" عينيها في انزعاج وقالت:
 - لن أرتدي هذا الثوب المبطن، سأظل بملابسني.ضحكت المرأة بخلاعة وقالت لها وهي تربت على طرف الفراش:
 - اجلسلي يا فتاتي واحبرني بقصّتك، من أين أنتِ؟جلست مَرَام بتحفّظ على طرف الفراش وقالت بثقة:
 - أنا محاربة!

ران عليهمما الصمت لوهلة قبل أن تنخرط المرأة في موجة ضحك هستيري بطريقة مبتدلة، ظلّت "مَرَام" على حالها تقپض على طرف المنشفة فوق ملابسها المبتلة وتراقبها في توتر، بعد حين خرجت المرأة وعادت بكوبين من الفخار تصاصعد منها الأبخرة، مدّت أحدهما لـ"مَرَام" وقالت بصوت أكثر هدوءاً مما كانت تتحدث به سابقاً وبدت جادة ومنضبطة وهي تقول:

- كلهن حمقواوات، لا يعلمون قدرك، تناولي هذا يا حبيبي سيدفئك،
وسأحضر لك الملابس التي تليق بك، يبدو أنك فتاة نبيلة.

كانت "مَرَام" ترتجف لا تدري خوفاً أم برداً، أمسكت بالكوب واحتضنته بكفّها وأغمضت عينيها لتسمّع بالأبخرة المتصاعدة منه بالدور على صفحة وجهها البريء، رشفت ببطء وقد بدأ الدفء يدبّ في أوصالها، شعرت بحرقة خفيفة في معدتها وشيئاً فشيئاً بدأت الأصوات تختلط عليها، ضحكات متواصلة وأيدي تتلقّفها، تلك المرأة الطويلة تمسك بذقنها وتنظر إلى وجهها، بدت ملامحها غريبة وهي تتحدث بلؤم وترفع حاجبها الأيسر وتسألها إن كانت تحبّ أن تصبّع لها شعرها هي الأخرى باللون الأحمر، أرادت "مَرَام" أن ترد لكنّ صوتها كان محبوساً بطريقة ما!

رائحة غريبة لا تدري أهي لعطر أم نوع من البخور بدأت تتسرب إلى خيشومها، طعم غريب لشيء لزج على شفتيها، دهان من مسحوق ناعم على كفيها، حليّ تصدر صوًّا تلفها إحداهن حول عنقها، كان الشراب يحتوي على مسحوق نوع من المخدر جعلها في حالة من عدم الاتزان مما سمح للنساء بتبيتها بما رغبوا في إظهارها به، تستحق بعض النفقة والزينة فحسن عرضها سيجعلها تُباع بسعر عالٍ وسيعود عليهم هذا بالكثير. وأخيرًا نقلوها في عربة مع باقي الفتيات وهي تترنح، استقرت أخيرًا وسط السوق بجوار الآخريات على أبسطة مزركشة وتحتها الوسائل الحريرية، وحولهن الحراس يصدون عنهن الأعين الحقيقة والأنفس الجائعة، إن أردتها فادفع الثمن أولاً! وقف زعيم تلك العصابة ينادي لبعضهم، بدأت تستعيد وعيها تدريجيًا، وتحسست جسدها المتكشف وأرادت أن تصرخ، أن تبكي لكنَّ أثر المخدر ما زال يسري في دمها...



(٨)

"أشريا"

هس.. هسس.. همست بها فتاة صبيحة الوجه من خلف الأشجار، كان "كلودة" يغفو فتسقط رأسه تارة يميناً، وتارة يساراً، ما زال القيد يؤله. لم ينتبه إليها إلا عندما تحركت وسارت على أطراف أصابعها وتقوّقت خلف ظهره ثم بدأت تلكره بيدها حتى ينتبه لوجودها، قال متراجعاً:

- "أشريا"!! ما الذي أتي بك إلى هنا! هل أنت مجنونة؟ كيف تدخلين الغابة!!
كانت الفتاة ذات نظرة متقدة كأنها ذكاء، همست قائلة:

- تأخرت يا "كلودة" ، كان من المفترض أن تكون بالبيت منذ ساعات.
كيف وصلت إلى هنا؟

- أتيت وحدي، كنت أتبعك أمس وأنت في حانوت الكتب، ورأيتك مع ذاك الشاب وأنتما تدخلان الغابة، فجلست مع النساء في قافلة تجاري خرجت من قريتنا حتى أطمئن أنك عدت، تابعوا سيرهم فسررت بهم حتى حدود الغابة، ودلفت أفتشر عنكما، أنتما بالكاد على أطرافها، عثرت عليكما سريعاً ورأيت القيد على يديك وكنت قد أتيت بذلك المسحوق لأحسي نفسى إن هاجمتني تلك الذئاب فألقيه على أعيتها.

رفعته ليشمّه فغضن حاجبيه وهمس ينهرها قائلاً:

- ابعديه عن يديك، إنه حارق يا "أشريا"، قد يؤذيك يا مجنونة!
لم يلمسها على الصاق المسحوق الحارق بأنفه، فهو يخشى عليها أكثر مما

يخشى على نفسه، سكنت الفتاة للحظات خلف ظهر "كلودة" ورمقت "أنس" بعينيه النابتين، وعندما تأكّدت أن الحراس غارقين في النوم فتحت كيساً من

الجلد كانت تضع المسحوق فيها، كان المسحوق لنوع من الأحجار التي يجمعها "كلودة" من الكهوف التي تملأ الجبال، ويُسحقها ويُضعها في قارورة كبيرة ويُغلقها بإحكام، طالما حذرها منها، أخبرها ألا تقرب منه الماء لأنه يفور وربما يأكل بشرتها لو لامسته بأصابعها، ثارت الفتاة بعض المسحوق على الحال التي قيّدوا "كلودة" بها، ثم أخرجت قرية ماء صغيرة كانت تحملها، سحبت بعض الماء بفمها وعادت فلفوظته بيضاء من بين شفتيها فوق المسحوق المنثور على الجبال، تراجعت قليلاً وجلست بوجه ما زال رغم أنوثتها الظاهرة يحتفظ باستداره الطفولة وتعبيراتها البريئة تراقب ذاك الفوران الذي يحدث ثم تفتت الحال وذابت أمام عينيها، سحب "كلودة" يديه سريعاً ووقف يتفحصهما، ظنَّ أن الفتاة ستؤديه بقلة خبرتها، لكنها كانت ذكية وأجادت تقليل ما رأته يوماً يفعله، فهي تراقبه دوماً وتتعلم منه، همس وهو يحدق في وجهها:

- حمداً لله أنة جئت يا "أشريا".

ثم همس مسبحاً:

- سبحانك سبحانك يا من تدير الأمر من السماء إلى الأرض!

أسرع "كلودة" يفك قيد قدميه، وساعد "أنس" على فك قيده، هرول الثلاثة متبعدين بعد أن سحب "أنس" حقيبته وما فيها عدا الكتاب الذي سرقوه ولم يكن موجوداً، كانت القلادة لا تزال حول عنقه، وكان قد وضع المفتاح مع قطع الكريستال في الكيس الجلدي الصغير، فتحه ليتأكد من وجودها فلا ريب أن اللصوص طمعوا فيها وأغرامهم بريقة لكته فوجيء بتحولها إلى قطع من الفحم الأسود!

ساروا لمسافة غير بعيدة عندما تذكر "أنس" خنجره المذهب، كيف سيكمل رحلته بدونه وقد أوصاه جده أن ينتبه لكل شيء أمنده به لأنَّه سيحتاجه، للحظة تردد لكته قرر في النهاية أن يعود لإحضاره رغم اعتراض "كلودة" و"أشريا"، على مقرية من المكان بحيث يتسلى لهم المرب سريعاً في أي لحظة وقفأ يراقبانه خلف الأشجار، كان "أنس" يسير بحذر شديد وهو يكتم أنفاسه، نجح في سحب الخنجر من حزام أحدهم وتحرك بيضاء حتى لا يوْقِله، لكنه تعرَّى بساق الآخر وسقط فوقه، صرخ الأخير فزعًا وكاد يمسك بـ

"أنس" الذي وثب واقفًا وباغته بصرية على صدره ثم لف جذعه بذراعيه وقلبه على الأرض فصرخ فاستيقظ البقية فرعين وأمسك اثنان منهم بـ"أنس"، لكن "كلودة" قفز بخفة من بين الأشجار ونثر باقي المسحوق الذي أحضرته "أشريا" على عين أحدهما فذاب في ماء عينيه وبدأ يحرقه فترك ذراع "أنس" وبدأ يصرخ ألمًا ويقفز هنا وهناك وهو يفركها بيديه، وركل "أنس" الآخر في ساقه بكل ما أتي من قوة وانطلق الثلاثة هاربين يتبعهم اللصوص.

ركضوا بين الأشجار ثم عبروا فوق جسر صغير حيث كان ماء النهر الأخضر يجري تحتهم، فور أن عبروه للجهة المقابلة وقف "أشريا" وندت منها صرحة مكتومة! كانت هناك طفلة رضيعة ملفوفة بخرقة ومعلقة في غصن شجرة أمام عينيهما، تركل بقدميها الدقيقتين في الهواء، وتحرك كفيها كما الفراشة فهز الغصن.

صاح "أنس":

- معقول! أي أم تلك التي تفعل هذا!

غرقت "أشريا" في موجة بكاء عنيف واستمرت تبكي بنشيج مسموع بينما كان "أنس" بحل عقدة الخرقه ويساعد "كلودة" الذي التقط الرضيعة بعينين تهميّان بالدموع وقال بصوت مزقه الحزن:

- وأيْ أباً!

كانت رائحة العسل تفوح منها، على نحوٍ سريعٍ تلفتوا يميناً ويساراً باحثين عن أي أثر لمخلوق حولهم، ولما لم يعثروا على أحد! انطلقا راكضين بأقصى سرعة وكانت "أشريا" تحمل الصغيرة في حضنها، كادوا يخرجون لولا أن قبيلة "المجاهيم" ظهروا مرة أخرى، كان "أنس" يراهم يتواكبون من تحت الأرض ويصططرون بجانب بعضهم البعض حتى أحاطوهم من كل جانب، بدا وكأن "كلودة" و"أشريا" لا يرونهم! خرج "كلودة" أولاً فقد كان أسرعهم ركضاً، وفجأة اقترب أحد "المجاهيم" من "أشريا" ووقف أمامها ثم قبض على عنقها بيديه فخررت على ركبتيها وبدأ وجهها يزرق وهي تمسك رقبتها وتحاول الصراخ لكنها لا تجد صوتاً ولا نفساً يعينها، كادت تسقط على وجهها فوق الصغيرة، لولا "أنس" الذي خلع قلادته ووضعها حول عنقها هي والصغريرة حيث أحاطهما

بحبلها المجدول ودفعهما بقوّة خارج حدود الغابة حيث كانت "أشريا" تقف بأقدامها فوق الحاجز الحجري فسقطت على الأرض وبدأت تسعل وشهقت بينما قفز "أنس" سريعاً وتخطى الحاجز الحجري ووقف يلقط أنفاسه وقلبه يكاد يثب من بين أضلاعه وظلّ يحذق في وجه أحد "المجاهيم" والذي كان يقف داخل حدود الغابة مشيراً إليه بتوعّد فقد خدعهم وأخرج "أشريا" والصغيرة من الغابة بذكاء.

بدأت الصغيرة في البكاء فهزّتها "أشريا" بحنان وأخذت تحضنها وتغطيها بخمارها، استعاد "أنس" القلادة منها وارتدتها وهو يتلفّت ويراقب "المجاهيم" وهم يصطافون على أطراف الغابة من الداخل. اتجه الثلاثة إلى القرية ركضاً حيث التقوا بقافلة تجارية كبيرة، تعرف أحد التجار على "كلودة" فحياد وأغاره قميصاً يرتديه، فطلب "كلودة" على استحياء قميصاً آخرًا لـ"أنس"؛ وساروا في حمايتهم حتى دلفوا القرية بأمان، وجلسوا ليلتقطوا أنفاسهم.

ران عليهم صمت خفيق قطعه ظهور وجه قبيح لرجل أشعث امთأً وجهه بندبات جروح عميقة وله نظرة تخلي القلب، فور أن لمحه "كلودة" وثبت في مكانه وركض مع "أشريا" وهي تحضن الصغيرة، وخلفهما "أنس" تجاه سوق القرية، كان أحد اللصوص الذي ظلّ يطاردهم حتى أحاطتهم أمواج البشر المزدحمين حول البائعين، غابوا عن عينيه فتراجع وهو يسبّ ويعلن.

وصلوا أخيراً إلى دار أم "أشريا"، فتحت "أشريا" الباب بهدوء، كانت الصغيرة قد سكنت في حضنها، واستسلمت للنوم بينما كانت "أشريا" تشتمها وتلثمها على جبينها فاستيقظت الصغيرة وبدأت تصرخ، قالت في نفسها طالما تفوح منها رائحة العسل فهي تحبه، أحضرت "أشريا" العسل وغمست إصبعها فيه، وأطعمتها بعضًا منه فشبعت وهدأت وابتسمت، ثم هرولت بها نحو أمها العجوز وفتحت باب غرفتها فأجفلت! كانت العجوز تبكي بنشيج مسموع وعيناها محققتان من كثرة البكاء، وضفت "أشريا" الصغيرة في حجرها بهدوء، وقصّت عليها ما حدث، صرخت العجوز في وجهها بفزع شديدٍ وطلبت من "كلودة" أن يخرج بالصغيرة من الدار!!

وقفت "أشريا" تعجب من رد فعل أمها التي عادت للبكاء الذي أدمى عينها فصارت لا ترى وجه ابنته "أشريا" وهي تقف أمامها.

خرج "كلودة" مهوماً وسار في الطرقات يحملها، ربطها حول صدره وكانت كلما التقت عيناه بعينهما الصغيرتين تهشّ له وتبتسم، وقف وسط السوق وصاح:

- عثرت على تلك الصغيرة بالغابة، وأنا سأريها وأحتاج العون.
نال من الهمز واللمز ما لم ينله من قبل، واتهموه بالسوء، لكن الله ألقى الرحمة في قلوب البعض.

احتضنها "كلودة" وَكَوَرْ جذعه عليها ليحتميا من الحجارة التي قذفه بها البعض، كان "أنس" يدفعهم ويصبح عليهم متعجبًا من فعلهم هذا!
بكي "كلودة" وانهار وكأنه قد فقد كل أهله فجأة، ثم رفع نظره إلى السماء وقال:

- سبحانك سبحانك، يا رحيم يا ودود.
ثم أكمل بصوت تخنقه العبرات:

- وما ذنب الصغيرة... وما ذنب الصغيرة!

خرجت امرأة ثلاثينية من بيتها وعلمتها ثياب ملطخة بالطحين الأبيض، وخلفها تهrol طفلتان صغيرتان، سارت بخطوات ثابتة وهي توزع نظرات تحمل الكثير من التحدي لمن تجمهروا حول "كلودة"، ثم نظرت للرضيعة وحملتها منه وبدأت الدموع تجري على خديها..

- سأرضعها.. لا تخف علمها.

قالتبا بصوت واثق وهي تحتضنها، كانت تلك زوجة الخباز، وكان رجلاً بسيطًا قد أحسن إليه "كلودة" من قبل، وكانت تحفظ وزوجها له الجميل، أخبرته أن يتركها في دارهم طوال النهار، ويعود ليأخذها لتبيت معه ليلاً.

- سبحانك سبحانك، تسخر من خلقك من تشاء من تشاء!
قالها وهو يتركها بين يديها، كانت نبرة صوت "كلودة" تقطّر حناناً وحبّاً

وحزناً في نفس الوقت، تجول "أنس" في ملامحه التي تطفح بالحزن وقال وهو يمسح على رأس الصغيرة بينما زوجة الخباز تحملها:

- جميل ما صنعتِ، أحسن الله إليكِ كما أحسنتِ إلها.

رفع "كلودة" صوته وسط السوق وقال وما زالت الدموع تسيل من عينيه:

- سبحانك سبحانك، لولا العبرات النقيّة والآيات الخفية لهلكت الأنفاس.

انصرفوا وتركا الصغيرة مع زوجة الخباز، بدا "كلودة" حزيناً منكسرًا!

كان "أنس" يتساءل عن حال ذاك الشاب! وهل هو ناسك عابد؟ أم مريض؟ أم عاشق ولهاي يحبّ ابنة عمّه بشغف!

سار خلفه لمسافة طويلة صامتاً حتى وصلا إلى بيته، قال "أنس" وهو يمسح على جبهته:

- ليتني واجهت ذاك اللص الذي تبعنا للقرية بدلاً من الهرب منه، لا بد أن أسترد كتابي؟

التفت إليه "كلودة" وهو يفتح باب داره البسيطة:

- ربما من الأفضل أن تنتظر حتى تسأل شهاب.

- لا... سأستعيده بنفسي.

قالها بعد أن زم شفتيه، ودَّ أن يلقن القبيح والمقيّب درساً فهو لم يعتد على ترك حقّه طالما هو قادر على استرداده، كان عصي عليه أن يشرح هذا لـ"كلودة"، لن يهدأ له بال حتى يسترد الكتاب بنفسه. حل الليل سريعاً، وكانا قد أرهقا من السير، دلفا معاً لبيت "كلودة" بعد أن مررت من فوقهما تلك البوعة العجيبة التي تمنح أميرتها رؤى ليلية تكشف عن المحاربين، فرأتهما الأميرة "نيرة" بعيوني بومتها، هي تعلم الآن أن "أنس" بصحبة شاب ما، لكنّها ما زالت لا تعرف مكانه، ولم تر بعد وجه هذا الشاب الذي يستضيفه! ألقى "أنس" رأسه على وسادة محشوة بريش الطيور، واستسلم للنوم، كان متعباً ومرهقاً إلى حدٍ كبير.



أونتي

- ستون كشتاًلاً وإلا فلتصرف فليس لك بضاعة عندنا.

وقف الشاب يتأنّى وجه "مَرَام" والتي كانت تبدو ظاهرة عن الفتياط حولها ليس بسبب لون بشرتها المختلف، ولكن لأنّها كانت تبكي وتحاول جذب أي قطعة قماش لتغطي جسدها، حتى أنّها شفّت وسادة حريمية واستخدمت كسوتها كغطاء لكتفيها لكتفيها جذبوه منها ونهروها أكثر من مرة.

- سبعون کشتالاً.

- يل خمسون كشتالا فقط.

مرّ "أنس" من أمامها، كان هو و "كلودة" يهربان خلف "أشرياً" وجميعهم يتلقّت باحثاً عن اللصوص هنا وهناك، ظهر وجه قبيح لأحدhem من بين الزحام ورفع رأسه يفتش بين الوجوه عن "أنس" دون أن يراه الأخير، فعلم "أنس" للتتو أنه مطلوب في القصر بالفعل ، فقد أخبر الملك رجاله أن من يأتيه برأس "أنس" سينال جائزة قيمة، دلف "أنس" و"كلودة" وسط الحشود التي كانت تلتف حول الفتيات يقلبن في وجوههن وأجسادهن بإلهانة ليشتروهن، وكانت "مرام" تضرب كلّ يد تمتد إليها، رأت "أنس" وحول عنقه القلادة التي أعطاها له جده وكانت جدتها قد أعطتها قلادة تشبهها فأدركت أنه هو، التفت حين ناداه شاب آخر لم تر وجهه جيداً وكان "كلودة" الذي صاح باسم "أنس" وسط السوق فتاكدت أنه هو، كان قد ابتعد فلم يسمع صوتها الضعيف، فانحنت وحملت حجرًا صغيرًا من على الأرض تحت قدميه وقدفته به، التفت ومرّ عليها دون أن يتوقف أمام وجهها، كان مشمسراً من جمع الفتيات بملابسهن العارية، انحنت مرة أخرى وحملت حجرًا أكبر حجماً

وقدفته فأصاب رأسه، التفت نحوها متألماً فاللتقت عيناهما، وجد أمامه فتاة جميلة وفاتنة وترتدي ثوبًا سافرًا من الحرير فأجفل ثم صرف نظره عنها وابتعد، فقدفته بحجر آخر في رأسه فانحني وتناوله ونظر إليها بغضب وتصميم ورمها به فأصابها في عينها فصرخت ألمًا ثم حاولت أن تنادي عليه وقالت بصوت ابتعلته ضوضاء الحشد حولها:

- اشتريني.. أرجوك.. ادفع ثمني.. لا تتركني.

لم يسمعها فحاولت أن تترك مكانها وتلحق به فصدها ذراع غليظ لأحد الحراس الذين كانوا يحيطون بها، عادت ل مكانها وكانت عينها تؤلمها بشدة، اختفى "أنس" بين جموع البشر في السوق وعادت تقف كالقط الغاضب تغز محالها في كل يدٍ تمتد لتمسك بها، كانت معركة شرسه تدور بينها وبين زبائن التاجر، حتى علا صوت الخيول، أفسح الناس فرجة بينهم فترجل أحدهم عن حصانه ومرّ بين الصفوف حتى وصل إلى التاجر الذي انحنى ليحييه بإجلال، وقف شاب قوي البنية له حضور قوي عليه ملابس تلقي بالأمراء، مرّ على وجود الفتيات بعينيه اليقظتين وتفحص نظراتهن بإمعان، اختار ثلاثة فتيات بارعات الجمال وجربت لا يستحبن من عرض أنفسهن، وعلى عكس المتوقع دومًا حيث كان لا يختار المنكسرات مثلها، جذبت "مَرَام" انتباذه حيث كانت تمزق النمارق الحريرية التي كان من المفترض أن تجلس عليها وتستند كباقي الفتيات، لكنها كانت تشقها وتغطي جسدها بقمامشها ودموعها تسيل على وجهتها، كانت ترتجع عندما اقترب منها ثم أشار عليها وعلى الفتيات الثلاثة، ثم ألقى بكيس ممتلي بالنقود للتاجر الذي تغيرت ملامحه عندما أمسك المال وطرب لصوت خشخته داخل الكيس، دفع الفتيات بقوسورة خلف الشاب الذي التفت عندما صرخت "مَرَام" عندما جذبوا الخرق الحريرية الممزقة التي كانت تغطي بها جسدها وخلع وشاحًا كان يرتديه فوق قميصه ولفها به فستر جسدها الضئيل كلّه فرفعته بحياة على رأسها، كان لديه بقايا خير وإن كانت قليلة، وأخيراً وجدت من يسرّها!

سارت خلفه مع الفتيات حتى خرجوا من السوق، عاد لحصانه وأشار لأحد رجاله الذي حملهن في عربة مغطاة تجرّها الخيول إلى هناك.... حيث قصر الملك "كمشاق" والأميرة "نَبَرَة"، كان "حليم" يزور السوق من آن لآخر ليشتري الإماء من النساء ويهدي لـ "كمشاق" أجملهن حتى يرضيه ويكسب

ودّه، ويدفع بعضهن للخدمة في مطبخ القصر حيث ينعمن بخيرات الملك والملكة إشافاً علمن، كان لديه مزاج من الخير والشر يموج في نفسه المضطربة بحب "نَبِرَة" الذي يطغى عليه ويفطر فؤاده، كان "حليم" يتفادى شراء الفتيات على شاكلة "مَرَام"، لكنّها على ضعف بنيتها كانت جميلة الوجه، فحازت على انتباهه بما كانت تفعله فرق لحالها وتعجب لأمرها.



- أريد أن أعمل بمطبخ القصر.

قالتها "مَرَام" بتصميم وهي تتوجع وتضع كفّها على عينها التي تورّمت بعد أن قذفها "أنس" بحجارة أصابتها فيها، كانت تقف أمام المسئولة عن شئون قصر الملك "كِمشاق" الذي يتولّه أكبقرى مملكة الجنوب، تلك القرية التي على أطرافها يعيش "كِلودة" حيث يستضيف "أنس" الذي كان مصير كتابه مجھوّلاً حتى تلك اللحظة، صرخت المسئولة وعنفت "مَرَام" وجهتها وأمرت بضمها لجواري الملك، سمعتها الأميرة "أُونِي" التي كانت تتسلّل من جناح الخدم في ثياب جارية من جوارها لتلتقي بحبيها في البستان، كانت تقف خلف عامود عريض يتولّل الساحة وتخفى وجهها بطرف غطاء رأسها الحريري عندما تناهى إلى سمعها صوت بكاء "مَرَام"، انصرفت المسئولة ومعها الجواري وتركت "مَرَام" وحدها تبكي، كانت تسير تجاه بوابة القصر عندما جذبتها الأميرة "أُونِي" نحوها وسألتها هامسة ولم يظهر له "مَرَام" منها سوى عينيها الكحليتين وبشرتها السمراء:

- ما اسمك؟

- "مَرَام"

- لا تخافي يا "مَرَام"، ستطلك الأميرة "أُونِي" وتضمه إلى جوارها، كفكفي دموعك ولا تحزني.

ثم انصرفت تلك الأميرة التي تختلف في طباعها عن شقيقتها "نَبِرَة" وشقيقها "كِمشاق" دون أن تكشف له "مَرَام" عن شخصيتها، وهرولت على

عجل وانسلت بين أشجار البستان المحيط بالقصر، كفكت "مراة" دموعها وتكورت وسكنت تنتظر وتترقب وتفكر في حالها وما آلت إليه.



- مولاي الملك "كمشاق"

قالها أحد الحراس بإجلال وهو ينحني أمام الملك باسطاً ذراعه باستعراض، هرّ الملك رأسه وبعيئيه استقرت نظرة ساخرة ملؤها الكبر والاستعلاء فقد كان يتلذذ بمراقبة حاشيته وهم يعاملونه بتلك الطريقة، قال بصوت رخيم وهو يلتقم حبات العنبر في فمه من يد جاريته الحسنة:

- ما الجديد؟

- وصل أحدهم يزعم أنه حصل على كتاب لأحد المحاربين، ويقول أنهم أسروه في الغابة.

اعتل الملك في جلسته حيث استيقظت كل جوارحة، ورفع يده بإيماءة تعني أن أدخله في الحال، كان "كمشاق" قد فاز بعدة جولات مع هؤلاء المحاربين، ما زال يعزز عرشه ومملكته بنشر بعض المعتقدات التي تخدم كيانه، كانت نصيحة الكهان له أن يقتنص كل فرصة ليمنع هؤلاء المحاربين من استرداد تلك الكتب التي يزعمون أنها لهم، لا سبيل إلا مراقبة المحاربين، فهم وحدهم يمررون من مكان لآخر، أما أهل القصرين، قصر "الحوراء" وقصر "كمشاق" لا يجرؤ أيٌ منها على دخول الغابة ولم يصل أحدهم إلى المكتبة العظيمة التي تقع خلف الجبل، أمجاد عظيمة تُسطر هناك، تاريخ يضم أسماء من منحوا البشرية الكثير من التجارب والعلوم والفنون والقصص، من بلاد شتى ومن جنسيات مختلفة، أما "كمشاق" ولأنه من أصل نوبي عريق فكان يهتم لتلك الكتب التي تحكي قصص الأمير "أواوا"، وأخيراً ستلتقي "الحوراء" ضربة تهزّ عرشها، يستطيع الآن أن يأمر أحد الكهان باستلام الكتاب لتملاً صفحاته بما يرضي نفسه ويرضيه ويعزز كيانه وسلطته ويخلد اسمه، صرف الجواري وجلس يعدل ثيابه الفاخرة، دلف كبير

اللصوص ومعه رفقاء، كانت رائحة القذارة تفوح منهم، انحنوا في إذلال أمامه
وقال كبيرهم:

- مولاي الملك، جئناك بهديّة.

- إن كانت كما ترمع فلك جائزة كبيرة

ابتسم فأسقطت ابتسامته اللثام عن أسنان صفراء حقّها القذارة من
أعلاها وأسفلها وقال بصوت أحش مت Hwyash:

- هذا كتاب لأحد المحاربين عثرنا عليه في الغابة وهو في طريقه إليكم.

تناول "كمشاق" الكتاب منه وقلب صفحاته الخالية، راوده شعور
بالاطمئنان عندما تأكد أن الكتاب لم يطلق سراح كلمة واحدة، ما زال أمامه
فرصة كبيرة، رفع رأسه ونظر ل الكبير اللصوص بازدراء وسأله:

- وأين هو المحارب؟

- ممم.. سحضره يا مولاي ولكن..

- ولكن ماذا؟

- نطبع في سخائك وكرمك، ولا أظنك ستبخّل علينا، أليس كذلك؟
قهقه الملك وانتفض وانتفض ورشقه بنظرة أوقع الرعب في نفسه، ثم
قال:

- أحضره أولاً ثم أرني وجهك هذا مرة أخرى.

ثم أردف وهو يثقبه بنظرة أخرى وقعت حيث وقعت الأولى فتراجع كبير
اللصوص مرتباً إثراها:

- وسيبقى الكتاب هنا حتى تعودوا به.

بخطي متعددة ونفس غاضبة، ودماء تغلي، ونظارات متقدة، انصرف
اللصوص عائدين إلى حيث تركوا "أنس" و"كلودة" في صحبة ثلاثة منهم، لا بد
أن يعودوا بهم للملك "كمشاق"، والذي كان يتآمل غلاف الكتاب ويقرأ عنوانه
في فضول:

- "إيكادولي"! لا بد أن يكون هذا الحب لي وحدي، فليحبني الجميع.



- تعالى، هيا أيتها الكسولة.

- ماذا تريدين؟

- طلبتك الأميرة "أونتي" لتكوني خادمتها الشخصية، أنت محظوظة يا فتاة! لولا عينك المتورمة تلك لكنني الآن بين يدي الملك "كمشاق"، لقد أنقذتك الأميرة.

وَقَعَتْ كُلَّمَاتِهَا بِضُحْكَةٍ خَبِيثَةٍ، كَانَتْ "مَرَام" تَضْغِطُ عَلَى ذَرَاعَهَا حَيْثُ قَرَصَتْهَا الْمَسْنُولَةُ وَهِيَ تَجْذِبُهَا مِنْ ذَرَاعَهَا، سَارَتْ وَرَاءَهَا بِهَدْوَهِ تَجَاهُ جَنَاحِ الْأَمْيَرَةِ "أُونْتِي" وَهِيَ تَحْبِسُ دَمْوعَهَا، أَصَابَهَا الْكَثِيرُ مِنَ الضَّرَبِ وَالْقَرْصِ مِنْذُ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِ الْعَجُوزِ "نَارِدِين" فِي الْغَابَةِ، لَمْ تَعْتَدْ عَلَى تَلْكَ العَدُوَانِيَّةِ وَلَمْ تَتَعَرَّضْ لَهَا خَلَالِ رَحْلَتِهَا مَعَ كَتَابَهَا "هِيلَا"، كَانَ الْأَمْرُ هَادِئًا رَغْمَ مَرْوَرِ أَبْطَالِ قَصْصَتِهَا بِبَعْضِ الْمَصَاعِبِ. مِنْذُ ظَهَورِ أَنْسِهَا هَذَا اَنْقَلَبَتِ الْأَمْرُورُ كُلُّهَا شَقَاءً، أَطْرَقَتِ فِي حَزْنٍ لَكُلِّهَا حِينَ تَذَكَّرَتْ أَنَّ وَرْمَ عَيْنِهَا أَنْقَذَهَا مِنْ أَشَدِ الْبَلَاءِ اَطْمَأَنَتْ وَعَلِمَتْ أَنَّ لَطْفَ اللَّهِ الْخَفِيِّ لَا تَجْزَعُ مَعَهُ الْقُلُوبُ. وَصَلَتْ أَخِيرًا حَيْثُ كَانَتِ الْأَمْيَرَةُ تَقْفَ في شَرْفَهَا وَتَتَأْمِلُ الْقَمَرَ فِي السَّمَاءِ، التَّفَتَتْ حِينَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَابْتَسَمَتْ بِلَطْفٍ، وَفَوْرًا أَنْصَرَتِ الْمَسْنُولَةَ أَسْرَعَتْ تَجَاهَ "مَرَام" وَوَضَعَتْ يَدَهَا بِحَنَانٍ عَلَى كَتْفَهَا وَقَالَتْ:

- هل أنت بخير؟

- بخير يا مولاتي

التَّفَتَتْ إِلَيْهَا "أُونْتِي" وَقَالَتْ بِإِشْفَاقٍ:

- افتحي هذا الصندوق وتخيري ما ترينيه مناسبًا لك من الملابس التي فيه.

أَسْرَعَتْ "مَرَام" الْتِي كَانَتْ لَا تَزَالْ تَتَلَحَّفُ بِوَشَاحٍ "حَلِيمٍ" الَّذِي لَفَهَا بِهِ عِنْدَمَا اشترَاهَا فِي السَّوقِ، تَعَجَّبَتْ "مَرَام" فَالثِّيَابُ فِي الصَّنْدُوقِ لَا تَنَاسِبُ

الأميرة ولا تشبه الرداء الذي ترتديه، أثرت الصمت وسحب رداء طويل الأكمام وسررواها واسعاً وارتدتها في الحال وخلعت الملابس الخليعة التي كانت عليها، تذكّرت نظرة "أنس" لها في السوق فأصابها الحزن، ذاك الشاب ظهرها فتاة سيئة، أمسكت بطرف الوشاح الذي كان عليها وبدأت تمسح الأصياغ على وجهها فالنفت الأميرة "أونقي" وضحكـت وهي تراقبها وقالـت:

- أليس هذا وشـاح "حـليم"؟

- نـعم هو، سـترني به وأـنا في السـوق.

لـاحت عـلى وجـه الأمـيرة ابـتسامة وهي تـقول:

- كـم هو شـهم! لا بد أنـه رـق لـحالـك، عـجيب أمر "حـليم" هـذا! يـتقلـب بين حـالـتين وكـأن النـهـار والـلـيل يـتعـاقـبـان فـيهـ!

- ماـذا تعـنـينـ؟

- أحـيـاناً يـكون طـيـباً وـحـنـونـا، وأـحـيـاناً يـكون غـلـيـظـاً فـظـاً!!!، أـتـعـلـمـينـ، لوـرـآـكـ تـمـسـحـينـ الأـصـيـاغـ بـهـ لـعـاقـبـكـ فـيـ الـحـالـ.

تمـهـدتـ "مـرامـ" وـقـالتـ:

- ماـأـنـا فـيـهـ هوـ عـقـابـ بـالـفـعـلـ، ليـتـيـ لـمـ أـكـنـ يـوـمـاً أـنـثـيـ!

- لمـ تـقـولـينـ هـذـاـ؟

- أـجـبـرـونـيـ عـلـىـ مـاـ لـاـ طـاقـةـ لـيـ بـهـ، خـلـعـواـ حـجـابـيـ، مـزـقـواـ حـيـائـيـ، هـتـكـواـ سـتـريـ... ليـتـيـ كـنـتـ رـجـلاـ.

وانـخرـطـتـ تـبـكـيـ بـنـشـيجـ مـسـمـوعـ فـرـقـتـ "أـونـقـيـ" لـحـالـهـاـ وـجـلـسـتـ بـجـوارـهـاـ تـهـدـئـ منـ روـعـهـاـ، ثـمـ سـأـلـهـاـ عـنـ قـصـتـهـاـ فـصـمـتـتـ "مـرامـ" هـنـيـةـ وـفـكـرـتـ هـلـ منـ الصـوـابـ أـنـ تـعـرـفـ الـأـمـيرـةـ بـقـصـتـهـاـ أـمـ لـاـ، فـضـلـتـ أـنـ تـكـنـمـ أـمـرـ كـوـنـهـاـ مـحـارـيـةـ، وـاستـأـنـفـتـ الـبـكـاءـ وـكـأـنـهـاـ لـاـ تـقـدـرـ عـلـىـ الـكـلـامـ حـتـىـ مـلـتـ الـأـمـيرـةـ وـعـادـتـ لـشـرـفـهـاـ تـنـأـمـ الـقـمـرـ فـيـ السـمـاءـ، كـانـتـ "أـونـقـيـ" سـاـهـمـةـ تـفـكـرـ فـيـ حـبـيـبـهـاـ، تـطـرـقـ طـوـيـلـاـ وـتـغـرـقـ فـيـ أـحـلـامـ يـقـظـتـهـاـ حـتـىـ أـنـهـاـ لـاـ تـشـعـرـ بـمـنـ حـوـلـهـاـ، أـدـرـكـتـ "مـرامـ" أـنـ وـرـاءـ تـلـكـ الـأـمـيرـةـ سـرـاـ مـاـ، قـرـرـتـ أـنـ تـتـجـلـدـ وـتـتـصـبـرـ لـعـلـهـاـ تـعـيـنـهـاـ عـلـىـ الـهـرـوبـ مـنـ ذـاكـ

القصر، كانت عينها تؤلمها بشدة، بدأ جفونها يزرق وبرز قليلاً، تذَكَّرتُ كيف كان "أنس" ينظر إلَيْها وهي تصوب الحجر تجاهها فاعتصر الحزن قلبها وغضبت منه، همسَت لنفسها وهي تعَدِّل وسادتها لتنام:

أَيُظْنِي بِغَيْرِ تَنَادِيهِ! يَوْمًا مَا سَأَنْتَقُمْ مِنْ هَذَا الْمَحَارِبُ الْأَحْمَقِ... وَالْمَغْرُورِ!



- "مرام"...استيقظي.

همست الأميرة "أونتي" في أذنها فانتصبت جالسة وبدأت تفرك عينها، اعتادت على الاستيقاظ في مكان يختلف عن بيتهما الذي ولدت فيه، اشتاقت لغرفتها وأمها، كادت تنسى سيرها وأشياءها الخاصة، التفتت فرأيت الأميرة "أونتي" وقد ارتدى ملابسًا بسيطة لا تليق بها كأميرة، سحبتها من يدها وهمسَت قبل أن يخرجها من جناح الأميرة الخاصّ بها:

- "مرام.. اخترتِك لأنني أدركت من اللحظة الأولى أنك لست من ذاك النوع من الفتيات الذي يبحث عنه أخي "كمشاق" وغيره، وأشعر أنك لست من هذا المكان.

ثم صمتت برهة وعبرت على ملامح "مرام" سريعاً، كانت طريقة "مرام" في الكلام عندما رأتها لأول مرة، ولهلعتها عندما ذكرت المسئولة أمر الجواري وما يفعلنه لإرضاء الملك، ودموعها التي كانت تناسب على وجنتهما، توحى بأنّها على استعداد أن تفعل أي شيء مقابل أن ينقذها أحدهم من هذا المأزق، رمقها بثقة وقالت:

- بقاوْك هنا في جنائي مرهون بإخلاصك لي، فأنا أحتاج لمن تكتم سريّ وتعيني، فقد سلبوني أفضل الجواري عندي ومن كانت تكتم سري، وطالما أثبتت ولاءك لي يا "مرام" سأحميك من كل رجال القصر.

سألتها "مرام" بتعجب:

- ولماذا سلبوك جاريتك المخلصة؟

- سأخبرك لاحقاً، أمّا الآن فغطي وجهك وسيري خلفي.

- إلى أين؟

انطلقت "أونقي" وخلفها "مَرَام" تتساءل في نفسها كيف ستستطيع تلك التي سُلّبت أقرب جواريها أن تحميها! بدأ القلق يستبد بها وأكملت سيرها واللوساوس تميشهما. كانت السماء ما زالت شاحبة، لا يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، انسابت بين أشجار البستان وخلفها "مَرَام" التي لا تدري أين تذهب بها الأميرة، بعد حين من الوقت وحيث غمر النور المكان بالتدريج وقفت تحت شجرة تنتظران، وسرعان ما ظهر شاب طويلاً القامة وقوياً البنية، أسرع تجاهه "أونقي"، كانت متلهفةً لرؤيتها للغاية، بدأت تتحدّث معه وتتبّعه هنا وهناك، بدا لـ"مَرَام" أن الأميرة تحاول جاهدة أن تغزوه وتراؤده عن نفسه.

فاستدارات "مرام" بانزعاج وكانت في حالة يرثى لها، أي سرّ هذا وما تلك المصيبة التي أشركتها فيها تلك الأميرة، وقفت تعتصر يديها بقلق، جاست بعينها في السماء تسأل الله لا يواخذها بما يحدث خلف ظهرها.



استيقظ "أنس" وكبح تثاؤباً وهو يبحث عن "كلودة" في الغرفة، يبدو أنه خرج من البيت! لم يدم انتظاره له فقد عاد سريعاً، كان في حالة من النشاط وكأنه لم يكن بنفس الروح التي كانت تبكي بالسوق أمس وهي منكسرة وكأنه قد غسل وجهه من الحزن وعاد بسخونة جديدة!

مرت ساعة الإفطار سريعاً وغادراً البيت حيث انصرف "كلودة" إلى دكانه بينما فارقه "أنس"، فقد قرر العودة إلى الغابة رئما يلتقي بالرمادي هناك ويسأله ما مصير كتابه! أو رئما يعثر على "شهاب". كان "أنس" يسير وعيناه على قمة الجبل يراقب الحلقة الحمراء التي تحيطه، كان الجو بارداً والرياح قوية، من آن لآخر كان يقف وينصتّ ويراقب الطريق بحذر، بدأ يقلب كل ما مرباه في رأسه، لا يدري بالتحديد كيف ستكون خطوطه القادمة، فالعجز "ناردين" أخبرته أن يعرض على كتابه ويراقبه من آن لآخر، ولكن أين الكتاب الآن!!

سكنت الرياح، وغمرته موجة من الدفء وهو يسبر، لم يتخيّل يوماً أنه

سيبتعد عن أسرته بتلك الطريقة، ولم يخطر بباله أنه سيكون يوماً وحيداً في عالم لا يعرف عنه أي شيء.

ظهر "شهاب" أمامه فجأة كما لو كان شبيحاً، حيّا بحضور وداعه لبيته، لم يتوقف "أنس" عن الأسئلة منذ أن رأته عيناه، أخبره أن الكتاب قد سُرق منه، أخبره بأمر "كلودة" و "أشرياً" والصغيرة، أنصت إليه "شهاب" ثم طمأنه، وأخبره أن الكتاب سيجد كلاماً وجده في المرة الأولى، سارا معاً على طريق معشوشبة طويلة، أطلَّ بيت "شهاب" في نهايته فتهلل وجه "أنس"، فالبنت يبدو مختلفاً عن كل ما شاهده منذ وصوله، فهو أقرب لعالمه الذي نشأ فيه، وأبعد عن تلك الأعاجيب التي يراها ويعيشها الآن. بدا "شهاب" سعيداً ومرحباً مع بناته الثلاثة، حتى زوجته بدت في حالة رائعة، وجه مشرقٌ عليه مسحة طيبةٍ وقسمات تنم عن نفسٍ مطمئنة، كانت البنات متلصقات بأمهن، واحدة تحضن ساقه اليسرى وكانت أقصرهن قامة، والأخرى تحضن جذعه وكانت تبدو كأنها تكبر شقيقهما بعامين، والثالثة كانت تمسلك بيده وتلك أكبرهن وأطولهن قامة، نفس الملامح، والشعر البني الحريري المجدول في ضفيرتين، حتى ألوان ثيابهن كانت متطابقة، وكأنهن نسخة تكررت وولدت ثلاث مرات في ثلاثة أعوام متفرقة، قال "شهاب" بترحاب شديد:

- هيّا يا "أنس"، أعدّت زوجتي طعاماً شهيّاً، انضم إلينا.

فتح "شهاب" باب البيت واجتاز الباب ومن خلفه بناته يقفزن حوله ووراءهن "أنس"، كانت النوافذ كلها مفتوحة، والغرفة تسبح في نور لطيف، وتفوح برائحة الطعام. اقتربت زوجة "شهاب" لتضيّف "أنس" وكانت قد أعدّت حساء الخضراوات اللذيذ والكثير من الفطائح الشهية، جلس "أنس" بين بنات "شهاب" الثلاثة وقد أصابته عدوى السعادة، كانت لديهن كفوف صغيرة وأنامل دقيقة، ووجوه جميلة. أصواتهن الرقيقة وضحكاتهن الجزلة جعلت الابتسامة لا تفارق وجهه، التفتت إليه أكبرهن وسألته:

- ما اسمك؟

- "أنس" وأنت؟

- "جمانة"

- اسمك جميل.

ثم التفتت لشقيقتها وقالت بحماس شديد وهي تشير إليهما بسبابتها:

- هذه أختي "جميلة" وتلك أختي "جويرية"، نحن الشقيقات الثلاثة "ج"
هل أنت صديق لأبي؟

ضحك "أنس" وقد أعجبته طريقتها في تقديم نفسها وشقيقتها له وقال:
- أظن ذلك.

ابتسم "شهاب" وقال بودّ:

- هو صديقي طبعاً يا "جمانة".

جذبته ابنته الصغرى من قميصه وقالت بكسل:

- أبي، لا تغب عن البيت كما فعلت هذه المرة، طال غيابك كثيراً.... أنا
أحبك يا أبي.

ضم "شهاب" ابنته إليه وغمراه شعور لا يهانى بالعرفان، طالعته بعذوبة،
ثم كبحت ثناؤها ووضعت رأسها على كتفه واستسلمت للنعمان.

بدأ "أنس" يتناول طعامه والسؤال يدور في رأسه، لماذا كان "شهاب" غائباً
عن بيته في الفترة الماضية؟، توقع "شهاب" ما يدور في رأسه فقال باهتمام:

- خلال الفترة الماضية كنت أرافق "محاربة" لحمايتها.

- ولماذا كنت تحميها؟

- لأن هناك كتاباً جديداً كان يولد على يديها، خشيت أن تتعرض للخطر،
كنت أتدخل بطريقتي الخاصة..

تبادل "شهاب" وزوجته النظارات عندما سألهما "أنس" بهدوء:

- لماذا لا تشيمون أهل النوبة؟ أنت وزوجتك وبناتك تختلفون في الملامح ولون
البشرة!

لاح شبح ابتسامة على شفتي "شهاب" وهو يقول:

- وماذا لاحظت أيضًا؟

- الملابس... تختلفون عن بعضكم البعض، رغم أنكم في مملكة واحدة ويبدو لي التنازع بينكم جليًا إلا أن هناك تباينًا من نوع ما، كل قرية تختلف عن الأخرى!

تبادل "شهاب" وزوجته نظرات أخرى تشي بالكثير، ولم يعلقا على ملاحظات "أنس" الذي أنهى تناول الحساء وشعر بالنعاس يداهمه، تحدّر جسده وكأنه قد تناول للتو منومًا، طلب من "شهاب" أن يسمح له بالنوم لأنّه يشعر بالإرهاق الشديد فقداده فورًا إلى غرفة أخرى، فقلولة بسيطة قد تفيده الآن.

هر "أنس" رأسه ثم استلقى على الفراش متعباً وظل يحملق في سقف الغرفة ويداه على الحقيقة بجواره، وكأنه يخشى أن يفقدها، ومضت ساعات نام فيها نوما عميقاً، ثم استيقظ ليجد نفسه تحت ظل شجرة ضوء الشمس الضعيف يتلاعب أمامه، وثب مذعورًا، أين "شهاب" وزوجته وبنياته! وأين البيت!!

هر رأسه ووقف حائراً، هل يكمل الطريق إلى الجبل أم يعود للقرية؟ كانت تلك اللحظات التي قضتها وحيداً تحت الشجرة من أصعب اللحظات التي قضتها منذ وصوله، كان يشعر أن رأسه يضطج بالتساؤلات، وكان أكثر الأسئلة ترددًا في رأسه، كيف سيسترد كتابه؟

قرر "أنس" أن يعود إلى القرية ومرّ على "كلودة" في دكانه والذي أخبره أن زوجة عمّه أرسلت إليها ابنته "أشريا" لتوصيمها أن يمرّ عليهم في الدار لتناول طعام الغداء.



(١٠)

في بيت أشريا

خلف النافذة وحيث كان البيت يعقب برائحة الطعام الشهي كانت "أشريا" تراقب الطريق وتتساءل، لماذا تأخر "كلودة"! كانت تنتظر وصوله بشغف هذه المرة، أشفقت عليه عندما تذكريت كيف كان مقيداً بلا قميص في هذا البرد، كانت تعلم أنه يعمرها، في كلّ مرة كان يطلبها للزواج كانت ترفضه، تتمنّع حتى يُصلح من حاله وتبقى على أمل أن يعود مرة أخرى، حيرت أباها من قبل والآن ازدادت حيرة أمها التي نادتها وهي تتأمل تمايلها خلف النافذة يميناً ويساراً وتتأرجح وتشتبّط على قدميها:

- لماذا ترفضين الزواج منه وهذا حالك!

- أمي.. كفي أرجوك عن ترديد هذا السؤال..

- ما بال هذا الشاب الذي أحضره معه؟

- ما باله؟

- هل سيقيم بيته "كلودة"؟

- يبدو هذا يا أمي.

لمحتهما "أشريا" من بعيد يقتربان، وبينما كان "كلودة" يمسح على صدره وكأنه يسكت قلبه الذي يكاد يقفر من بين ضلوعه، فهو سيكون بالقرب منها الآن، يتنفس نفس الهواء الذي تنفسه، همس وعلى وجهه أطلّت علامات القلق:

- سبحانك سبحانك، يا عالم السر والنحو!

دلفا على استحياء وجلسا بعد التحية بجوار أم "أشريا" ، بينما كانت "أشريا" تجلس بجوارها منكفة وكأنها غير موجودة، حيث كان كلّ منها يتوارى خجلًا من الآخر بينما كان "أنس" يتبادل الحوار مع أم "أشريا" التي سأله:

- أنت محارب إذن يا "أنس"

- يقولون هذا يا خالة، فما رأيك؟

قالت بفم ممتلي بالطعام:

- لو كنت محاربًا ما قيدك اللصوص بالحبال!

هزّ رأسه موافقًا وعلى وجهه ابتسامة وقال لها:

- صدقتك والله!

قالت "أشريا" التي كانت تلوك الطعام ببطء:

- أسئلة حتى متى سيظل المحاربون يفدون إلى قريتنا؟

أجابتها أمها وهي تنقل نظراتها بين وجوههم:

- لن ينقطع المحاربون عننا طالما الدنيا تهمس بالحكايا في الغابات، وتصبّ الرياح همسها في آذان البشر، وطالما هناك حيوانات تدون بين دفقي كتاب!

التفتوا جميعًا إليها في سكون، كان لكلامها سحر غريب، انتهوا من تناول طعامهم واستأذنوا "كلودة" وخرج من البيت ومعه "أنس" ، همس "كلودة" وهو يغلق الباب خلفه برفق وشروع:

- سبحانك سبحانك، اجب فؤادًا متعيًّا ليس له إلا باك.

باغته "أنس" يسأله:

- أخبرتني أنك ت يريد الزواج من "أشريا" ، لماذا لم تتزوجها؟

عقد "كلودة" يديه خلف ظهره وقال وهو يحدّق في الطريق أمامه:

- كلّما طلبتها للزواج امتنعت، وكأنّ هناك ما يحجّها عني ويحجّبني عنها.

- رِيْما لِهُوَانِك هَذَا عِنْدَمَا تَرَاهَا!

- أَيْ هُوَان؟

- أَرَاك مُنكسراً فِي حضورها، إِنْ حَدَّثْتَك تُرْجِعُ كَالْجَرْس، الْعَرْق يَغْطِي جَهْتَك
وَتَتَعَرَّفُ فِي الْكَلَمَاتِ.

- أَوْحَقَا هَذَا! أَتَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ كَذَلِك! كَانُوا يَصْفُونِي بِالْجَرِيءِ وَ...
- مَعْقُولٌ!.. أَنْتَ!

أَطْرَقَ "كَلْوَدَة" وَسَارَ صَامِيًّا لِدَقِيقَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ:

- أَنْدَرِي يا "أَنْس"، وَكَأْنَك بِقَوْلِك هَذَا رَفَعْتَ النِّقَابَ عَنِ الْكَثِيرِ مِنِ الْكَلَامِ
الَّذِي كَانَتْ زَوْجَةُ عَمِي تَحْدَثِي بِهِ، الْكَثِيرُ مِنِ الْهَمَزَاتِ وَاللَّمَزَاتِ
وَالْإِشَارَاتِ، لَمْ أَفْطِنْ إِلَيْهَا إِلَّا إِلَيْهَا وَكَانَ عَقْلِي كَانَ مَحْجُوبًا بِحِجَابِ!

- غَيْرُ مِنْ طَرِيقَتِك إِذْن .. تَجْمَلُ يَا فَقِي.
- كَيْفَ؟

- كَفَّ عَنِ الْلَّجْلَجَةِ وَالْتَّلْعَثِمِ وَأَنْتَ تَتَحدَّثُ إِلَيْهَا.
- أَنَا أَتَلْعَثُمْ !!

- نَعَمْ أَنْتَ تَتَلْعَثُمْ! تَنْفَسْ بِعُمْقٍ وَادْخُلْ مَرْفُوعَ الرَّأْسِ وَلَا تَحْنِهَا كَمَا تَفْعُلُ،
افْتَحْ صَدْرَك وَاجْلِسْ مُعْتَدِلًا، قَلْلُ كَلَامَك وَتَحْدَثُ عَلَى مَهْلٍ، لَيْسَ مِنْ
الضروري أَنْ تَذَهَّبَ كُلَّ يَوْمٍ، وَحَتَّى إِنْ أَرْدَتِ السُّؤَالَ عَنْهُمْ فَخَفَّفْ
وَانْصَرَفْ وَكَنْ عَزِيزًا وَلَا تَأْكُلْ إِلَّا لَوْ دَعَوكَ لِلطَّعَامِ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا تَحْطَ منْ
نَفْسِكَ عَنِّدَمَا تَحْكِيَ عَنْ مَشَاكِلِكَ فِي الدَّكَانِ، وَالْأَقْضِيلُ أَلَا تَحْكِمُهَا، وَلَا
تَذَهَّبَ بِمَلَابِسِ الْعَمَلِ، وَتَطْبِئَ فَالْطَّيْبَ رَسُولَ يَقْدِمُ لَكَ وَيُعْطِرُ حَضُورَكِ.

- اللَّهُ! اللَّهُ! أَرَاكَ حَكِيمًا يَا "أَنْس"، مَنْ أَيْنَ لَكَ بِهَذَا؟!

- مَنْ جَدِي الْحَبِيبُ، كَمْ أَشْتَاقُ إِلَيْهِ!
ثُمَّ التَّفَتَ "أَنْس" وَسَأَلَهُ:

- والآن..ماذا سأفعل يا "كلودة"؟ دبرني يا صديقي، كيف سأصل لكتابي؟
رفع "كلودة" يده وأشار إليه ليستدير معه وقال بحماس:
- سرتاح الليلة ثم نفكر غداً.

بخطي سريعة مضى كلاهما تجاه بيت "كلودة"، كانت المسافة كبيرة بين بيت "أشريا" وبيت "كلودة"، مرا خالل الطريق على سهول واسعة تتدرج في الارتفاع وكأنها درج يرتفق نحو السماء، يعلوها من بعيد قصر الملك "كمشاق" كان القصر يبدو كالجبل تحقق فوق قمةه الغربان، بينما تحيطه البساتين الخضراء الزاهية من كل الجهات.

"سبحانك سبحانك يا بديع الأكونان"
همس بها "كلودة" وهو يتأمل السهول وألوانها الرائعة، تمشي "أنس" بعينيه في السماء وسأله بفضول:

- لماذا يبدو الطقس هنا دوما وكأنها على وشك أن تمطر؟ وكأننا دوما في نهار الشتاء، الشمس باهتة، لست واثقا أنها أشترت، ولا تستطيع أن تنفي أنها هناك!

لم يجبه "كلودة" ، فهو لا يعلم!

من بعيد لاح بيت صغير يتوسط أرضاً واسعة وكان الناس قد هجروا تلك المنطقة النائية، دلفوا حيث بدأت الهررة الصغيرة تتحقق حولهما وكان "كلودة" يداعبهم بود صادق، انصرفت القطة وجلس "كلودة" مع "أنس" ، وقال فور أن استقر على المبعد أمامه:

- حراس المكتبة، ربما يعلمون شيئاً عن كتابك.

- سمعت عنهم من جدي، هل التقيت بهم من قبل يا "كلودة"؟
- نحن لا نجرؤ على الاقتراب منهم، لكنهم يرسلون إلى من آن لآخر يطلبون الجبر بألوانه، وغداً صباحاً سيمرون على رسولهم، فإن شئت أن تسأله عن الطريقة الصحيحة لاسترداد الكتاب فلذلك هذا.



وضعت "نيرة" الكأس على الطاولة وتناولت من أخيها الملك "كمشاق" كتاب "إيكادولي" ومررت بأناملها على الكلمة حرفاً حرفاً، تنهدت عندما تذكرت صورة "أنس"، أزعجها صوت أخيها عندما قال موجهاً كلامه لـ "حليم" بلهجة لا تقبل النقاش:

- فور أن يأتوني بالمحارب سنستدعي الكهنة ونبي الأمر في الحال.

قالت بتلعثم جعلهما يلتقطان إليها فليس من عادتها التلعثم:

- فلنسمع منه أولاً، لا داعي لقتله بتلك الطريقة التي اعتاد الكهنة فعلها بالمحاربين.

كانت "نيرة" تتلذذ بمراقبتهم وهم يتقبون قلب المحارب ويكتبون بدمه المراق ما يوافق أفكارهم حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولأن "حليم" يعرف عنها هذا تعجب في نفسه وسألها بفضول شديد :

- ولماذا؟

قالت وهي تعبث بخصلات شعرها الأبنوسى وتؤرجح ساقاً فوق الأخرى:

- يبدو الشاب مساملاً حتى الآن.

- هل رأيته مرّة أخرى؟

- نعم، هو الآن بصحبة شاب آخر من إحدى القرى حولنا، لكنني لا أعرف المكان، لم أر عالمة مميزة تكشف لي عن موقع البيت.... كما أن عنوان الكتاب مختلف، وأعجبني.

ثم قالت وهي تطالعه بعينيه الكحيلتين:

- "إيكادولي"

ارتبك "حليم"، ظل ينظر لها راجياً لكتها لم تعد النظر إليه، ظنها لانت له، لكتها نهضت فجأة وهي تحضرن الكتاب، وأخبرت شقيقها الملك أنها ستحتفظ به في غرفتها حتى يأتيه اللصوص بالمحارب، كان هناك شموع تبعث الضلال على الجدران، مررت "نيرة" على عجل فتكسرت الضلال للحظة وانكسر معها

قلب "حليم"، لكنه استعاد سريعاً رباطة جأشه.



واصل الرمادي التحليق فوق قصر "الحوراء"، كان قلقاً على زوجته "قطرة الدمع"، منذ عودتها بعد أن انقضت على اللص وهو يحاول اختطاف "مراام" في الغابة وهي في قصر الملكة "الحوراء" يط比ون جرحها فقد طعنها اللص بخنجر وكاد يكسر جناحها، على الشرفة وقف "الزاجل الأزرق" يراقبها وهي تستعد للتحليق مع زوجها، رفرفت بجناحها ثم انطلقت تحاول على آلامها حق تنضم لشريك حياتها الحبيب، كانت "الحوراء" ترقيهما من خلف كتف "الزاجل الأزرق" الذي التفت بعد أن ابتعدا وقال بإجلال:

- مولاتي، ماذا سنفعل الآن؟ "مراام" في خطر، ولا ندري أين "أنس" الآن، كيف سنساعدهما ونحن لا نستطيع دخول الغابة، كما أن الصقور لن تستطيع الوصول إلى قرى الجنوب إن كانوا قد وصلا إليها.

صمتت "الحوراء" هنمية ثم قالت:

- لا بد أن تذهب ومعك "المغايير" إلى المكتبة.

- ماذا! وكيف هذا! ومن يجرؤ؟

- لن تدخلوها ولكنكم ستنتظرون هناك.

- ننتظر ماذا؟

- وصول "أنس"!

- وما أدركك يا مولاتي أنه سيذهب إلى هناك؟

- ربما يذهب

- هل سمعت بالخبر؟

هرّت الملكة رأسها موافقة، فقد كان هذا سرّها الذي لا يعلمه إلا الحكيم

"سامي كول" و "الزاجل الأزرق"، فالرياح تحمل أخبار المحاربين إلى الحوراء وتهمس بها في أذنيها طوال الوقت، كانت تسمع أصواتهم، تختلط أحياناً بصوت امرأة عجوز تدعى "ناردين" لم تلتقيها أو ترها من قبل، لكنّها تسمعها وهي تهمس وسط الغابة، ودَّت لورأتها يوماً ما، لكن دخولها الغابة مستحيل! ليت الرياح تنقل كلامها إليهم، وإلى المحاربين، لكنّها كانت تحمل إليها أصواتهم هم فقط دون أن تحمل صوتها هي إليهم، كانت "الحوراء" تعاني من ذاك الأمر فهي تعيش صراعات طوال الوقت، لكن الرياح تراها أهلاً لحمل تلك الأمانة، غضّنت "الحوراء" حاجبيها وقالت بقلق:

- توقفت الرياح عن حمل أخبار "مَرَام" لي، أظّلّها فقدت بعض امتيازاتها كمحاربة، لا أدرى لماذا وكيف! ولكنها المرة الأولى التي يظلّ فيها محارب هنا بعد انتهاء مهمتها في استرداد كتابه وقد استعادت كتابها بالفعل، أو ربّما لأنّهما محاربان على أرضنا في آن واحد!

- إذن هي الآن أضعف؟

- نعم، وأصبحت أخبارها بعيدة عنّي، لم يبق لها سوى أن تحملها "قطرة الدمع" إلى موطنها.

- وهل فقدت جميع مميزاتها؟ كلّها!!!

- الله أعلم! ربّما هناك شيء ما ما زالت تحفظ به!

- يا إلهي! كيف سنساعدها؟

- لا أدرى، المهم الآن أن تنتظروا "أنس" خارج أسوار المكتبة، اسلكوا الطريق الطويل ودوروا حول الغابة من الجهة الشرقية، أعلم أنّها مشقة عليكم، ولكن لا بدّ من الوصول إليه ليعلم أن "مَرَام" دخلت الغابة من أجله فتعرضت للخطر، لا بدّ أن يساعدها بينما يسترد كتابه.

- ماذا!! هل فقد الكتاب؟

- نعم، سرقه اللصوص منه، وهو الآن مع شاب يدعى "كلودة"



كانت "مَرَام" تقف خلف الأميرة "أُونتي" والتي جلست مسترخية وأغمضت عينيها وغرت في أحلام يقطنها بينما كانت "مَرَام" تمشط لها شعرها بلطف وهدوء، ما زالت عينها تؤلمها، ربطها بقماشة بعد أن دهنتها بدهان أمدتها به طيبة القصر، كان الضوء يؤذنها في عينها ففضلت أن تغطيها حتى تبرأ وتختفي الظلال الزرقاء التي أحاطت بها، ترددت قبل أن تسأل الأميرة :

- لماذا لا تتزوجيه؟

انتفضت الأميرة وفتحت عينيها ثم التفتت إليها وقالت بحزن:

- أخضسي صوتك يا "مَرَام"، سبقتنا أخي لوعم بأمرنا، كما أنه لن يوافق على زواجي منه.

ثم عادت لحالتها وسلمتها رأسها بينما سلمت ما بداخل رأسها لعالم الخيال وقالت بتهدج:

- المهم أنه يحبني وأنا أحبّه.

- ولكن هذا لا يليق بأميرة، كما أنه...

- كل شيء مباح بأمر الحب

- حتى الخطيئة!

تمعّضت "أُونتي" وقالت بضيق تنفسها:

- لا شأن لك بهذا..لا تحشرني أنفك فيما لا يعنيك!

ران عليهما صمت ثقيل، كانت "أُونتي" تترقب رد فعل "مَرَام" على زجرها لها، سريعاً ما رقت لها في رجم أخطائها طيبة القلب تحن للبساطة، وكانت تشفق على "مَرَام"، قالت بعذوبة وكأنها لم تهراها منذ لحظات:

- الحب ليس خطيئة، الحب شيء جميل عنده قوي كالسحر يا "مَرَام"

- وهل هذا حبّ؟

استدارت "أُونتي" وأمسكت بذراع "مَرَام" لتجلسها أمامها وسألتها باهتمام:

- وماذا تعرفين عن الحب؟ هل أحببت من قبل؟

- لا..لا

- لا يعرف الحب إلا من يعانيه، لا تتحدى عن شيء لا تعرفي كنهه.

أشاحت "مَرَام" بنظراتها عن وجه "أُونتي" وقالت:

- تلك شهوة! لو أحبك حقاً ما استباحك إلا بالحلال!

على نحو سريع انزوت نظرة ساخطة في عيني "أُونتي" وقالت بحزن:

- من المستحيل أن يقبل أخي أن يزوجني له، فهو شاب بسيط يكاد لا يملك قوت يومه.

- وكيف التقييم؟

- كنت أهرب مع جاري وأرتدي ملابسها وأتنزه في البساتين حول القصر، فأخي كان يمنعني من الخروج، ورأيته مرات ومرات، وكان لأعيننا حديث ولننظراتنا اشتباكات، أعجبتني ملامحه وفتنه روحي، كان يخشى أن يحدّثني فذهبت إليه...وآه يا "مَرَام" من حديثه، إنه بلغ يجيد الكلام.

- طالما يحدث بينكم ما يحدث فالأولى أن تتزوجيه!

ردت "أُونتي" بمرارة:

- مستحيل! هو يعلم أنني أميرة فقد أخبرته، والآن ليس أمامنا إلا هذا!!

ثم أردفت ساحمة وهي تقول:

- أنا أعشّقه، عينيه ونظراته إلى، ونبرة صوته وهو يخبرني أنه يحبّني، همساته لي بالأشعار...

رفعت "مَرَام" كفّها وغضّت أذنيها وقالت بصوت خفيض:

- لا تُكملني أرجوكِ، ذاك ليس حبًا...ما تصفيه مجرد شهوة!! ليس من الضروري أن تدنسا الحب بأفعالهما، من الممكن أن يحبك دون أن يطفيء شمسك، دون أن يجرك في الوحل.

هرّت "أونقي" كتفها وقالت:

- تلك فطرة خلقها الله فينا، لا تزعمي أنك لا تستهيني الحب بتلك الطريقة،
لن أصدقك أبداً.. كاذبة أنتِ لو قلت غير هذا!!!

ثم رشقتها بنظرية ماكرة وقالت:

- أتعلمين، يوماً ما ستتعين في الحب، وستغرين حـد الصباـبة، وسأسمع
منك وقـها.. اصـبـري يا فـتـاةـ حتى يـصـبـ سـهـمـ الحـبـ شـغـافـ قـلـبـكـ.

ثم رفعت "أونقي" حاجبيـا وهي تـطـالـعـ عـيـنـيهـاـ، تـنـتـظـرـ أـثـرـ كـلـامـهـاـ عـلـمـهـاـ، صـمـتـتـ
"مـرامـ هـنـيـهـ" ثم قـالـتـ:

- الفضـيلـةـ تـتـطـلـبـ إـرـادـةـ قـوـيـةـ، فـإـنـ وـقـعـتـ فيـ الحـبـ يـوـمـاـ سـأـتـحـصـنـ
وـأـسـتـعـفـفـ حـتـىـ يـأـذـنـ اللـهـ، وـلـنـ أـخـطـئـ وـلـوـ كـانـ السـيفـ عـلـىـ رـقـبـيـ.

أعرضـتـ عـنـهاـ "أـونـقـيـ" وـهـرـتـ كـتـفـهـاـ وـهـيـ تـبـعـدـ عـنـهاـ، كـانـتـ "مـرامـ" مـرـتـبـكـةـ،
أـخـافـهـاـ الـكـلـمـاتـ، دـاهـمـتـهاـ وـسـاوـسـ نـفـسـهـاـ، أـحـقـاـ سـتـضـعـفـ لـوـ وـقـعـتـ فيـ الحـبـ
يـوـمـاـ مـاـ؟ـ هـلـ سـيـجـرـهـاـ الـحـبـ لـاـ يـرـضـيـ اللـهـ رـغـمـ أـنـهـاـ؟ـ
تـرـكـهـاـ "أـونـقـيـ" وـأـلـقـتـ بـرـأـسـهـاـ عـلـىـ وـسـادـهـاـ وـظـلـتـ تـحـمـلـقـ فيـ سـقـفـ الـغـرـفـةـ،
وـكـائـنـهـاـ فيـ عـالـمـ آـخـرـ بـعـيـدـاـ عـنـ "مـرامـ" الـتـيـ كـانـ أـلـمـ عـيـنـهـاـ يـزـدـادـ حـتـىـ أـنـهـاـ بـدـأـتـ
تـشـعـرـ بـصـدـاعـ شـدـيدـ.

بعد نحو ساعة وبينما تفتـشـ "أـونـقـيـ" بين حـلـمـهـاـ فـوـجـئـتـ باختفاء عـقـدـ ثـمـينـ
وعـزـيزـ عـلـمـهـاـ، خـرـجـتـ منـ غـرـفـتهاـ كـفـنـبـلـةـ عـلـىـ وـشـكـ الـانـفـجـارـ، وـاـتـجـهـتـ نحوـ
جـنـاحـ أـخـتـهاـ "نـبـرـةـ" فيـ الجـهـةـ الـأـخـرـىـ منـ القـصـرـ...

- أـينـ عـقـدـ أـمـيـ؟ـ

صـاحـتـ "أـونـقـيـ" بـغـضـبـ وـهـيـ تـدـفـعـ بـابـ جـنـاحـ شـقـيقـهـاـ "نـبـرـةـ" وـالـتـيـ كـانـتـ
دوـمـاـ قـاسـيـةـ عـلـيـهـاـ، كـلـمـاـ رـأـتـ المـسـكـيـنـةـ "أـونـقـيـ" تـسـتـمـتـعـ بـشـيءـ ماـ كـانـتـ تـسـلـيـهـاـ
إـيـاهـ، حـتـىـ الـحـلـوـيـ وـهـمـاـ صـغـيرـتـانـ كـانـتـ تـجـذـبـهـاـ مـنـ كـفـهـاـ الصـغـيرـ، عـنـدـمـاـ مـاتـتـ
أـمـهـاـ ظـلـنـ الـجـمـيعـ أـنـ "نـبـرـةـ" سـتـحـنـوـ عـلـىـ شـقـيقـهـاـ الـتـيـ تـصـفـرـهـاـ، لـكـنـهـاـ بـاتـتـ
تـتـحـكـمـ فـيـهـاـ وـكـائـنـهـاـ دـمـيـةـ صـغـيرـةـ وـرـثـهـاـ، ظـلـتـ "أـونـقـيـ" خـاضـعـةـ لـهـاـ حـتـىـ
تـكـبرـ، وـعـنـدـمـاـ بـلـغـتـ السـابـعـةـ عـشـرـةـ مـنـ عـمـرـهـاـ تـمـرـدـتـ عـلـهـاـ وـانـفـصـلـتـ عـنـهاـ

وأصبح شجارهما مستمراً لولا تدخل شقيقهما "كمشاق" الذي فصل بينهما في جناحين مستقلين حتى يهدأ القصر، تركت "أونتي" كل شيء لأنها، كانت لا تظرف في تلك الحفلات الصاخبة، تقوquet على نفسها وملأت الفراغات بعلاقتها مع البسطاء، كانت لها جارية تحبها وتطمئن إليها، سلبتها "نَبِرَة" تلك الجارية منذ أيام، وهذا هي قد أرسلتها اليوم لتحضر لها عقد أمها من خزانة "أونتي"، كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي تعذر به "أونتي" فقد ألبستها أمها ذلك العقد وطلبت منها أن تحتفظ به لتنذكراها، قالت "نَبِرَة" ساخرة منها:

- يقولون أن لديك جارية جديدة حمقاء تربط عينها بخرقة بالية، أصحى ذلك الخبر؟ أريد أن أراها!

- أين عقد أمي؟

ردت "نَبِرَة" وهي تتحسس العقد على رقبتها:

- ها هو... عقدك يا "أونتي"

استشاطت "أونتي" غضباً وهرولت تجاهها وحاوت أن تنزعه منها، لكن "نَبِرَة" غرزت أظافرها في ذراعها وأبعدتها بعنف قائلة لها:

- العقد لا يليق بك، اتركيه.

التفتت "أونتي" تجاه جاريتها التي طالما وثبتت فيها وأحببها، ورممتها بنظرية تقطر لوماً وعتاباً، وخرجت من الغرفة والدموع تترجح في مقلتيها. بعد ساعات من تلك العاصفة بينهما وحيث كانت "أونتي" غارقة في أحلام يقظتها أمام شرفتها كعادتها، دلفت الجارية على عجل وهمست متعدنة إلى أميرتها، كان الندم بادياً عليها وهي تعذر منها، احتضنتها طويلاً وكانت "مرام" تراقبهما في صمت. وقفـت "أونـتي" وهي تسترجع ما فعلـته به آخرـها "نَبِرَةـ"، خرجـت غاضـبة لتسـرد العـقد من جـناح آخرـها، دـلفـت فإذا الغـرـفة خـالية فـقد ذـهبـ الجميعـ إلى سـاحةـ القـصـرـ حيثـ كانـ الضـجـيجـ مـرـتفـعاـ فـهـنـاكـ حـفـلـ كـبـيرـ سـيمـتدـ حـتـىـ تـظـهـرـ الـخـيـوطـ الـأـوـلـىـ لـأشـعـةـ شـمـسـ الصـبـاحـ، فـتـشـتـتـ عنـ العـقدـ فـلمـ تـجـدـ فـأدـرـكتـ أـنـ أـخـتهاـ مـاـ زـالـتـ تـرـتـديـهـ. كـادـتـ تـنـصـرـفـ لـوـلـاـ أـنـ عـيـنـيهـ عـلـقـتاـ بـغـلـافـ كـتـابـ يـسـقـرـ عـلـىـ أـحـدـ رـفـوفـ خـزـانـةـ أـخـتهاـ، مـدـتـ يـدـهاـ وـأـمـسـكـتـهـ وـتـسـارـعـتـ دـقـاتـ قـلـبـهاـ عـنـدـمـاـ قـرـأـتـ عـنـوانـهـ، "إـيـكـادـوليـ"ـ...ـ أـحـبـكـ، تـصـفـحـتـهـ

فوجدت صفحاته خالية، تعجبت لخلوه من الكلام، لكنه ظلته شيئاً خاصاً بأختها، وطالما أخفته في خزانها فهو عزيز عليها، وتلك فرصة لكي تظهرها، أujeجها أن يكون هدية منها لحبيبها، هو بارع في الكتابة ويستطيع أن يكتب قصة حبها هنا، أخفته تحت ثيابها وعادت لغرفتها وشرعت تصنع منه شيئاً مميراً وخاصاً، قصّت أطراف ضفيرتها ووضعتها في داخله ثم أغلقته ووضعته تحت وسادتها، ثم ذهبت لتهمس في أذن "مرام" التي كانت متكونة على الأرض في ركن الغرفة ووجهها مواجه للحائط حيث كانت تنام بجوار فراش الأميرة وتحت قدميها تماماً كالليلة الماضية، أخبرتها "أونتي" أن تستعد فهي ستوقظها بعد طلوع الفجر لتصحبها للمرة الثانية للقاء حبيبها، ثم سلمت رأسها للوسادة حيث بدأ التحديق مرة أخرى في سقف الغرفة، وغرقت سريعاً في أحلام يقطنها، بينما كانت "مرام" تبكي وتخفي عبراتها وتدفنه في وسادتها، لولا عبرات خفية لانقطعت الأنفاس.

في مكان آخر وفي طرقات القرية، كان "أنس" يسير بجوار "كلودة" حيث مرّا أمام بيت "أشريا"، هدأ "كلودة" من خطواته، والتفت تجاهه "أنس"، كاد يخبره أنهما سيمزان على بيت عمّه ليطمئن على "أشريا"، ودأ أن يكون ولو لحظة بالقرب من ابنة عمّه الغالية والتي ملكت فؤاده، لم يكن جائعاً كما تظن زوجة عمّه أحياناً! تذكر ما أخبره به "أنس" من نصائح جده لكي يكون مرغوباً من الناس، قرر أن يخفف من زياراته، وأن يكون عزيزاً، أسرع بخطواته ورفع رأسه وفتح صدره، ابتسم "أنس" وهو يتبع مشيته، همس "كلودة" بعد أن ابتعدا عن البيت وقد عاد يسير متكوناً على نفسه بانكسارٍ:

- سبحانك سبحانك، يا من وسع ملكه ارحم من ضاق صدره!

كانت "أشريا" تقف خلف النافذة حيث كانت تراقب الطريق وتشتبّ على قدميهما لتباعهما، تأرجحت بقامتها القصيرة على نحو خفيف، لم يمر "كلودة" كعادته! ما الذي تغير فغيّره عليها!



(١١)

هدية الحبيب

بنغ الفجر قبلة في ثغر الصباح الباسم فكشف اللثام عن سحب بيضاء مرقصة كعقد من اللؤلؤ يزين السماء، كانت "مراٰم" تهرون خلف الأميرة "أونتي" تتسللان خارج القصر، وكانت "أونتي" تحضن كتاب "إيكادولي" والذي قررت أن تهديه لحبيها بعد أن لفته بثوب من حرير يخصها كانت قد عطرته بعطرها المفضل، انسابت الفتاتان بين الأشجار ووقفتا في البستان تنتظران ظهور حبيب الأميرة، باعتها "مراٰم" سائلة إياها بعد أن كبحت تثاؤبًا وعدلت ربطاً عينها التي ما زالت تؤلمها:

- ما هذا؟

- هدية لحبيبي.

- لماذا تلتقيان مبكراً في ذاك الوقت؟

- لا أستطيع أن أقابله تحت ستار الليل، البومة البيضاء تحلق طوال الليل في البستان.

- أتخافين البووم؟

- بل أخاف أخي "نَبَرَة"!

- ماذا تعنين؟

- أخي "نَبَرَة" منذ ولادتها مسحورة!

- كيف؟

- لدّهَا بومَةٍ ترى بعينيهَا رؤى متفرقةٍ في ظلام الليل، كُلَّما تجولت البومَة تحت جنح الليل ونظرت هنا وهناك ترى أختي ما تراه، يقولون إنَّها موهبة وهبَت إِيَّاهَا، لكنني أراها لا تستحق موهبة، فلديها قلب أسود أظْلَهَا مسحورةً!

همِمَتْ "مَرَام" بضيق:

- تخافين أن تراكِ بومَةً أختك ولا تخافين الله!

تجاهلتها "أوني"، وكأنَّها لم تسمعها، كانت الكلمات لا تقع في مرماتها، لم تتأثر ولم يرف لها جفن، ورغم هذا.. كانت العلاقة بينهما تتنامي كصداقتين لا كأميرة وجاريتها، فالفارق بينهما عام واحد، كما أن "أوني" كانت تحتاج لصديقة.

من بعيد تحركت أغصان الأشجار وأطلَّ الشاب من بينها وهو يتلفَّت يمنة ويسرة، هرولت "أوني" تجاهه وعناقته فاستدارت "مَرَام" على الفور قبل أن يُخُدِّش حياؤها وجلست تراقب الطريق، كانت تفكَّر في طريقة تهرب بها من ذاك القصر، وتلك الصحبة التي أجبرت عليها وهي تكرهها، مَرَّ الوقت ثقيلًا عليها، انتهى اللقاء وحمل الحبيب العاشق هديَّته وانصرف وهو يحتضن الثوب الحريري ويشم العطر الذي أغرقته الأميرة به، اختفى ومعه الكتاب، وعادت الفتاتان إلى القصر.



على باب الدار وهو ينتعل حذاءه وقف "كلودة" وقد بدا الإلهاق على محيَّاه وسأل "أنس":

- أتراها غضبت لأنني لم أمر عليها أمس.

- ولماذا ستغضب "أشريا" منك يا "كلودة"، هل كنت على موعد معها أو وعدتها بذلك؟

- لا، لكنني أخشى أن تكون قد غضبت.

- لا تقلق، لو سألك ماذا لم تمر علينا أخبرها أنت لم ترغب في إزعاجها.
هـ "كلودة" رأسه موافقاً ثم قال بخفوت:

- لم أذق طعم النوم، كنت أفكـر في كلامكـ، لقد عشت أيامـاً ثقـالـاً ولقد
رأـتني "أشـريـاـ" في حال لا تـسـرـ.

- كيف هذا؟

- عندما مات أبي، كنت فـقـيرـاً مشـقـوقـ الثـيـابـ، حـافـيـ الأـقـدـامـ أـبـلـىـ أـدـيمـ
الأـرـضـ كـعـوبـيـ وـأـصـابـعـيـ، لم أـنـتـبـهـ لـمـظـهـرـيـ هـذـاـ، ولم أـحـاـوـلـ تـعـدـيلـهـ، لأنـيـ
لم أـظـنـ يـوـمـاـ أـنـ الـفـقـرـ مـعـرـّـةـ لـصـقـتـ بـيـ، كـنـتـ أـرـانـيـ أـرـفـلـ بـالـنـعـمـ، وـكـنـتـ
أـتـرـدـ عـلـمـمـ فـيـ تـلـكـ الـحـالـةـ، أـتـعـلـلـ بـأـيـ شـيـءـ لـفـرـاهـاـ، أـجـلـسـ حـتـىـ يـمـلـّـواـ مـنـيـ
فـأـنـصـرـفـ، أـتـرـاهـاـ كـرـهـتـيـ لـهـذـاـ؟

- لا تـغـلـلـ نـفـسـكـ بـتـلـكـ الـطـرـيـقـ! إنـ خـاطـبـتـ نـفـسـكـ بـضـعـفـ فـسـتـبـقـيـ
ضـعـيـفـاـ، وإنـ خـاطـبـتـهـاـ بـقـوـةـ فـسـتـكـونـ قـوـيـاـ، النـاسـ لـهـاـ الـحـاضـرـ، وـهـمـ يـرـونـكـ
كـمـاـ تـعـاـمـلـ نـفـسـكـ، أـنـتـ الـآنـ عـطـّـارـ مـاهـرـ وـلـكـ دـكـانـ خـاصـ بـكـ، اـهـتمـ
بنـفـسـكـ وـثـقـ فيـ ذـاتـكـ.

- حـسـنـاـ سـأـفـعـلـ يـاـ "أنـسـ"

ثمـ سـكـتـ هـنـيـةـ وـأـضـافـ:

- أـتـدـريـ يـاـ "أنـسـ"، أـنـاـ لـاـ أـسـتـحـقـهـاـ، "أشـريـاـ" نـقـيـةـ... أـمـاـ أـنـاـ...

- تـوـقـفـ عنـ اـزـدـراءـ نـفـسـكـ

- أـنـتـ لـاـ تـعـرـفـيـ يـاـ "أنـسـ"... أـنـاـ لـاـ شـيـءـ لـوـلاـ سـتـرـرـيـ

- كـلـنـاـ كـذـلـكـ

مـرـ الـوقـتـ وـانـشـغـلـ كـلـاهـمـاـ عـنـ الـآخـرـ، كـانـ "أنـسـ" قدـ بدـأـ يـأـلـفـ المـكـانـ
ويـتـعـرـفـ عـلـىـ تـلـكـ التـفـاصـيلـ الصـغـيرـةـ فـيـ الـقـرـيـةـ، غـادـرـ بـيـتـ "كـلـودـةـ" وـسـارـ قـلـيـاـ
يـتـأـمـلـ السـوـقـ وـكـلـ ماـ فـيـهـ، مـرـ عـلـىـ حـانـوـتـ الـكـتـبـ فـيـ الـطـرـيقـ، ثـمـ عـادـ إـلـىـ بـيـتـ
"كـلـودـةـ" حـيـثـ اـسـتـقـبـلـتـهـ الـهـرـدـةـ وـهـيـ تـمـسـحـ بـقـدـمـيـهـ، كـانـ قـدـرـ كـبـيرـ يـغـليـ بـيـنـماـ

كان "كلودة" يضع فيه شيئاً ما، عندما اقترب "أنس" وحياته قال متعجبًا:

- ديدان!! أتطبخ الديدان؟

قهقهه "كلودة" وقال وهو يقلب الديدان التي أضافها إلى القدر وهو يغلي:

- هكذا أعد اللون الأحمر، أستخدمه في الصباغة، ويطلبه التجار مني، كما
أني أصنع الحبر الأحمر وأركزه بنفس الطريقة.

قل "أنس" باشمئزاز:

- من الدود!!

- نعم، فتلك الديدان تفرز عصارات خاصة، أجمعها من فوق أشجار
العفص والبلوط، أضيف إليها لحاء شجرة البلوط نفسه مع بعض
الأملاح الحامضة.

شعر "أنس" برعشة تجتاح جسده، كان مشتمئراً للغاية وهو يراقب
الديدان المجنحة وهي تغلي، كان كلاماً على السائل في القدر ازداد اللون الأحمر
قتماماً، لاحظ "كلودة" انزعاجه فابتسم قاتلاً:

- لا تحزن هكذا يا صديقي، أحياناً أستخدم الرمان.

سارا معًا تجاه قدر آخر، كانت رائحة الكركم تفوح منه، تعرف "أنس" على
رائحته في الحال، قال وهو يحاول تقليل منقوع زهور الكركم في القدر:

- اللون الأصفر النهبي، ما أروعه.

بدأ "أنس" يتلفت يمنة ويسرة ويراقب القدور وهي تغلي، والأوعية وما
تحويها من مساحيق الألوان الزاهية، والزجاجات الممتلئة بالأصباغ والأخبار
السائلة هنا وهناك، مرّ بعينيه حيث كان مسحوق حجر اللازورد الأزرق يملأ
وعاء، بينما امتلاً آخر بمسحوق أسود، وبجوارهما الأصفر والأحمر، وجد
نفسه يتحدث بطريقة "كلودة" التي كان يتحدث بها عندما التقى به

أول مرة فقال بصوت مسموع:

- سبحانك سبحانك ما أجمل الألوان!

التفت يراقب الأفق ثم سأله "كلودة" باهتمام:

- متى سيأتي ذاك المسؤول الذي أخبرتني أنه سيشتري منك الأخبار؟
- ربما اليوم وربما غداً، إن لم يأت اليوم فلك أن تبكي معي.

ثم سأله "أنس" عن الكتاب الذي اشتراه أمس من الحانوت حيث التقى به هناك، تهمل وجه "كلودة"، فهو عاشق للكتب، أشار إليه ليتبعه وسارا نحو غرفته، أخرج له صندوقاً ممتلئاً بالكتب، جلس يحدّثه عن كلّ كتاب، كان الشاب يقرأ في مجالات مختلفة، بدا واسع الاطلاع ومثقفاً وأديباً، حقّ أنه ألقى على سمع "أنس" البعض من أشعاره، قلب "أنس" في الكتب وكان متعجبًا من روعة الخطوط فيها، أن يكون الكتاب مخطوطاً بيد كاتب يختلف عن أن يكون مجرد صورة مطبوعة بالآلة من الوقت وهمما يتحدثان عن ذاك الكتاب، وذاك، وذاك، أتعجب "أنس" بشخصية "كلودة"، فهو شاب ذكي واسع الاطلاع، يصبر على الحياة، جاد ومجتهد يعتمد على نفسه. لكنه قليل الأصدقاء، خيّم الظلام عليهم ولم يظهر ذاك الرجل الذي زعم "كلودة" أنه سيشتري الأخبار لكتاب المكتبة العظيمة.

تركه "كلودة" ليحضر شيئاً ما، فخرج "أنس" من الغرفة إلى الساحة الواسعة أمام البيت وجلس يتأمل حفنة من النجوم كانت تزيّن السماء، بينما عاد "كلودة" إلى غرفته مرة أخرى ومدّ يده تحت الوسادة، وأخرج الهدية التي أهدتها له "أونتي" بحرص، أخرج الكتاب وقد كان قد بدأ يكتب فيه بنفسه شيئاً ما، أضاف سطراً وكتبه بخط جلي واضح وباتقان شديد، ثم أعاد كتاب "إيكادولي" الذي أهدته له "أونتي" حيث كان يخفيه، بعد أن لفّه بثوبها مرة أخرى!

كيف يتارجح القلب بين فتاتين؟ وكيف تستفاق روح واحدة إلهمما في آن واحد! وكيف يكثر "كلودة" من التسبّح أمام الناس ويقع في تلك الذلة بين أشجار البستان حيث يلتقي بالأميرة؟ لو انكشف المستور وعلم "أنس" بذلك السرّ لانصرف عنه وهجره في الحال!

من بعيد وبينما كان "أنس" يراقب السماء لاح شبح يقترب، كانت الجميلة "أشرياً"، تهرون على الطريق ويهرون أمامها قليلاً، تتلحف بثوبها الفضفاض

وتمشي على استحياء، فقد لاحظت أن "كلودة" لم يمر على دارهم وقت الغذاء وهذا ليس من عادته! حملت الطعام له لأول مرة، في كلمات مقتضبة ومعدودة سلّمت من بعيد وأعطته الطعام وعادت تجر خلفها قلها وهو يتلفّت، كانت تتعدّب في صمت.

أقبل المساء، وبات الشابان على العشب الندي حيث كانت الليلة دافئة، وبعد أن تناولا الطعام الشهي كانا يعقدان كفوفهما خلف رأسهما ويتأملان صفحة السماء وكلّ منهما يسبح في عالمه الخاص.



أخيراً انتهت الوصيفات من إزالة الحناء عن أقدام "تبة"، كانت مستلقية باسترخاء تستمتع بتدليك طيبة القصر لجيئها بدهان زتي منعش وقوى الرائحة، فقد أصابها صداع شديد بعد ذاك الحفل الذي امتد حتى أطل الصباح وانصرف الجميع منه يترنحون، كانت قد نسيت أمر كتاب "إيكادولي" الذي لم تكتشف اختفاءه بعد، فقد كانت تئن من ألم رأسها طوال اليوم، وبعد مرور يوم كامل على اختفائه، صرخت "تبة" فاهترت نوافذ القصر وارتبك الجميع...

- أين الكتاب؟

سألتهم بغضب شديد كالمجنونة، وبدأ الجميع يفتح بارتباك، أدركت "أونتي" أنها سرقت من أخيها شيئاً ذا قيمة كبيرة بالنسبة إليها فشعرت بنشوة الانتصار، لكن جاريها القديمة والمخلصة إليها التي سلبتها إياها "تبة" جعلتها ترجف وهي تهrol إليها وتسأليها بلهج إن كانت قد أخذت هذا الكتاب أم لا.

وما أنكرت "أونتي" ركضت الجارية نحو الحراس تخبرهم أن يفتحوا كل غرف القصر، فارتبتكت "أونتي" أكثر وأدركت أن الأمر أكبر مما تخيل، وقفت تفرض أظافرها وتفكر سريعاً ودقّات قلبها تتواتي كطبول الحرب، عادت "أونتي" لغرفتها بعد أن اهتدت لفكرة وأمسكت بذراع "مراام" الذي لم تكن على علم بمحتوى الهدية، لكن قد خمنت من هيئتها أنها كتاب لكنها لم تخيل أنه كتاب المحارب الجديد "أنس" والذي كانت تتبعه، وقالت لها بصوت مرتعش:

- "مَرَام" اخرجي الآن من القصر وادهي إلى البستان الذي أصحبك إليه، وحدّري "كلودة"، أخبريه أن يخلّص من الهدية في الحال، ولا تعودي فأنّت حرّة.

ارتبتكت "مَرَام" وطالعها بذهول وقالت:

- أحّمًا أنا حرّة!!

- نعم، أخرجي فورًا وهو سيدلك على الطريق إلى القرى القريبة، اهربِي يا "مَرَام".

- ولكن لماذا فجأةً! وما تلك الصّفحة بالقصر؟ ومن التي تصرخ؟

- إنّها أخي "نَبْرَة"، أرجوك يا "مَرَام" اخرجي حالاً واهربِي.

ثم التفتت "أُونقي" وأخرجت كيساً ممتلئاً بالنقود وأعطته لها وقالت بجدّية:

- حذّري "كلودة" أخبريه ألا يأتي إلا بعد أسبوع من اليوم.

- وكيف سأعرف الطريق لبيته؟

- أخبرني أكثر من مرة أني لو سرت في خط مستقيم تجاه الشرق وهبطت مع السهول تدريجيا دون أن أحيد عن استقامة خطاي، سأجد بيته وحيداً وسط ساحة واسعة، لكنني لم أذهب يوماً إليه، كان هو من يأتيني فقد التقى به بين أشجار البلوط المنتشرة على مقربةٍ منا.

ثم عانقتها بقوّة وأدارتها بعنف من كتفها وسارت خلفها تدفعها في ظهرها لتحرّك وقالت:

- لو رأتك "نَبْرَة" ستأخذك مفي، وربما تبيّن الليلة حيث لا ترغبين، وفي حضن من تكرهين، وعلى حال لا ترضينها.

ادركت "مَرَام" أنّها في خطر وركضت وهي تخفي وجهها كحمامة ضالّة تاهت بين الأشجار، وانطلقت تجاه ذاك المكان حيث كانت "أُونقي" تلتقي بحبيبيها "كلودة" لتحذّره ليخلّص من الهدية، وتسيّر معه هاربة من القصر

ومن فيه. بينما كانت "أونتي" ترتيب الكلمات في رأسها استعداداً للمواجهة مع أختها "نيرة".



كان "أنس" يراقب "كلودة" وهو يذيب مسحوق حجر اللازورد ليعد اللون الأزرق ثم يذيبه في سائل ما ليعدّ الحبر ويصبّه في زجاجات رفيعة، قال وما زالت عيناه مثبتتين على يدي صديقه:

- لم يأت من يشتري الحبر يا "كلودة".
 - وأظنه لن يأتي اليوم، فهو لا يظهر إلا في وقت مبكر جداً، انتظر غداً.
 - ثم أردد "كلودة":
 - لا بدّ أن أذهب إلى الدكّان، هيا تعال معي.
- كان جلياً على "كلودة" أنه بدأ يتعلّق بـ"أنس"، فهو يأنس به ويميل إليه، أمّا "أنس" فقد كان شارداً يفكّر، وبعد لحظات كان قد اتخاذ قراراً حيث قال:
- سأذهب إلى المكتبة.
 - ماذ؟!

- أنت هالك لا محالة، هذا خطر عظيم.

- لماذا؟

- لم نسمع أن أحدّهم قد ذهب إلى هناك ثُمّ عاد.
- سأعود إن شاء الله.

وثب "أنس" وبعد أن ودعه غير مبالٍ بتحذيراته انطلق يسير تجاه المكتبة العظيّي، باحثاً عن أي علامة تدلّه على سبيل لاسترداد كتابه وإكمال مهمته ليعود لبيته وأسرته، لم يكن على علم أن كتابه ملفوّف بعنابة بثوب من حرير تفوح منه رائحة العطر تحت وسادة "كلودة"، وفور أن انسل بقامته بين

الأشجار، وبينما يستعد "كلودة" للرحيل، ظهرت "مَرَام" وهي تركض تجاه بيته تعبرت فتدحرجت على تلة يغطيها العشب الأخضر حتى استقر جسدها أسفلها، قامت تعرج في مشيتها، وكانت ما زالت تربط عينها، مر يومان منذ جرحها "أنس" وما زالت تؤلمها، فقد تسبب الدهان الذي طببتها به طبيبة القصر في التهابها ولم تتحسن حالتها.

وصلت أخيراً ووقفت أمام "كلودة" الذي عرفها من ملابسها ومن رباط عينها فقد كان يراها بصحبة الأميرة "أونتي"، قال مرتاتاً في أمرها:

- أنت "مَرَام"؟

- أتعرف اسمي؟

- نعم.. أخبرتني "أونتي"، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- الأميرة "أونتي" طلبت ميً أن أحذرك.

- مم؟

- لا بد أن تخلص من هديتها لك في الحال.

- لماذا؟

- لا أعرف، كما أنها تطلب منك ألا تذهب للقائهم مرة أخرى.

- عودي فأخبرها ألا تقلق، فقد انتهى أمر الهدية، وأخبرها أيضاً أنني لا أريد....

- لن أعود!

- كيف؟

- لقد منحتني الأميرة حريقي، وأخبرتني أنك ستدلي على القرية، أرجوك ساعدني ، لوراني الحراس سيعيدونني إلى هناك.

جلست "مَرَام" أمام الدار ترتجف، عاد "كلودة" إلى غرفته وسحب الهدية وهي ملفوفة بالثوب العريفي وقام بدفع الكتاب تحت شجرة خلف بيته في

صندوق مع العديد من الكتب القيمة التي كان يحتفظ بها، وغطاء بالتراب ثم بأغصان الأشجار، وعاد فألقى بالثوب في النار التي كان يستخدمها بعد أن بله بزيت ما فالتهمه اللهب في الحال، كان يمسك في يده تلك الصفيحة التي قصّتها "أونقي" من شعرها ووضعتها له بين دفتي الكتاب، ألقاها في النار ووقف يراقبها وهي تحرق، في تلك اللحظة كانت رائحة الحريق أحب إليه من عطرها!

قرر أن يصحب "مراام" لقرية ويتركها سريعاً، فلو التقت به "أشريا" وأخبرتها بأمر الأميرة "أونقي" ستفسد عليه حياته، سار "كلودة" غاضباً، ماذا سيقول لـ"أشريا" لورأته عائداً ومعه فتاة لا بد أنها ستعذّب.

كانت "مراام" تسير خلفه في صمت وقد تعرفت الآن عليه، فلامامه لم تكن ظاهرة لها عندما كانت تقف بعيداً عنه وعن "أونقي"، الآن اتضحت لها عندما اقتربت منه، إنه ذاك الشاب الذي رأته في السوق يركض مع فتاة وينادي على "أنس"، لم يترك لها الفرصة لتحدث إليه، كان يسير غاضباً بسرعة بينما كانت هي منهكة من طول ركضها بين السهول هاربة من القصر، طالت المسافة بينهما وكانت تسير خلفه وتراه من بعيد وهو يلتفت من آن لآخر ليتأكد أنها تتبعه، كانت تناديه وهو يتتجاهلها، أرادت أن تسأله عن "أنس"، وأراد هو أن يتخلص من صحبتها سريعاً حتى لا ينكشف أمره.



الخنجر!

كان الجو يزداد برودة كلما تقدم "أنس" في طريقه إلى المكتبة، حيث أخبره "كلودة" أنها تقع خارج حدود القرية في منطقة نائية وحدها، تفصلها عن القرى عدّة بساتين، فضل أن يركض بين كل بستان وآخر مستمتعًا بممر الهواء البارد على وجهه، مجرد شعوره بالبرد أو الألم يجعله على يقين أنه ما زال على قيد الحياة!

كانت تتنابه اللهفة إلى مغازلة الخطر، بدأ حسن المغامرة يموج في صدره. قرر أن يتوجّل ويغامر بشكل أكبر، لا بد أن يحتك بالناس بشكل أعمق وربما يستفّرّهم قليلاً، كانت تلك إحدى طرقه التي قرر أن يسلكها لكي يحسن معها بأنه على قيد الحياة وأن ذلك ليس حلمًا يعيش في أوهامه. كان شوّقه لبيته وأبيه وأمه، وأخته، وجده قد بلغ أقصاه. ساعدته سيره على صفاء ذهنه، وما أحوجه الآن لصفاء الذهن. مرّ وقت طويٍ وهو يتمسّى في عدّة بساتين، ولم تظهر المكتبة بعد!

قاد بيأسه ويعود من حيث جاء، لكنه قرر أن يجلس قليلاً ويفكر بهدوء. أخرج ما بحقيبته من تمر أمده به "كلودة" قبل أن يترك بيته، وبدأ يأكل التمر وكان يحتفظ بالنوبيات في كفه، برز أمامه من حقيبته الخنجر الذي أعطاوه له جده، أمسكه وتفحّصه بإمعان، ثم ثبّ واقفًا يحركه ويولجه في طبقات الهواء هنا وهناك وكأنه يقاتل شيئاً ما، لا بأس ببعض اللعب أحياناً، ظلّ يحركه يمينًا ويسارًا وفي خطين متتاظعين، ثم قال بصوت مسموع وهو يحرّكه وهو يتذكّر مواجهته للصوص وللمجاهمين:

- ليتني أعود إلى الغابة الآن بخنجرى هذا!!

وفجأة انبثق أمامه من حيث كان خنجره يمر في الهواء راسما خطين متقطعين شيء يشبه الانفجار الصغير، ثم ظهرت فجوة تدور فيها ألوان ممزوجة تموح في بعضها البعض، اثننت والتلوت حروفها كما تلتوى أحرف الأوراق وصدر دوي غريب، وتبعه صوت رياح ساحبة، وكأن تلك الفجوة بئر معلقة في الهواء، كان "أنس" متخلساً في مكانه يحبس أنفاسه عندما حدث هذا أمامه، تذكّر ما قاله جدّه عن الخنجر، وأنه سيقطع به مسافات طولية! انحنى والتقط النوبيات التي كان قد جمعها بعد أن تناول التمر وألقاها واحدة تلو الأخرى داخل الفجوة وكانت تلتقمها بسرعة خاطفة، حمل حقيبته وتراجع للخلف فسارت الفجوة معه واقتربت منه، شعر بها تسحبه إلى داخلها، وابتلاعه في لحظة فاختفى.



سقط "أنس" على الأرض حيث التقى بالمجاهيم من قبل، تذكّر ما قاله قبل أن تظهر الفجوة، أدرك أن الخنجر يفتح له فجوات لينتقل من مكان إلى مكان آخر، الآن عاد إلى الغابة، وثبت قائماً وركض بأقصى سرعة تجاه أشجار الياسمين التي مرّ بها بعد أن غادر بيت العجوز "ناردين"، وجدها أمامه فأسرع تجاهها وخرّ على ركبتيه أمامها يتقطّع أنفاسه، بينما صاحت في وجهه:

- "أنس!" ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- فقدت كتابي.

اقتربت منه وأمسكته من ذراعه، فقام معها وسارا نحو كوكبها، وجلسا حيث كانت تجلس مع "مَرام" من قبل، وبدأ يحكى لها ما مرّ به بعد أن تركها، عندما التقى بالمجاهيم ثم "كلودة" الذي عاد به للغابة، ثم اللصوص ثم "أشريا" والطفلة الصغيرة، بشكل فجائي صفتقت العجوز عندما سمعت منه أنه أخرج أشريا والطفلة من الغابة، بدا جلياً أنها سعيدة جداً لتجاههما، بعد أن أخبرها أنه كان في طريقه للمكتبة قالت بحزن:

- طالما فقدت كتابك، ولم تلتقي بـ"مَرام"، فالأفضل أن تستخدم خنجرك وتنتقل إلى قصر "الحوراء"، لابد أن تلتقي بها.

أسرع "أنس" يسألها بفضول:

- ومن هي "مَرَام"؟

- محاربة كادت ترحل بعد انتهاء مهمتها لكنها دخلت الغابة خصيصاً من أجلك لتحذّرك، فقد بدأت رحلتك قبل أن تلتقي بـ"الحوراء" وـ"المغاتير".

- وأين ذهبت "مَرَام" الآن؟

- لا أدرى... المهم، لا بد أن تذهب إلى قصر "الحوراء"، هيا، قم يا فتي، الوقت يمر.

قامت تدفعه أمامها وتعجله، ووقفت تراقبه وهو يحرّك خنجره في الهواء ويقول كما قال من قبل:

- "قصر" الحوراء

تحرّك الهواء أمامه، وكان هناك بقعة شفافة تشبه الماء تغلي وتبوبق ثم انفرجت كأشفة عن فجوة عملاقة دلفها "أنس" هذه المرة بنفسه دون أن يتراجع، كان أكثر ثقةً من ذي قبل، وكان وصوله لقصر الحوراء أسرع.



بثيابها المحتشمة، وحيث تجلّلها المهابة والسكينة، وعلى كتفيهما ينسدل الوشاح الأبيض كانت "الحوراء" في ديوانها تجلس بوقار، وتنتظر ظهور "أنس"، فقد حملت لها الرياح صوته وكانت تعلم أنه على وشك الوصول، انشق الهواء وأطلّت الفجوة وخرج "أنس" منها وكأنه ولد من رحمها للتو، التفت ورأي الملكة أمامه، شعر بسکينة عندما رآها، وقف بثباتٍ وجال بعينيه في المكان يتأمّل سقف الغرفة الواسعة. قالت "الحوراء" بصوت حنون صاحبته ارتعاشة مميزة:

- حمدًا لله على سلامتك يا "أنس"، كان من المفترض أن نلتقي بك أولاً..
لكنها أقدار الله... أخبرني كيف هو جدك؟

- بخير يا سيدتي.

تمعنت في عينيه ثم قالت:

- لا بد أنك قلق يا بني؟

- لا تلوميني...أشعر وكأنني في حلم! لا أصدق ما يحدث!

ابتسمت بعذوبة ثم قالت بهدوء:

- بعض الحقائق من فرط صدقها تبدو كحلم جميل، وبعضها من فرط قسوتها تبدو ككابوسٍ مزعج.

أردف "أنس" مكملاً لكلامها:

- وأحياناً نحن نخلق الوهم في عقولنا ونعيشه، لا بد أن ما أعيشه الآن وهم وخیال في عقلي.

- الوهم يختلف عن الحقائق، كل ما حولك هنا ليس وهمًا يا بني!

- ربما أنا أحلم، أين نحن الآن!! وما الذي يحدث؟ ما فائدة قصص قديمة كتبها أحد ما! لماذا نبش الماضي بلا هدف.

رفعت حاجبيها وقالت:

- قد نفتش عن الماضي ل بشاعة حاضرنا.. وما أبشع ما نعيشه الآن!

أومأ برأسه بأدبٍ موافقاً لكلامها، ثم سألها:

- أريد أن أعرف ما دوري هنا بالتحديد؟ ومتى سأعود؟ فمنذ وصولي وأنا التقي بأشخاص ولا جديد حتى الآن!

قالت بعد صمتٍ قصيرٍ:

- في الحقيقة: أنت من عائلة أصيلة أباً عن جد، حتى الإناث في عائلتك سيكون لهن شأن عظيم إن شاء الله، شقيقتك "حبيبة" مثلاً! مميزة جداً.

تعجب "أنس" من ذكرها لشقيقته، كاد يسألها كيف هي مميزة! لو لا أنها أردفت قائلةً:

- لست وحدك هنا، غيرك الكثيرون، الصقور تنقلكم إلى هنا كلّ عامٍ،
هناك من ينجح، وهناك من يفشل، وهناك من يتحالف مع..."كمشاق".

- الملك؟

انتفضت بغضب وقالت بحدة:

- ملك على نفسه، "كمشاق" ملك مملكة الجنوب فقط.

ثم سريعاً ما تمالكت نفسها وأردفت بهدوء:

- هنا يا بي ستجد جانباً مظلماً في مملكة الجنوب، وجانباً الذي نرجو أن يكون هو المضيء في الشمال حيث نقف جميعاً الآن، وجانباً غامضاً ما زلنا نكتشف أسراره خلف أستار الغابة هنا وهناك، وجانباً لم تطأ قدم قطر ذاك ر بما ستكشفه بنفسك. "كمشاق" ومن حوله يحاولون السيطرة على المملكة كلها. ما زالوا يحاولون إغواء كل محارب يأتي، يطاردونه، يقطعون عليه الطريق، يُفشلون خططه لإظهار الحق ويدرسون لخدمة أفكارهم السوداء.

- ولكن! ليس كل من بمملكة الجنوب سيئين، هناك الخير يمكن هنا وهناك، أهل القرية طيبون، وربما هنا بالملكة بعض الشر أيضاً، لكنكم لا تعلمون عنه.

- حسناً، طالما أنت تدرك هذا جيداً فأنت تعرف دورك، أنت ستخبرنا أين الخير وتدلنا عليه.

- وهل سأستطيع؟

- نعم، أنت الوحيد القادر على هذا بإذن الله.

- لماذا؟... ألا تقدرون أنتم؟

- ليتنا نستطيع! حاولنا من قبل ولم نتمكن، جربنا ولم ننجح.
هذا "أنس" رأسه بحيرة وقال:

- لماذا المملكة هنا مختلفة! وأين موقعنا الآن.

- ستتعب يا "أنس"

- من ماذ؟

- من تكرار هذا السؤال، فأنا أيضًا حيرتني تلك القصص التي كان جدك يخبرني عنها عن عالمكم، وددت أن أكون هناك، أن أرى ما يصفه عن عالمكم، بيوركم، هواتفكم، الطائرات، السيارات، لكنني ..

- لكنكِ ماذ؟

أشاحت بنظراتها بعيداً ثم أردفت قائلةً:

- أتعلم يا "أنس": حاولنا كثيّراً إرسال بعض المغاتير لعالمكم، حملتهم الصقور لكن كل محاولتنا باءت بالفشل، إنهم يرفضون أن تتولى نحن المهمة.

- ومن هم؟

- الكتب.

- أنت أيضًا تزعمين مثل جدي أن تلك الأوراق تدب فيها الحياة!

هزت رأسها موافقة فقال بانفعال:

- ما زلت لا أصدق أن الكتب حية ولها إرادة!

- ألم تطر الكتب في الهواء وتلف حولك؟!

- وكيف عرفتِ؟

- هكذا تتعرف الكتب على المحاربين، هكذا اختارت جدك من سنين طويلة، وهكذا التقيت به لأول مرة هنا.

هز "أنس" رأسه بحيرة وقال:

- لماذا أنا؟!

- لأن الكتب أدركت وهي تدور حولك أنك تؤمن بشيء ما يتحدث عنه كتاب إيكادولي.

- ربما...

قاطعته "الحوراء" وأردفت قائلة:

- اختارك الكتاب لأنّ صفحاته أحسّت بقلبك، شمّت الرائحة في دمائك، هي تعرفك لأنّك صدّقت في نفسك شيئاً احتضنته تلك الصفحات بين سطورها وأدركت أنّت قيمة ذاك الشيء ومعناه.

- وما هو هذا الشيء؟

- أنت هنا لهذا السبب يا "أنس"، مهمتك أن تكتشف القيمة التي يتحدث عنها الكتاب وتدلّنا عليها لنعلمها لأنفسنا وأبنائنا ونتمسّك بها، الأمر ليس ظاهراً جلياً بالنسبة لنا للأسف.

تدّرّج "أنس" كيف كانت الكتب تدور حوله في غرفة المكتبة، وكيف كانت صفحاتها تقلب بسرعة شديدة، وكيف كان شعوره عندما رأى صورته تُرسم في أول صفحة. قال وهو يرجو إجابة تريّخه:

- فقدت كتابي، سرقه اللصوص، فهل من طريقة لاسترداده؟

على حين غفلة منها دلف الحكيم "سامي كول" إلى ديوان ابنته، حيثه بإجلال ثم التفت تجاه "أنس" وتأملته بإمعان، وكان "أنس" شاباً وسيماً مليحاً فاتحاً تقرّ بالنظر إليه العيون، قالت بعد أن استقرت عيناه على القلادة التي كان يرتديها:

- ها هو "أنس" يا أبي، نفس العينين، نفس النظرة الواثقة، يشبه أباًه وجده كثيراً.

قال سامي كول بعد أن أغمض عينيه:

- هذا الشبل من ذاك الأسد!

تنحنح "أنس" في ارتباك وقال بتحفّز:

- التمايل في الشكل لا يعني التشابه في المستقبل وال نهايات.. أخشى أنكم تظنون بي ما لست أنا بأهلي له، لم أكن يوماً محارباً.

أدرك "سامي كول" أن "أنس" غير مرحب بما يعيشه الآن، وأنه قلق مما يتعرض له، قال وهو يهز رأسه موافقاً:

- صدقت، وربما أنت مختلف عنهما!

ثم أردف باهتمام:

- كنت تسأل عن طريقة تسترد بها كتابك، أليس كذلك؟

- بلـ

- ربما يساعدك حراس المكتبة العظمى، عليك أن تنتقل إلى هناك، وطالما عرفت كيف تصل إلينا، لا تتردد في القدوم هنا في أي وقت، أو عندما تتعرض للخطر.

اقربت "الحوراء" وأضافت على كلام أبيها قائلة:

- ولا تنس أن تبحث عن "مَرَام"، فقد خرجت في إثرك، وقد تعرضت للخطر حيث اختطفها اللصوص في الغابة، عليك إنقاذه يا "أنس"

- ماذَا! ولكن كيف وأنا لا أعرفها! ولا أعرف شكلها!

- وهي لم تكن تعلم كيف هي ملامحك عندما دخلت لتبثث عنك، وكان من المفترض أن ترحل وتعود لديارها.

- وما الذي أجبرها على الدخول!

- كان اسمك يظهر لها في كتابها من آن لآخر، فحدّرها أبي من أن ترحل طالما أنك وصلت لأرض المملكة قبل رحيلها.

- ومن أي شيء حدّرها؟

كان "سامي كول" ينصت إليهما بهدوء، وكان دوره أن يوضح الأمر لأنس، لكنه بدلاً من هذا أخرج من أكمامه الواسعة ورقة ملفوفة ومدّها نحو "أنس"، فتح "أنس" الورقة وكانت خريطة فبدأ يتفحصها بتمعن في ما رسم فيها وهو حائر، اقربت الملكة وأشارت له على الخطوط فيها وتبعثر خطأ أحمر وقالت:

- كان من المفترض أن تبدأ رحلتك من هنا، القصر أولاً لنشرف بلقائك وتأخذ هذه الخريطة، ثم تسير في الغابة من هنا.
- وتبعك خطأً أخضر موازيًّا للنهر الأخضر، وقالت وهي تنقر على الجهة الأخرى:
- هنا اللصوص والمجاهيم، ويبدو أنك مررت من تلك الجهة الخطأة.
- رفع "أنس" حاجبيه وقال:
- يبدو أنني أجبرت نفسي على الانخراط في اللعبة بطريقة خاطئة.
- غضنت "الحوراء" جبينها وقالت وهي توقع كلماتها:
- هي ليست لعبة!
- ثم أضافت:
- كان الأصح أن تسير من الجهة الشرقية حتى تصلك إلى القرية، حيث تظهر أول جملة في كتابك وسط السوق، عندما تلتقي بأبطال القصة التي يحكى عنها "إيكادولي"، ولكنك أضعت الكتاب، ونحن الآن لا نعرف من هم أبطال القصة تحديداً لأننا لا نعرف متى ستظهر أول كلماته، ولهذا عندما تسترد الكتاب عد وابداً رحلتك من البداية واستخدم الخريطة حتى تبدأ الكلمات تُنشق في الكتاب، وأما إن عثرت عليه وقد ظهرت بالفعل الكلمات ...
- ماذا؟
- ستكون مهمتك أصعب لأنك بالفعل قد التقيت بأكثر من شخصية قبل أن نراك هنا.
- أظن أن مهمتي صعبة بالفعل منذ بدايتها.
- لاحظ "أنس" وجود أرقام مختلفة وعشوائية مكتوبة بلا ترتيب على عدة أماكن في الخريطة، سأله "الحوراء" وهو يشير إليها:
- ولكن ما هذه الأرقام المدونة هنا وهناك؟

غضبت حاجيها وقالت:

- هي شفرة خاصة بين الكتاب والمحارب المسئول عنه، لن يفهمها غيره لا أنا ولا أبي ولا حتى حراس المكتبة... أظنك تدرك معناها؟

قال وهو ينقل عينيه بينها:

- الشيء الذي ليس له معنى الآن قد يكون له معنى لاحقاً!

صمتت "الحوراء" هنئة وقالت:

- والآن، هيا إلى المكتبة، فأنت تحتاج الوقت.

حمل "أنس" خنجره وعاد يحركه في الهواء في خطوط متقاطعة، ابىثقت الفجوة من جديد، وألقى بنفسه فيها بعد أن أخفى الخريطة في حقيبته.



(١٣)

"كُومبو"

خرج "أنس" من الفجوة والخنجر لا يزال في يده، فوجد نفسه أمام بناء عظيم مهيب تحوطه الأشجار من كل الجهات، وحول تلك الأشجار وعلى امتداد البصر كانت الصحراء تبسط رمالها الذهبية إلى ما لا نهاية. تقدم خطوة واحدة وكان واثقاً من خطاه يظن أن أبواب المكتبة ستفتح له وسيكون الأمر سهلاً كما دلف إلى الغابة من قبل، وإلى قصر "الحوراء" منذ دقائق ماضية، لكن الأمر لم يكن كما يخاله، فقد اشتدت الرياح فجأة وكأنها تمنعه، وبدأت الرمال تتحرك وتبتلع جسده وكانتها تعوشه لكي لا يتقدم، حتى اختفى نصفه الأسفل تحتها، رفع ذراعه وحرك الخنجر في الهواء وصرخ قائلاً:

- بيت "كلودة"

انبعثت الفجوة والرياح تتحقق بأطرافها المنثنية أمامه، ودوى الرياح يصدر صفيرًا مزعجاً، لم يتمكن "أنس" من القفز في داخلها فساقيه تحت الرمال، فاقتربت الفجوة منه وارتفعـت كسحابة فوق رأسه وسحبته إلى داخلها بقوة فانتقل إلى بيت "كلودة" وكانت الرمال تسقط من ملابسه على الأرض! جلس وقتاً طويلاً يستجمع قواه، فقد هزه الأمر وشعر أنه هالك لا محالة، أراد أن يقوم ليبحث عن شربة ماء فقد جف حلقه وفتح باب البيت حيث كان هناك شاب طويل يقف متحفراً وفي يده عصاة غليظة، فور أن رأى "أنس" ضربه على رأسه فقد "أنس" وعيه في الحال.



أفاق "أنس" فوجد نفسه ممددًا على الأرض، مقيد الساقين واليدين مرة أخرى! وقف أمامه الشاب واضعا راحتي كفيه على خصره، كانت له عينان ناهايتان وشعر مجعد، خصلاته داكنة، كان بريق نظراته يشي بذكاء متقد ومحفز، بدا بهيئته وإيماءاته ونظراته وكأن الحياة عركته سلفاً، قال ساخرا:

- كيف تجرأ على اقتحام بيت "كلودة" في غيابه؟

- "كلودة" صديقي... سلّه بنفسك!

- سنتنطر إذن حتى يعود.

- ولم لأنذهب إليه في دكان عطارته؟

- أونعرف مكان الدكان؟

- أجل أعرفه.

- كاذب لأنني أعمل هناك فأنا شريكه، ولو كنت صديقه لرأيتك معه، أنت لص.

- أخبرني بالله عليك وأي شيء سأسرقه من بيت "كلودة"!
تفرس الشاب في ملامحه وصمت هنمية يفكر بتذكرة ثم قال له:

- ما اسمك؟ ومن أي البلد أنت؟

- "أنس"، وأنا... محارب!

انتبه الشاب وتحرك في الغرفة بانفعال، اقترب من النافذة ومر على السماء بعينيه الناهتين، ثم عاد ينظر لأنس وقال له:

- إن كنت محارباً، فأين كتابك؟

- سرقه اللصوص عندما كنت مع "كلودة" في الغابة

- ألم أخبرك بأنك كاذب! من المستحيل أن يدخل "كلودة" للغابة!

- بل حدث عندما أنقذتنا ابنة عمّه "أشريا" وفكّت قيودنا.

- كاذب، كاذب، كاذب.. من يدخل الغابة لا يعود، ولقد التقيت بـ"كلودة" منذ قليل وهو في طريقه للدكان.

- لماذا لم تذهب معه؟

- لا تندنك عليَّ، أتيت لأجلب بعضًا من الأصياغ التي أعدّها لأنَّه لا يستطيع العودة بتلك الفتاة التي كانت تتبعه إلى البيت هنا، فهناك من يهددها، وأظننه أنت!

- أقسم لك أنه صديقي وأتنا دخلنا الغابة وـ"أشريا" هي التي أنقذتنا عندما فكت قيد "كلودة" بذاك المسوحوق الذي أذاب الحبال.

قالها "أنس" بضيق وهو يتآسف، فقد طفح الكيل، كلما شعر أنه يتقدم خطوة للأمام يتعرَّث في شيء ما، حكَّ الشاب ذقنه نصف النامية وقال وهو يتفحَّص ملامح "أنس" بتمعنٍ:

- حسناً، سأفك قيد قدميك وستسير معي لدكان "كلودة" ولنرَّ ما سيقوله، وإن كنت كاذبًا فستنال مني ما لم تنته في حياتك.

سحب الشاب خنجر "أنس" والذي كان قد استولى عليه وقطع الحبال التي كان يربط بها ساقِي "أنس"، ودمسه في حزام بنطاله، وسحب "أنس" وسار معه نحو دكان "كلودة"

سار الشاب يدفع أمامه "أنس" بقوسٍ، اصططَ الرعد فانهمر المطر مدراراً، بروق متواتلة انقضحت في السماء، كانت القرية في هذا الوقت ترُّزح تحت موجة صقيع شديدة، جعلت المطر كأنَّ شَيْءَ موحلًا رطبًا، سريعاً ما وصل إلى الدكان حيث حملق "كلودة" في وجههما والماء قد أغرقهما بالكامل وقال:

- "كومبو" !!

- "كلودة" هذا الشاب يزعم أنه صديقك.

أسرع "كلودة" يفك قيد "أنس" ورشق "كومبو" بنظرة تقطَّر عتابًا ولوًّا وقال له:

- إنه صديقي "أنس"

من خلف "كلودة" أطلت "مَرَام" برأسها وقالت بغضب:

- وأخيراً ظهرت!

مرّ على وجهها بعينيه البندقيتين بينما كان يتحسس معصميه متأنّاً من أثر القيد، تعرف عليها في الحال، طالعها باستغراب وقال بصيغ:

- أنتِ؟ ما الذي أتي بك إلى هنا؟

دفعه "كُومبو" في كتفه وقال بصوت حاد:

- لماذا تتحدث إليها باشمتراز هكذا!

- رأيتها في السوق وعليها ثياب خليعة!

استشاطت "مَرَام" غضباً وندت منها صرخة مكتومة وأشارت لعينها وقالت بصوت لم تفلح في ضبط نبرته:

- خطبني تجّار العبيد، وسقوني شيئاً ما وألبسوني تلك الثياب رغم أنفي، وكانت أنا ديك لتحررني منهم، لكنّك بدلاً من هذا قذفتني في عيني وهربت! ثم خلعت الرياط عن عينها فإذا بها متورمة وحولها حالة زرقاء، أضافت وما زالت تتنفس غضباً:

- اسي "مَرَام" ، أرسلتني الملكة "الحوراء" من أجل...

تدكّر "أنس" ما أخبرته به "الحوراء"، فقاطعها وقد أشفع علیها عندما رأى ما حدث لعينها وقال معتذراً:

- آسف... ظننتك من الـ....!

اصطبغ وجهها بلون كرزي، شعرت بإهانة شديدة، وكأن "أنس" قد مر السكين على الجرح مرة أخرى، فقد كان خلعم لحجاتها وكشفهم لجسدتها أثقل ما حدث لها منذ وصلت لتلك المملكة العجيبة، وكانت قد تعبت مما لاقته خلال الليالي الماضية، قالت وهي تكرّر على أسنانها:

- عد إلى قصر "الحوراء" ، لا بدّ أن تلتقي بالملكة في الحال.

- وكيف سأعود وليس معي كتابي.

- كيف!

- سُرق مني في الغابة وأنا أبحث عنه.

- فلنعد للقصر على أيّ حال، لا بد أن تُعيّدني سريعاً.

- لن أرحل بدون كتابي!

رفعت سبابتها نحوه وقالت بتحفّز:

- وأنا أريد أن أعود لدياري، ولن أسير في الغابة وحدي مرة أخرى، أنت السبب في كلّ ما حدث لي، وعودتي إلى القصر هي مسؤوليتك!

ولم يكن من السهل عليه أن يثق بها من أول لقاء، فلم يخبرها عن أمر الخنجر وانتقاله عبر الفجوات، وبينما تتحدثان اعترضهما "كُومبو" ووقف بينهما بقامته الطويلة وقال:

- أي ملكة تتحدثان عنها؟ أريد أن أعرف قصتكما من البداية.

قال "كلودة" وهو يتناول "مَرَام" كوبًا من الماء بعد أن لاحظ توترها وجفاف شفتيها وهي تتحدث إلى "أنس" بغضب:

- استريحي واهدي، يبدو أنك مررت بالكثير.

ثم قال له "كُومبو":

- كم أنت فضولي يا "كُومبو"!

سألته "مَرَام" وهي تعيد ربط عينها في ارتباك:

- لماذا اسمك "كُومبو"... أليست تلك الكلمة تعني السمين!!

قهقهه ثم أجاها:

- عندما ولدت كنت سميّنا، فاختار لي أبي ذاك الاسم، وبقيت سميّنا طوال حياتي، وهذا قد فقدت سمعتي منذ عامين وما زال ذاك الاسم عالقاً بي.

دلف الجميع إلى الدكان، وباختصار قصَّ "أنس" على "كُومبو" ما أراد أن يكشفه له، وأخفى عنه ما أراد أن يخفيه، واستعاد خنجره، وبقي "كلودة" قلَّا وحائِلاً من أن ينكشف أمر علاقته بالأميرة، كان يفكَّر في طريقة يتخلص بها من "مَرام" بسرعة.

وكانت "مَرام" تمنى أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد نفسها في بيتها، متى ستعود!



في الطريق وحيث اتفقوا على أن تبيت "مَرام" ليلتها في بيت "أشريا" بينما يذهبون لبيت "كلودة"، كانت "مَرام" تسير خلفهم وهي غاضبة، ت يريد أن ترحل الآن، رفعت رأسها تبحث عن " قطرة الدموع" هنا وهناك، لم تعد تظهر لها في نفس اللحظة التي تفكَّر بها في الحال، كما كان يحدث، تلك كانت ميزة تبعثر في نفسها الاطمئنان، لكن يبدو أنها فقدت تلك الميزة! تمَّهَل "كلودة" في سيره قليلاً واقترب منها وأعطاهما زجاجتين صغيرتين وقال:

- خذِي، ضعي قطرة من هذا السائل في عينك قبل النوم، ثمَّ ضعي هذا الدهان على الجفن وما حوله، سيختفف من تورُّم عينك إن شاء الله.

انكمشت "مَرام" وهي تقول:

- لا... لقد قمت بدهنها من قبل في القصر بذلك الدواء الذي أعطته لي الطيبة هناك، فانتفخت عيني وأصبحت الدموع تسيل منها على الدوام.

- لا تخافي، جربيه.

بعد تردد أخذتهما ثمَّ قالت له:

- حسناً، شكرًا لك.

- أرجو منك ألا تخبرني أي أحد بما بيني وبين الأميرة "أونتي"، حتى زوجة عي وابنتها "أشريا" التي ستبيتن في بيتهما الليلة.

- اطمئن، سأستركم، رغم أنكم لا تستحقان!

- أهكذا تردين الجميل لأميرتك التي أطلقت سراحتك؟

- قلت سأستركم! ولكنني أكره فعلكم!

التفتت مبتعدة عنه، كانت تتمى أن تنشق الأرض وتبتلعها وتلخظها في بيتها في الحال، وصلا سريعاً إلى بيت "أشريا"، التي انزعجت في البداية عندما رأت "مرام"، ثم سريعاً ما انفرجتأساريرها عندما علمت أنها محاربة، على نحو سريع تألفتا، وباتتا ليلاً ما تحدثان عن الأميرة "هيلاء"، كانت "أشريا" قد سمعت عنها، لكنها لم تكن تعلم قصتها بالتفصيل، خفف هذا عن "مرام" التي كانت تغلي، كم هو مهين أن يظن بها أحدهم أنها فتاة لعوب، وكم هو قاهر ما مررت به من ذل وهوان، وكم تؤلمها عينها الآن.



في بيت "كلودة"

مرت الليلة هادئة حيث استسلمت "مَرَام" للنوم العميق حتى الظهيرة، بينما كان "أنس" في صحبة "كلودة" و"كُوبمو" في دكانهما منذ الصباح الباكر، كان قد اتخذ قراراً قبل أن يغمض عينيه الليلة الماضية، وهو أنه سينقل "مَرَام" إلى قصر "الحوراء" قبل أن يعود للمكتبة العظمى، لقد لاقت الكثير بسببه، وكان يشعر بالذنب والمسؤولية تجاهها، كما أنه كان يشعر بالضيق كلما تذكر اللحظة التي قذفها فيها بالحجارة في عينها، أساء بها اللظن وظلتها فتاة لعوباً وكانت المسكينة تستغيث به لينقذها، كان يسترجع ما روت له عن ذاك الشاب الذي غطتها بوشاحه وحملها إلى القصر، وكيف نجاهما الله مما كانت تخشاه بأن اختارتها أميرة هناك لتكون وصيفة لها، جلس ينتظر انتهاء "كلودة" من عمله ليذهبا معاً لبيت "أشرياً".

مرّ معظم النهار ولم يبق إلا القليل منه. على الباب، وبينما يتعالى صوت زوجة عمّه وهي تقترب لتفتحه، كان "كلودة" يقف ومعه "أنس" ينتظران، أطلت برأسها من فرجة الباب، أخبرتهما أن "أشرياً" حملت إليهم الطعام إلى بيته مع "مَرَام"، فقد ظنت أنه لن يأتي كالمرة السابقة، انصرف مع "أنس" متوجهاً لبيته، راوده شعور بالارتياح، فما دامت تحمل له الطعام فهي لا تعرف شيئاً، كانت "مَرَام" صادقة، ستسترهما وإن لم يعجبها فعلهما.

كان بيت "كلودة" رغم بساطته يوحي بالدفء، غرفتان فسيحتان يفصل بينهما جدار حجري لا يصل إلى السقف، لا أثاث يذكر سوى فراش من الليف مغطى بقمash من الكتان المصبوغ، الكثير من الحقائب القماشية المعلقة على الجدران، يبدو أنها تحتوي على الملابس وأشياء أخرى، في أركان البيت تناشرت عدة وسائل محسنة بريش الطيور صنعتها "أشرياً" كما قال لهم وهو ينتقل

بسرعة بين الغرفتين.

جلسوا في شُرفة واسعةٍ تطل على فناء الدار، بينما انصرف "كلودة" ليحضر بعض الحطب ليشعل النار ويُسخن القدر الممتنع بالطعام فقد برد سريعاً حتى أن الدهن بدأ يكُون طبقةً جامدة على سطحه، وضعـت "أشريا" أمامهما وعاء خزفيّاً مكسور الحافة به بعض حبات الفاكهة الشهية حتى تقوم بتـسخين الطعام، لم تمـد "مرام" يدها، وكذلك لم يفعل "أنس"، فقد فقد كلاهما شـهـيـته، كان الشـعـور بالغـرـبة يـقـبـع على صـدـرهـ، أـمـاـ هيـ فـكـانـتـ خـائـفـةـ،ـكـانـتـ "أشـرـياـ"ـ تـنـقـلـ عـيـنـيـهاـ بـيـنـهـماـ وـأـطـرـقـتـ تـفـكـرـ طـوـيـلاـ.

مد "أنس" يـدـهـ في جـيـبـ سـرـوالـهـ وأـخـرـجـ ساعـتهـ،ـ لـوـ اـنـتـهـ إـلـيـهـ اللـصـوصـ فـيـ الغـابـةـ فـيـ أـوـلـ يـوـمـ وـصـلـ فـيـهـ لـسـرـقـوـهـاـ مـنـهـ،ـ عـادـ يـحاـوـلـ إـصـلـاحـهـ،ـ مـاـ زـالـتـ عـقـارـهـاـ مـكـانـهـاـ مـتـوقـفـةـ وـكـانـهـ خـارـجـ الزـمـانـ وـالـمـكـانـ،ـ نـادـىـ "كـلـودـةـ"ـ عـلـىـ "أشـرـياـ"ـ لـتـسـاعـدـهـ وـالـقـيـ كـانـتـ تـرـاقـيـهـاـ بـفـضـولـ شـدـيدـ.ـ كـانـتـ "مرـامـ"ـ مـرـتـبـكـةـ،ـ بـدـأـتـ تـفـرـكـ يـدـهـاـ بـتـوـرـ،ـ لـاحـظـ "أنـسـ"ـ الـكـثـيرـ مـنـ عـلـامـاتـ الـجـرـوحـ عـلـىـ ظـبـرـ كـفـهـ،ـ وـوـجـنـتـهـاـ،ـ وـكـانـهـاـ خـرـجـتـ مـنـ مـعـرـكـةـ مـعـ قـطـ شـرـسـ،ـ بـدـأـ "أنـسـ"ـ يـتـفـحـصـ ساعـةـ يـدـهـ بـإـمـانـ،ـ ضـحـكـ بـسـخـرـيـةـ فـظـنـتـ "مرـامـ"ـ أـنـهـ يـسـخـرـ مـنـهـاـ وـيـسـتـرـجـعـ فـيـ ذـاـكـرـتـهـ مـاـ حـدـثـ فـيـ السـوقـ يـوـمـ قـذـفـهـاـ بـالـحـجـارـةـ فـأـصـابـ عـيـنـيـهاـ،ـ باـغـتـتـهـ سـائـلـةـ بـضـيقـ:

- ما يـضـحـكـكـ!

قال ساخراً:

- لن تعود الساعة للعمل، يبدو أننا نعيش بين ثانيتين، الوقت هنا ضائع.

قالت بحدّة:

- لا أظنّ وقتنا هنا ضائعاً أبداً، بل كلّ حياتنا السابقة هي التي كانت ضائعة.

التفت إليها فتلاقت عيناهما، انزوـتـ نـظـرـهـاـ بـحـيـاءـ بـعـيـداـ عـنـ وجـهـهـ،ـ مرـتـ دقـيـقـةـ منـ الصـمـتـ الـلـطـيفـ قـبـلـ أـنـ يـسـأـلـهـاـ "أنـسـ"ـ بـصـوـتـ خـافـتـ:

- ماذا تقصدـينـ بـأـنـ كـلـ حـيـاتـنـاـ الـمـاضـيـ كـانـتـ ضـائـعـةـ؟

- عندما يصلـ المحـارـيونـ يـكـونـونـ بلاـ هـدـفـ،ـ ولـعـلـكـ كـنـتـ بلاـ هـدـفـ قـبـلـ مجـيـئـكـ إـلـيـ هـنـاـ.

- وما أدرالك؟

- مجرد ظن!

شعر "أنس" أنها تتحدث إليه بتحفّز، ربما لما فعله عندما رآها أول مرّة، وما ظنه بها، رنا إليها سريعاً فرأى عينها المتورّمة فأشفق عليها وسألها:

- كيف هي عينك الآن؟

تحسستها بأناملها بحرص وقالت دون أن تنظر إليه:

- هي أفضل.

- اعتذر مرّة أخرى.. سامحني.

- لا عليك.

طارت فيها نظرة من نظراته فلاحظ جمالها على استحياء وسألها:

- كنت تقولين إن المحاربين يكونون بلا هدف عندما يصلون، ثم يتغيّر
حالهم.. فما هدفك أنت الآن؟ أخبريني؟

غاصت في نفسها مفكرة وقالت:

- أن أعيش حياتي كلها في الضوء، لا أود أن أختبئ وإن أخطأت، وإن
فشلـت، وإن كان بي خطـب ما! ثم أموت على ما أؤمن به.

- ومنـا لا يطلبـ هذا!!

ثم سـأـلـها بـفـضـولـ:

- كـمـ عمرـكـ؟

- ثـمانـيةـ عـشـرـ عـامـاـ.

- ماـذاـ تـدـرسـينـ؟

- الـآـدـابـ

- وأنت؟ كم عمرك؟ وهل تدرس شيئاً ما؟

لاح شبح ابتسامة على وجهه وقال بسخرية:

- سأتم الثالثة والعشرين قريباً، كما أني درست بالفعل شيئاً ما.

التفتت إليه تنتظر أن يكمل كلامه فأردد مجيباً:

- درست الهندسة.

كانت "مَرَام" تستغرب تغيراً بدأ يحدث في مشاعرها، فرغم غضبها الشديد منه، ورغبتها في ضربه على عينه حتى يتآلم كما فعل بها، فقد بدأت تشعر بانجذاب نحوه! يبدو لطيفاً عندما يعتذر لها!!

أطرق "أنس" للحظات ثم عاد يسألها:

- كيف بدأ الأمر معك؟

ارتبتكت "مَرَام" وشعرت بالدماء تصعد لوجنتها، وكأنه قرأ أفكارها ويسألاها كيف بدأ أمر إعجابها به!! تمنت تستوضح السؤال، قال موضحاً:

- أقصد مجئك إلى هنا... كتابك؟ صقر حملك مثلاً!!!

حاولت "مَرَام" أن تبدو متamasكة فمدت يدها وأمسكت بحبة تفاح وجلست تحملق فيها وهي تروي ما حدث لها:

- جدّتي مغمرة بالكتب، تعشق القراءة، لديها مكتبة عظيمة، الكثير من المجلدات القديمة، منها البعض يحوي قصصاً نوبية قديمة.

- هل تلك الكتب تخص أيضاً الأمير "أواوا"؟

- لا، إنها تخص "دهل كول".

- ومن هو "دهل كول" هذا؟ أمير نوبي أيضاً!!

- لا.... تلك الكلمة لقب نوبي وتعني...المجنون!

- وهل يكتب المجنون الكتب!!

- في الحقيقة هو لم يكن يوماً مجنوناً، لكن من حوله لقبوه بهذا الاسم فقد كان صادقاً ذات الحد الذي يجعلك تظنه مجنوناً.

هرّ "أنس" كتفيه مستغرباً وقال:

- الأسماء كلها غريبة! "أبادول"، "سامي كول"، "دهل كول"، "إيكادولي".

التفتت "مَرَام" تجاهه وكأن الكلمة الأخيرة قد استفزت حواسها وقالت:

- كلها ألقاب نوبية ما عدا "إيكادولي" ليست لقباً بل هي كلمة تعني...

قاطعها "أنس" بتلقائيةٍ وهو ينظر إليها قائلاً:

- أحبك!

أطرق كلامها بخجلٍ، واصطبغ وجه "مَرَام" بحمرة خفيفة، ألتقت بالتفاحة التي لم تمسها في الطريق الخزفي وكادت تنصرف لولا سؤاله لها بعد أن استدارت:

- لماذا لم ترحي طالما تم استرداد كتابك كما تقولين؟ كان الخيار لك!

التفتت تجاهه في حرج وقالت:

- كنت مضطربة، لا أحد يستطيع دخول الغابة إلا المحاربين.

- لماذا؟

صفع صوت الرعد الذي ارتج له بدمها الهزيل، فقد بدأ المطر يهطل بغزاره فأسرع كلامها إلى الداخل حيث جلساً بهدوء في بيت "كلودة" الذي كان يعد الطعام مع "أشريا" ، جلس كلّ منهما في غرفة، كان "أنس" يفكّر في حال "مَرَام"، كيف كانت تتحدث بتلك الرقة! إنّها تشبه قطعة البسكويت الناعمة، لو أغرقها المطر ستذوب!

تمدد "أنس" على الفراش وعقد كفيه خلف رأسه وحملق في سقف الدار وهو يجترّ ما مرّ به منذ وصوله لبيت جده، فهذا ليس وقت الفتيات، طالما أزعجته الفتيات، همس لنفسه:

- ليس هذا وقت الفتيات! ليس وقتك يا "مَرَام".

ناداهما "كلودة" فخرج كل منهما من غرفته لتناول الطعام، تنهنج "أنس" ثم قال لها بصوت جاحد ليخرجه منضبطاً:

- "مَرَامْ"، لا بدّ أن أعيده إلى القصر، حان وقت عودتك لأهلك، لا بدّ أن أطمئن عليك قبل أن أعود لأبحث عن كتابي.

- أرجو ذلك وبسرعة

- لكننا سننتظر حتى يتوقف المطر، والأفضل أن نؤجل رحيلنا للغد حتى ندخل الغابة في أول النهار

هرّت رأسها موافقة، ويبدو أن هذا قد أراح نفسه بطريقة ما، التفت يطالع السماء وقد راق له أنها ستبقى ليلة أخرى. كان هناك شيء ما يتلجلج في صدره، إحساس لم يعهد من قبل، وخزة في قلبه موجعة على نحو ما لكتها لطيفة، وكان شرارة تتذبذب بين ضلوعه، وقف بجوار "مَرَامْ" بعد تناول الطعام أمام باب الدار تحت مظلة بدت كقبة تحفي مدخل الدار كان "كلودة" قد صنعها من جريد النخل، كان كلاهما يراقب المطر في صمت، هدأت ثورة غضبها أخيراً، ستعود إلى البيت، كانا ساكنين وكأنهما حرفان متجاوران على سطح في رواية، حاء وباء... وربما سيكون بينهما الكثير....



النهر الأخضر

فجرٌ ورديٌّ شاحبٌ يبغُ على القرية مبشرًا بنهارٍ مشرق، فتح "أنس" عينيه عندما تناهى لسمعه صوت ديكٍ يؤذن، اعتدل في فراشه ولثوانٍ راح يتساءل عن المكان الذي يوجد فيه وعما حدث له، عاد وعيه إليه ببطء، نهض بوئبة واحدة واقترب من النافذة، توضأً من كوب الماء الفخاري الذي كان على الطاولة بجواره وصلَّى الفجر، كان يحتاج لتلك السكينة، تلك المساجدة التي تحتويه فتعيد إليه صوابه.

بعد لحظات سمع طرقات خفيفة على النافذة من الخارج، أسرع يقترب منها فإذا به "كلودة" الذي أشار إليه بهدوء ليتبعه، كانت "مَرام" قد خرجت الليلة الماضية بعد انتهاء المطر مع "أشريا" لتبيت معها بيتهما، حمل "أنس" حقيبته وتبع "كلودة"، خرجًا معاً حيث كان "كُومبو" ينتظرهما، حوارات لطيفة تبادلوها معاً عرف منها بعض المعلومات عن الحياة في أرجاء القرية. أفترط سريعاً وتناول قدحًا من مشروب ساخن لطيف مع "كُومبو" الذي أسرع نحو دكان العطارة، بينما انسل "كلودة" وصعد السهول ليجمع عشبًا ما! هكذا أخبرهما قبل أن ينصرف. جلس "أنس" أمام الدار والأفكار تتناطح في رأسه، كان قد أخبرهما أنه سيعود مرة أخرى لتلك الغابة، لا بد من استرداد كتابه، ما زال يخفي اسمه عن الجميع كما نصحته العجوز "ناردين".

كان البيت على أطراف القرية، مشط "أنس" المكان بعينيه وجلس يتتساءل في نفسه، لا يرى أيّ مظهر من مظاهر التقدّم هناك، لا أجهزة، لا سيارات، لا تلفاز! الصقور تنتقل إلى مدینته وعالمه الذي يعيش فيه، وهو هنا، فهل انطلق أحد من أهل المملكة أيضًا إلى نفس المكان؟

وأين تقع تلك المملكة؟

لعله حلم، رفرف هذا الاحتمال في أعماقه لكنه لم يرح نفسه، بل زاد من توّره.

وصل إلى مكان حيث تأكد ألا أحد يراه وأخرج خنجره وحركه في الهواء وقال وعلى وجهه استقرت نظرة تصميم:

- الغابة

ابتثقت الفجوة تتلاعب في الهواء بألوانها المائجة في بعضها فوثب فيها وانتقل للغابة في الحال، اقترب من شاطئ الهر الذي ينحدر مصبه جوار الجبال البعيدة خارج الغابة ثم يقتحمها ويشقها حتى نهايتها، وبدأ يسير موازياً له، كان لون الماء الأخضر يسرق نظراته، راقب انعكاس صورته في الماء، كانت الملابس الجديدة رغم غرابتها تليق به، عدّل من قميصه بينما كان يسير، فور أن خطت قدماه أرض الغابة والتي كان الهر يشقّها من بدايتها نهايتها تغير انعكاس صورته في الماء فجأة! تسمّرت قدماه بالأرض! انقطعت أنفاسه عندما رأى انعكاس صورته في الماء، كانت الصورة لصقر أبيض! كان الصقر يسير موازياً لخطوات "أنس"، تراجع "أنس" للخلف فتراجع الصقر معه، عادت صورته العادية عندما لامست قدماه الأرض خارج الغابة! وكان هناك تحت قدميه خط واضح يميز أرض الغابة عن الأرض خارجها.

عاد وخطا للأمام فظهرت صورة الصقرمرة أخرى، وكأنه يتقدم موازياً له! رفع ذراعه اليمني فرفع الصقر الجناح المقابل لها، لوح بذراعه اليسرى فرف فصر بجناحه المقابل، تراجع للخلف حتى اختفت الصورة، ثمّ عاد وتقدم للأمام فظهر الانعكاس مرة أخرى، قرب رأسه فبدأ انعكاس صورة وجه الصقر يزيد كلّما اقترب "أنس" بوجهه من صفحة الماء... همس لنفسه بفزع:

- أنا صقر!... صقر أبيض!

ثمّ تتمم محدّثاً نفسه:

- لا يُعقل أن يكون الصقر محبوساً تحت الماء!

مدّ يده في الماء وغمسها فيه وحركها، كان الماء بارداً وخفيفاً، تلاعبت

صورة الصقر على صفة الماء واهتزت لكنّها لم تتغيّر، انحنى وهو يحدّق في عيني ذاك الصقر الأبيض الذي يطالعه ورفع كفّه الممتلئة بالماء وشرب منه، كان مذاق الماء شديد العذوبة، ما زالت صورة الصقر الأبيض تتعكس على الماء، يشرب كما يشرب، يتحرّك كما يتحرّك.

تلّفت حوله وبحث عن غصن شجرة، عثر على غصن طويل فامسكه وعاد لشاطئ النهر، كانت المياه تتدفق نحو الشمال، غرسه في الماء ليقيس عمقه فابتلع النهر الغصن وسحبه بقوّة من يده، تعجبّ وعاد باحثاً عن غصنٍ آخر وتكرّر الأمر، في المرة الثالثة وبينما يضع الغصن بحرص في مكان آخر جذبه شيء ما بقوّة شديدةٍ فسقط في النهر، سحبته تيارات الماء بقوّة إلى أسفل وكان يقاوم بينما تشّكلت حوله دوامة جعلته يغوص في الأعماق، كأن هناك ضوءاً ينير قاع النهر، ابقى عينيه مفتوحتين كعادته عند السباحة، ولأنّه اعتاد على كتم أنفاسه لدقائق طويلة لم يشعر بضيق في التنفس، تلّفت حوله باحثاً عما جذبه فلم يظهر له شيء، بدأ يحرّك جسمه نحو الضوء، شيئاً فشيئاً بدأ يقترب من مصدره، كانت هناك فتحة دائريّة تحكمها الطحالب الخضراء من كل جانب، أدخل رأسه فيها فأذله المنظر الرائع فدخل في الحال وبدأ يسبح للأعلى فالأخلى حتى رفع رأسه فإذا هو في مغارة غطت جدرانها الطحالب الخضراء المضيئة، صعد على الأحجار واقترب يتحسّسها بيده، أراد أن يقطع جزءاً منها فمَد يده واستلّ الخنجر الذي كان يخفّيه في حزام بنطاله، بدأ يقطع الطحالب فإذا بها تسقط بين يديه تباعاً وكأنّها متصلة برباط واحد! ليظهر خلفها كتابات غريبة على الجدران، بدأ يزيل بقاياها واحدة تلو الأخرى وانهمك في الأمر حتى خلا الجدار من الطحالب، تراجع للخلف فإذا هي عبارات مكتوبة بلغة غريبة، كان بينها رموز مرسومة لم يدرك كنهها، تمنى لو أنه يستطيع قراءتها، لكنّه لم يتمكّن.

على يمينه كان هناك ممّر طويلاً، استند إلى الجدار ورفع رأسه ونظر بتأنيٍ وكأنّه يدرس طوبوغرافية المكان، تناهى إلى سمعه أصوات عجيبة، وكانت أحاديث مهمّة يتعدد صداتها في جوف الممر! سار فيه لمسافة قصيرة وكانت الطحالب الخضراء على الجدران تثير الطريق، توقف حيث بدأت العتمة تغشى الممر، وإذا بضوء يشع من حقيبته، أخرج الكيس الجلدي الذي وضعه الجدّ من حقيبته، إنّها قطع الكريستال! والتي كانت قد تحولت لقطع من

الفحم عندما داهمه اللصوص في الغابة، وها هي قد عادت لحالتها الأولى تبرق من جديد!

أمسك واحدة منها فازداد توهجها وأنارت المر، سار حتى بدأ وهجها يخفت بالتدريج فاستبدلها بأخرى، شعر أن ذاك الممر لا نهاية له، كانت هناك فتحة علوية يتسلل منها ضوء الشمس، على الجدار كانت هناك بروزات حجرية على مسافات منتتظمة وكأنها درج يستخدم للصعود تجاه تلك الفتحة، تسلّقها في الحال واقترب من الفتحة، كان غطاء الفتحة مصنوع من خشب غليظ وقوى، صنع بإتقان بحيث يعلو فوق سطح الأرض بمساحة ضئيلة جداً لا تظهره بينما على جانبيه كانت هناك فتحة مستطيلة ورفيعة تتبع للناظر مراقبة الطريق ورؤيا من يقف فوق رأسه بوضوح، رأى "أنس" فتاة جميلة تجلس وتغشى بصوت خفيض، تلتفت يميناً ويساراً وكأنها تنتظر وصول شخصٍ ما! وثبتت من مكانها فجأة فظنّ "أنس" أنها انتبهت لوجوده تحت قدميه، لكن الشاب الذي اقترب من مكانها كان هو سبب وثوبها فرحاً بقدومه، قالت وعيناها تقطران حباً وشغفًا:

- كنت أعلم أنك لن تصبر وستأتي في نفس الموعد؟ هل تخلصت من الهداية؟ وهل أنت بخير؟

أومأ برأسه ففهمت أنه قد تخلص منها، ثم تراجع وجلس يلهث كفرسٍ جريح وقال:

- أنا بخير، وددت فقط أن أخبرك بشيء هام.

ابتسمت برقه وقالت بصوت متهدج:

- خشيت ألا أراك مرة أخرى.

سار مبتعداً وقال بصوت يشوبه القلق:

- قد لا ترينني مرة أخرى بالفعل.

أغلقت فمه بيديها على الفور، ثم قالت :

- لا تقل هذا.... أرجوك.

عائقته بينما كان يقاومها ويبعد يديها عنه وفجأة! قطع حوارهما نداءً من فتاة أخرى تغطي وجهها بطرف خمارها وتتصحّب في فزع:

- مولاتي.. مولاتي.

أسرع الشاب بالهروب وبقيت الفتاة مكانها تتلتفت في خوف، نظر "أنس" تجاه الشاب قبل أن ينصرف وتمعن في وجهه، إنه.... "كلودة"!! والذي كان قد بدأ يظن أنه ملاك يسير على الأرض!

كان "أنس" يشعر وكأن هناك من سكب معيناً من الماء الساخن فوق رأسه، كانت دماءه تفور وتغلي، أراد أن يصرخ ويقفز فوق الأرض فيحطّم رأس "كلودة"، اقتربت جارية من تلك الفتاة وأخبرتها أن تسرع إلى القصر، فالأميرة "نبّرة" تطليها في الحال!. بعد انتصافهما حاول "أنس" أن يريل الغطاء ليقصد من الفتاحة لكنه لم يتمكن من رفعه، عاد لسيره داخل هذا الممر العجيب.

وجد "أنس" فتحة ضيقة يبدو أن هناك من سدّها بالحجارة، بدأ يزيّلها واحدة تلو الأخرى بحرص شديد، عندما أزاح بعضها وأصبح من السهل أن يدخل رأسه ليرى ما وراءها ألقى واحدة من قطع الكريستال فسقطت على الأرض وتوهّجت بقوّة فأضاءت المكان، تملكته الدهشة عندما وجد غرفة مستديرة تبدو كأنها نُحتت في جوف صخرة عملاقة، أزال باقي الأحجار الصغيرة ودلّف الغرفة وقد تملكته الرهبة، وجد تابوتاً في صدر تلك الغرفة، وأخر عن يمينه، كان غطاء كل منهما يبدو كتحفة فنية رائعة، حيث وزعت النقوش العجيبة عليهما بشكل هندسي بديع وطعّمت بألوان زاهية، شذرات ذهبية كثيرة كانت منتشرة على الأرض هنا وهناك، وكأنّ هناك من حطم شيئاً ما! فتح "أنس" التابوت يتوقع أن يجد مومياء، فأجفل عندما رأى هيكلًا

عظمياً على صدره قلادة تشبه التي يرتديها! والتي جعلت "المجاهيم" يتركونه يمرون بسلام، على وجه الميكل العظمي كانت هناك بقايا قناع ذهبي محطم، أدرك أنّ هناك من حاول نزع القناع أو ربما نزعه وأعاده إلى مكانه فتسبب في تلك الفوضى، فضلّ ألا يلمسه واتجه إلى التابوت الآخر، وكان أصغر حجماً وكأنّ صاحبه أقصر طولاً، فوجد هيكلًا عظيمياً آخرًا بلا قناع وبلا قلادة! تلتفت يميناً ويساراً فلم يجد ما يلفت نظره، كانت الغرفة خالية وباردة ومهيبة، تشبه القبر! أغلق التابوت الثاني، وعاد للأول فأغلقه، وقبل أن يخرج من

الغرفة انطفأ بريق قطعة الكريستال فجأة، وشعر "أنس" وكأنه يسقط في بئر سحيق، ابتلעהه الظلام، ودارت رأسه فغاب عن الوعي لفترة لا يعلم قدرها! فتح عينيه فوجد نفسه في نفس الغرفة وقد غمرها النور، وأمامه يجلس رجل مهيب الطلة له سحنة مريحة ونظرة هادئة وابتسامة ودية، وعلى يساره يجلس رجل قصير لم يرفع عينيه عما أمامه، فقد كان مشغولاً بالكتابة على أوراق البردي باهتمام شديد، اعتدل "أنس" وحاول أن يتحدث لكن صوته لم يخرج من حلقه، رفع يده يتحسس عنقه ثم فمه فلاحظه الرجل وقال شيئاً ما بلغة لم يفهمها "أنس"، كان يرفع كفه وهو يحدّثه، بدت تعbirات وجهه مسمالة ومطمئنة، لكن "أنس" لم يفهم شيئاً من كلامه، اعتدل الرجل في جلسته وأقام ظهره، ثم نصب عنقه وأغمض عينيه ووضع كلتا يديه على ساقيه، ثم ركز في عيني "أنس" وقال الكثير من الجمل، واحدة تلو الأخرى، كررها أحياً ثلثاً، وبعضاها كان يقولها وهو يشرحها بيديه، جملة منها قالها وهو يمسك بالقلادة على صدره، وأخيراً قال تلك الكلمة التي قلبت حياة "أنس" رأساً على عقب... "إيكادولي"... "إيكادولي"

كررها كثيراً ثم اختفى كل شيء، وأفاق "أنس" من تلك الإغماءة التي أصابته، فوجد التابوتين على حالهما، فخرج من الغرفة وقد حفظ الكلمات، كان يكرر ما قاله الرجل بالتفصيل! وكأنه طبع الكلمات بتلك اللغة الغريبة على ذاكرته ولقّنها له! شعر بإرهاق ذهني كبير، فأخرج خنجره وحركه في طبقات الهواء، قرر أن يعود من حيث أتى وبطريقة سريعة فسلك فجوة فتحها بخنجره كما فعل من قبل وانتقل إلى سطح ماء النهر، جلس منها القوى، كان الماء لا يزال يقطر من جسده، سار لمسافة قصيرة مخلقاً وراءه غدراناً صغيرة من الماء على الأرض، وصل أخيراً إلى جذع شجرة مقطوعة فجلس عليه يتقطّ أنفاسه.

لا بد أن يعود لـ"كلودة" ويسأله عن تلك الفتاة! ولماذا يفعل هذا! كانت تلك الصورة المثلالية التي رسمها لـ"كلودة" في ذهنه قد بدأت تتحطم، ظلت شاباً رائعاً في كل شيء، ولكن يبدو أنه خبيث يظهر غير ما يبطن ويخدع الناس.

انتشر نفسه من هذه الأفكار، وبدأ يفكّر في العبارات التي حفظها ويكررها

وهو لا يفهم كنهها، والكتابات الأخرى التي رأها على الجدران في المغارة، خلع قميصه ليعرصه فأزال القلادة عن عنقه دون قصد منه فلمح طيفاً فأسرع يرتد بها مرة أخرى، كان زعيم "المجاهيم" الذي انشقت عنه الأرض واقترب منه قائلاً:

- انتبه لقلادتك لتحي نفسك، ما زال أحد رجالنا غاضباً منك لأنك أخرجت الفتاة والرضيعة من الغابة وألبستهما القلادة، وحافظ عليها إكراماً لجدهك "أبادول"

ردد زعيم "المجاهيم" لقب الجد بإنجاح وهو يضع يده على صدره، استدار ليصرف... فأسرع "أنس" ينادي عليه ويستعمله، سأله عن تلك الغرفة التي عثر عليها أسفل النهر، والقلادة التي رأها على صدر البيكل العظمي داخل التابوت، وذاك الرجل الذي رأه فيما يشبه الغفوة السريعة، قال زعيم "المجاهيم" بعد أن أنهى "أنس" كلامه:

- إنه تابوت الأمير "أواوا"، كان هنا منذ وقت طويل جداً، هارباً من عمه ومعه خادمه المخلص "سريل"، دلفا إليه من خلال فتحة في أرض حديقة قصر عمه، ما زالت الفتحة موجودة، وما زال القصر قائماً حتى الآن، وما زال الظلم يسكنه، تتجدد جدرانه وتتجدد معها الحاكم الظالم في مملكة الجنوب، كنت أجلس دون أن يراني الأمير "أواوا" وأستمع إلى ما يميله على خادمه من حكم وقصص، ورأيته يكتب على جدران ذاك الممر تحت النهر عبارات كثيرة.

قاطعه "أنس" متعجبًا:

- وهل كنت تفهم لغته؟

- بالتأكيد! وقد أظهرت نفسي له ولخادمه، وتحدىت معه، كان هذا قبل أن نسكن الأرض هنا، نشأت بيننا صداقة وأخبرته عن قصّة قومي وكان ينصت لي، عدت في مرّة من المرات ووجده مقتولًا هو وخادمه، فأحضرت تابوتاً له وأخر لخادمه، ودفنتهما كما كان يفعل قومهما، وألبسته قلادة تخصّني إكراماً له.

- حسناً، سأخبرك ببعض العبارات التي سمعتها من شخص ما أظنّه الأمير "أواوا"، رأيته فيما يشبه الرؤى عندما فقدت الوعي داخل تلك الغرفة أسفل النهر.

وبدأ "أنس" يُذكر ما سمعه بتلك اللغة التي لا يعرفها! وكان زعيم "المجاهيم" ينصلت إليه باهتمام ويرجم له، أخبره أن تلك هي لغة الأمير "أواوا"، اللغة النوبية الأصيلة، كان الأمير يطلب منه أن ينتبه لما هو قادم، فهناك من يطلبه ويطارده، وأن عليه ألا يقع في الفخ. وطلب منه أن يهتم بالأرقام، ويسأل عنها ويتبعها، فهي المفتاح لكي يصل إلى الحقيقة.

لم يتمكن "أنس" من تذكّر آخر كلمات الأمير "أواوا"، كرر الأمير عشر مرات كلمة "إيكادولي" وتبعها بعبارات كثيرة وكأنه يشرح شيئاً ما! لكن "أنس" لم يتمكن من إعادة إلقائها على مسامع زعيم "المجاهيم"، انتهى اللقاء واختفى الرعيم بعد أن جدد تنبئه لـ"أنس" بألا يخلع القلادة وهو يسير في الغابة، وعاد "أنس" لسيره بجوار النهر، ما عادت صورة الصقر الأبيض المنعكسة على صفحة الماء تشغله، ألقها كما ألف كل شيء غريب حوله، وكأنه يعيش على أرض تلك المملكة منذ أمد بعيد.

على غير العادة هبّت رياح دافئة فبدأت ملابسه تجفّ، وكأن الهواء يربّت على كتفيه ليشجعه على البقاء، والصمود.

وفجأة.....



الغابـة

مرّ من أمامه سهم كاد يخترق صدغه، تخشبّت أطرافه، بينما خرجت منها صرخة عالية! وقفـت أمامه مرتبـكة وهي تضع يدها على فمهـا، هـرولـت نحوه وقالـت بصـوت يـحمل قدـراً من الانـفعـال والـدهـشـة:

- آسفـهـ، لمـ أـنتـبهـ لـمـرـورـكـ.

- "ـمـرامـ"! ماـذاـ تـفـعـلـينـ هـنـاـ؟

- أـتـدـرـبـ عـلـىـ الرـمـيـ بـالـقـوـسـ.

رفـعتـ قـوسـهاـ وـاسـتـدارـتـ وـأـشـارـتـ بـيـدـهـاـ مـاـ تـحـمـلـهـ عـلـىـ ظـهـرـهـاـ، فـرـأـيـ كـتـانـةـ السـهـامـ وـقـدـ عـلـقـتـهـاـ عـلـىـ ظـهـرـهـاـ.

اقـرـبـ "ـأـنـسـ"ـ مـنـهاـ وـلـاحـظـ مـلـابـسـهاـ الـمـتـسـخـةـ وـكـائـنـهاـ قـدـ تـدـحرـجـتـ لـلـتـوـ فيـ الـوـحـلـ!ـ كـسـرـتـ طـرـفـهـاـ وـكـائـنـماـ أـشـفـقـتـ أـنـ يـنـظـرـإـلـيـهاـ وـهـيـ بـتـلـكـ الـهـيـنـةـ الـمـزـرـيةـ،ـ فـسـكـتـ وـلـمـ تـبـنـسـ بـبـنـتـ شـفـةـ،ـ كـانـتـ لـدـيـهـاـ نـظـرـةـ شـفـافـةـ كـالـبـلـورـ،ـ تـبـدوـ تـلـكـ الـفـتـاةـ عـلـىـ فـطـرـتـهـاـ نـقـيـةـ،ـ حـاـوـلـ أـنـ يـتـحدـثـ لـيـزـيلـ عـنـهـاـ الـحـرـجـ فـتـقـلـ عـلـيـهـ ذـلـكـ،ـ مـنـ دـوـنـ أـنـ يـعـرـفـهـاـ مـنـ قـبـلـ..ـ بـدـأـ يـحـسـ أـنـ لـدـيـهـاـ شـيـئـاـ مـاـ يـرـبـطـهـمـاـ،ـ وـكـائـنـهـماـ يـقـسـمـانـ الـوـجـعـ نـفـسـهـ،ـ أـطـرـقـ مـفـكـرـاـ ثـمـ قـالـ:

- مـنـ أـينـ أـتـيـتـ بـهـذـاـ القـوـسـ؟

مـدـتـهـ نـحـوـ بـلـطـفـ فـأـمـسـكـهـ وـبـدـأـ يـتـفـحـصـهـ أـمـامـهـاـ وـهـيـ تـقـوـلـ:

- مـنـ شـابـ يـمـتـهـنـ صـنـاعـةـ الـأـقـواـسـ وـالـسـهـامـ وـأـشـيـاءـ أـخـرىـ،ـ دـكـانـهـ يـقـعـ قـرـيبـاـ مـنـ بـيـتـ "ـأـشـرـيـاـ".

رمقها سريعاً فلاحظ آثار الوحل على وجنتها، لاحت ابتسامة على شفتيه،
يبدو أنها لا تعلم أن وجهها ملطخ بتلك الطريقة، أخفى ابتسامته وسألها
متصنعاً الاهتمام وهو يعيده إليها:

- ومن علمك الرمي بالسهام؟

- "الصهباء".

- ومن هي "الصهباء"؟

- امرأة جلدة وقوية البنية، التقيت بها بعد أن وصلت إلى المملكة، تدرب
معظم فتيات مملكة الشمال على الرماية.

سؤالها باهتمام:

- كم ثمن القوس؟

- يختلف حسب حجمه.

- ما اسم العملة التي يستخدمونها هنا؟

أخرجت من جيبها كيساً من الجلد يحتوي على بعض العملات الفضية،
والذي كانت قد أعطته لها "أونقي" قبل أن تعتقها وأعطيته له وهي تقول
بلطف:

- لو التقى باللغاتير أولاً لأمدك "الزاجل الأزرق" بمال، فالحوراء لا ترك
محارباً يمضي دون مال أبداً.

- أعطاني "كلودة" بعض المال بالفعل، وددت فقط أن أتأكد من اسمها،
فقد اختلط علىي الاسم، احتفظي بمال، فأنا لا أحتاجه الآن، شكرًا لك يا
"مراٍم".

"مراٍم"! لقد نطق باسمها!!.. وقعت تلك الكلمة منه موقعاً بليغاً في نفسها،
فلم تذكر أنها سررت بكلمة قيلت لها من كلمات الإطراء سرورها بنطقه
لحرروف اسمها.."مراٍم"! وكأنها لم تعرف اسمها من قبل.

أخرجت عملة من الكيس وقالت:

- كِشْتَان.

ثُمَّ رفعت العمْلَةَ أَمَامَ عَيْنِهَا وَقَالَتْ وَهِيَ تُحْمِلُقَ في الصُّورَةِ المُنْقُوشَةِ عَلَيْهَا:
- وَتَلِكَ صُورَةُ أَوَّلِ مُحَارِبٍ عَلَى أَرْضِ الْمُلْكَةِ.

انْحَنَى "أَنْسٌ" وَحْدَقَ فِي الصُّورَةِ، كَانَ كَلَاهِمَا يُرْكَزُ عَلَى الْعَمْلَةِ، لَوْلَا أَنَّهَا حَرَكَتْ يَدَهَا فَجَأَهَا فَغَرَسَ شَعَاعَ عَيْنِيهِ دُونَ قَصْدٍ فِي عَيْنِهَا فَتَلَاقَتْ نَظَارَتِهِمَا مَجْدَدًا كَيْوَمَ أَمْسٍ عَلَى غَيْرِ مُوْعِدٍ، عَيْنَاهَا الوَاثِقَتَانِ وَفَوْقَهَا حَاجِبَاهَا اللَّذَانِ لَوْ زَحَفَا قَلِيلًا لَاقْتَرَبَا أَصْبَابَهَا بِالْإِرْتِبَاكِ، كَانَتْ تَلِكَ الْمَرَّةُ كَافِيَةً لِكَيْ يَلْاحِظَ فِيهَا لَوْنَ عَيْنِهَا الرَّائِعَتَيْنِ، كَمَا لَاحَظَ أَنْ تُورَمَ عَيْنِهَا الْمَصَابَةَ قَدْ خَفَّ وَتَغَيَّرَ لَوْنُ الْهَالَةِ الْزَّرَقاءِ حَوْلَهَا لِلَّوْنِ آخَرِ، أَشَاحَ بَنْظَرَهُ عَنْهَا، مَرَّتْ بِذَاكِرَتِهِ صُورَتِهَا وَهِيَ بِزِينَتِهَا فِي السُّوقِ عَنْدَمَا رَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً، تَعْجَبَ كَيْفَ كَانَ مَتَضَرِّرًا عَنْدَمَا رَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً، وَكَيْفَ الْآنِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَهُوَ يَسْتَرْجِعُ صُورَتِهَا فِي مَخْيِلَتِهِ! اسْتَبَعَدَ الْخَوَاطِرُ الَّتِي هَجَمَتْ عَلَى رَأْسِهِ مُتَكَالِبَةً تَزَيَّنَهَا لَهُ! فَالْتَّفَتْ وَكَانَهُ يَنْفَضُّ رَأْسَهُ، بَاتْ يَشْعُرُ بِالْخَطَرِ لِمَجْرِدِ قَرْبِهَا مِنْهُ، هُوَ غَرِيبٌ عَنْهَا فَكَيْفَ يَسِيرُ هَكُذا مَعْهَا! لَا بدَّ أَنْ يَحْفَظَهَا مِنْ نَفْسِهِ.

عَمْرَهُ شَعُورٌ غَرِيبٌ فِي رَهْبَةٍ وَفِيهِ ضيقٌ وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْفَرَحِ! رَمْقَهَا بِطَرْفِ خَفِيٍّ ثُمَّ قَالَ:

- هَلْ وَاجَهْتِ مَتَاعِبَ فِي مَعَالِمَاتِكَ مَعِ النَّاسِ هَنَا؟

- بِالْتَّأْكِيدِ

- هَلْ لَدِيهِمْ بَعْضُ الْمَعْقَدَاتِ الْغَرِيبَةِ؟

- مَثَلٌ؟

- أَيْ شَيْءٍ! النَّاسُ يَخْتَلِفُونَ، مَثَلًا قَرَأْتُ أَنَّهُ مِنَ الْخَطَأِ فِي إِحدَى الْبَلَادِ أَنَّ تَهْدِي زَهْوَرًا لِلشَّخْصِ بَعْدَ زَوْجِي لِأَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَهُ فَالْأَلْ سِينًا وَمَزْعَجًا لِأَنَّهَا لَا تَهْدِي بَعْدَ زَوْجِي إِلَّا فِي الْجَنَازَاتِ فَقَطَ.

- لَكُنَّا لَسْنَا فِي تَلِكَ الْبَلَادِ وَلَا فِي أَيِّ بَلَدٍ تَعْرَفُهَا أَنْتِ مِنْ قَبْلِهِ.

- نَعَمْ، لَيْتَنَا كَيْنًا هَنَالِكَ... أَوْ فِي أَيِّ مَكَانٍ أَسْتَطِعُ فِيهِ أَنْ أَخَاطِبَ أُمِّي بِالْهَاتِفِ، فَقَدْ اشْتَقْتُ إِلَيْهَا.

- أتكره المملكة هنا؟

- لا أدرى، أشعر بمزيج من المشاعر، لكنى لا ريب أشتاق لأهلى.

- ربما لو انتقل أهلنا معنا لكان أفضل من عالمنا

- نعم... ربما

- أتدرى يا "أنس"، بعض من التقييت بهم هنا يقولون إن قصص الحياة لا بد ألا تدون، يريدون أن تكون الحياة على هوى من يعيشها، لحظة بلحظة، استمتع بحياتك فقط ولا تهتم بالماضي ولا تفكر في المستقبل واغنم من الحاضر لذاته فليس من طبع الليالي الآمان.

سارت "مراام" تجاه سهامها والذي استقر في جذع شجرة قريبة منها لتقوم بتنزعه مرة أخرى، انزلقت قدمها وكادت تسقط في الوحل مرة أخرى، أسرع "أنس" وحاول أن يمسك يدها قبل أن تسقط، اضطربت وأبعدت يدها عن يده و كان ناراً ستبشعها فتراجع إلى الوراء وعيناه الزائفتان لا تفارق وجهه. مررت لحظات قبل أن تستعيد توازنها، قال وهو يجول بنظراته في المكان متفحّصاً أرضه:

- لماذا تتمرنين في تلك المنطقة، وما حاجتك لهذا التمرن أصلاً؟ الأرض زلقة! كانت تُمطر طوال الليل!

تلون وجهاً حياً منه، فقد جاءت تبحث عنه بعد أن أخبرها "كُومبو" عندما ذهبته تبحث عنه في دكان العطارة أنه سيقصد الغابة، فاشترطت قوساً وسهاماً وهرولت به نحو الغابة، كانت تخشى أن يرحل مكان ما ولا تعثر عليه مرة أخرى، وهي تود العودة لديارها سريعاً، قالت بانفعال:

- كيف أتيت للغابة دون أن تمّ علي لتصحبني؟ ألم نتفق على أن تعيني اليوم إلى القصر؟

- كنت سأمرّ عليك، أتيت على عجلٍ لأمر ما، وكنت سأعود ثُمَّ قال وعلى وجهه تلوح ابتسامة:

- تذكريني بأخي "حبيبة"، تشبهك كثيراً، نفس العصبية ونفس الطريقة في الهروب من السؤال

- أي سؤال!!

- ما حاجتك لهذا التمرن! ولم تلك المنطقة بالذات! أنت ضعيفة البنية ولا تحتاجين إلى قوس وسهم، حتى أني حائر كيف أمضيت رحلتك مع كتابك هنا!

قالت على استحياء:

- لا أستطيع التوغل في الغابة وحدي أكثر من ذلك، هنا تحقق الصور فوق الأشجار وأستأنس بوجودهم، أتا داخل الغابة فكلما توغلت قل الأصدقاء، أخشى أن يعود تجأر العبيد مرة أخرى.

- تجأر العبيد واللصوص يمرون في الجهة الغربية من النهر، لا تخافي فنحن في الجهة الشرقية.

ثم تنهَّد وسألها وكأنه يسأل طفلة صغيرة:

- لا بد أنك تستيقن لبيتك يا "مراام"؟

ترقرقت دمعة في عينيها وقالت بتائراً:

- نعم... أوحشتني أمي كثيراً.

- والدك؟ وأشقاؤك؟

- والدي توفاه الله وأنا صغيرة، وليس لدى أشقاء.

- آسف.

- لا عليك.

أخرج خنجره وقال لها بجدية:

- اسمعي، ذاك الخنجر أستطيع أن أنتقل به من مكان لآخر، انتقلت به لقصر "الحوراء"، كما انتقلتاليوم إلى الغابة بسرعة، سأفتح فجوة في الهواء الآن وأنقلك إلى القصر.

كانت "مراام" تحدّق في وجهه باستغراب، حرك خنجره في الهواء وقال "قصر الحوراء" فانبثقت الفجوة المتلونة أمامهما، كانت الألوان تموج في بعضها البعض، وقفـت "مراام" مرتبكة أمامـها، سـألـها "أنـس":

- سـأـدـخـلـ قـبـلـكـ

- لا تـرـكـيـ وـحـديـ هـنـاـ!

- اـدـخـلـيـ إـذـنـ قـبـلـيـ.

- لا...لا

- لا بدـ أنـ يـدـخـلـ أحـدـنـاـ قـبـلـ الآـخـرـ،ـ هـيـاـ يـاـ "ـمـراـامـ"

- لا أـسـتـطـعـ دـخـولـ هـذـاـ الشـيـءـ!ـ بـيـمـاـ هوـشـيءـ خـاصـ بـكـ،ـ وـأـنـاـ أـخـافـ!

- هـيـاـ يـاـ "ـمـراـامـ"ـ سـيـخـتـصـرـ هـذـاـ الـكـثـيرـ مـنـ الـوقـتـ،ـ بـدـلـاـ مـنـ أـنـ نـسـيرـ تـلـكـ
الـمـسـافـةـ الـكـبـيرـةـ

- الأـفـضـلـ أـنـ نـسـيرـ..ـلـنـ أـدـخـلـ هـذـاـ الشـيـءـ..ـمـسـتـحـيلـ!

قالـتـ جـملـهـاـ الـأـخـيـرـةـ صـارـخـةـ،ـ كـانـتـ تـبـدوـ مـرـتـبـكـةـ وـخـائـفـةـ لـلـغـاـيـةـ،ـ اـخـتـفـتـ
الـفـجـوـةـ فـجـأـةـ وـكـأـنـهـاـ كـانـتـ تـنـصـتـ لـحـيـثـهـمـاـ!ـ رـانـ عـلـمـهـمـاـ صـمـتـ ثـقـيلـ،ـ كـلـاهـمـاـ
يـتـحـرـجـ مـنـ تـواـجـدـهـ مـعـ الـآـخـرـ،ـ لـكـثـمـاـ يـأـنـسـانـ بـعـضـهـمـاـ،ـ أـرـادـ "ـأـنـسـ"ـ أـنـ يـخـفـفـ
عـنـهـاـ،ـ طـلـبـ أـنـ يـجـربـ الـقـوـسـ،ـ تـنـاـوـلـهـ مـنـهـاـ وـقـالـ مـازـحاـ:

- قـوـسـكـ خـفـيفـ جـدـاـ،ـ بـيـدـوـ كـالـلـعـبـةـ!

مـدـتـ يـدـهـاـ إـلـىـ كـنـانـةـ السـهـامـ وـسـحـبـتـ سـهـمـاـ وـنـاـوـلـتـهـ لـهـ قـائـلـةـ:

- جـرـبـ بـنـفـسـكـ.

- أـرـاكـ تـقـفـينـ قـرـيبـاـ مـنـ مـرـمـاـيـ،ـ الشـجـرـةـ تـبـعـدـ عـنـكـ عـشـرـ خـطـوـاتـ تـقـرـيبـاـ.

- لا أـحـسـ الرـمـيـ إـنـ اـبـتـعـدـتـ أـكـثـرـ مـنـ تـلـكـ الـمـسـافـةـ.

رفع "ـأـنـسـ"ـ أـحـدـ السـهـامـ أـمـامـ عـيـنـيهـ وـقـالـ:

- اخبريني يا "مراام" ما معنى تلك الأسماء؟.. "كلودة"، "أونتي"، "أشريا"، "نَبَرَة"!
ارتبتكت "مراام" عند سماع الاسم الأخير وسألته بارتياه:
- "نَبَرَة"! أين سمعت هذا الاسم؟

هزّ "أنس" كتفيه، فضلّ ألا يخبرها عن النهر وما حدث فيه وقال مدعياً
الالا مبالاة:

- سمعت أحدهم يذكر الاسم أمامي.
دارت بعينيها في المكان وقالت وما زالت علامات القلق مرسومة على وجهها:

- "كلودة" أي المولود بعد الشهر السابع وهو من أسماء الذكور الشائعة هنا،
و"أونتي" تعني القمر ليلة البدر، "أشريا" تعني الفتاة السمححة والحلوة، أما
"نَبَرَة" فتعني... المرأة الجميلة، وكلّها أسماء نوبية قديمة.

حرّك "أنس" كتفيه وقال:

- الأشخاص هنا غرباء!، أشعر أنهم من بلاد مختلفة، يختلفون في الملامح
والملابس! حتى البيوت تختلف!

- كل قرية هنا تختلف تماماً عن الأخرى.

- وكذلك الأشخاص... أليس كذلك يا "مراام"؟
رفعت "مراام" حاجبيها وقالت:

- ربما اختلطت الأنساب، ومررت سنون طويلة، ورحلوا من مكان لمكان..
نحن نعيش الآن في مكان عجيب، هناك العديد من القرى حولنا، الغابة
تعتبر شيئاً منفصلاً يهابون الاقتراب منها، لكن ما يحرّنني هو تلك القرى.

- ما بها!

قالت "مراام":

- كل قرية تختلف عن الأخرى، لو دخلتها وتعاملت من سكانها ستشعر
وكأنك قد انفصلت عن القرى الأخرى وما فيها، حاول وجرب بنفسك.

- هل جربت أنتِ من قبل؟
- بالتأكيد.
- وماذا رأيت؟
- لا أدرى كيف أصف لك...لكلها تجربة تستحق، وتبقى مملكة الشمال حيث قصر "الحوراء" أحبيهم إلى قلبي.
- ولماذا؟
- لأنني هناك..أشعر بالأمان يا "أنس".
- بالمناسبة، هل تعلمين يا "مَرَام" أين نحن الآن؟، أين موقع تلك المملكة على الخريطة؟
- لا... لا أعرف يا "أنس"... أشعر أحياناً أننا بين السطور، تُرفع وتنُجز ونُكسر من أجل المعاني.
- ابتسם بسخرية ثم قال:
- إذن نحن في مملكةٍ لا محل لها من الإعراب.
- وضع "أنس" السهم في كبد القوس ورفع ذراعه بثباتٍ، باعد بين ساقيه وأغلق إحدى عينيه وركّز الأخرى على الهدف، جذب السهم بقوّة ثم كتم أنفاسه وتركه فجأة ليستقر في وسط بقعة سوداء كانت على جذع شجرة بلوط اتخذتها "مَرَام" مرمى لسهامها، ابسمت عندما رأت السهم وقد رشق فيها وقالت بإعجاب:
- يبدو أنك ماهرًا جدًا يا "أنس".
- المسافة قصيرة، لا بد أن أتدرب على الرمي من مسافات أطول، ولكنني لا أظنّ أنني سأحتاج للقوس والسيف هنا! أليس كذلك؟
- ربما تحتاجها، حاول أن تتعلم كل شيء في تلك المملكة.
- ثم تحضّرت ملابسها بنظرة سريعة، كانت أطراف سرواله ما زالت مبتلة، سألته بفضول:

- هل سقطت في الماء؟

- نعم.

- أين؟

- النهر الأخضر.

- ماذا قلت؟

- النهر الأخضر... ذاك النهر الذي يقطع الغابة، تعرفيه بالتأكيد!

- اتبعني أرجوك.

سارت "مَرام" بخطوات سريعة نحو النهر، بدت متحفزةً وزاولتها حالة نشاط فجائي، تخطت الأشجار الكثيفة التي تفصل المكان الذي كانا يقفان فيه عن شاطئ النهر ووقفت على حافته دون أن تلتفت لـ"أنس" الذي تبعها حتى وقف بجانبها ونظر كلاهما لأنعكاس صورته في الماء، قالت بصوت خافت:

- أرأيت!

حملق في صفحة ماء النهر وقال بهدوء:

- نعم رأيت، صقور بيضاء.

- هكذا تظهر صورنا في الماء، صقور بيضاء، نحن المحاربون فقط من تظهر صورهم على سطح ماء هذا النهر بتلك الطريقة.

- لماذا يا "مَرام"؟

- لا أدرى! أخبرتني "الحوراء" أيضًا أننا نستطيع التحليق والطيران داخل نطاق الغابة وحول الجبل الأحمر، وإن حاولنا وتدربنا سنتين على الأمر، لكنني لم أجرؤ يومًا على تلك الفعلة، حاولت القفز مرتة على درج القصر وحلقت للحظات فراودني شعور بالخوف الرهيب، حاول أن تجرب يا "أنس"

- لا أظنني سأفعلها! ولن أجريها!

- حاول أن تجرب كل ميزة تعرفها عن نفسك كمحارب، فلقد فقدت الكثير من مميزاتي التي اكتشفت بعضها ولا أدرى السبب!
- عاد "أنس" يحملق في صورة الصقر المنعكسة على سطح ماء النهر وسألها:
- وماذا عن "الحوراء" و"الزاجل الأزرق" هل تظهر صورهما أيضاً هكذا؟
- أتمنح! "الحوراء" وعشيرتها!! لا يجرؤ أحد منهم على دخول الغابة يا "أنس".
- لماذا؟
- يفقدون أبصارهم، لا يرون إلا الظلام، وربما يفقدون حياتهم، تلك الغابة قد تتبع كل أهل المملكة في لحظة.
- ولم أنت هنا إذن! ألا تخافين؟
- كنت أخاف، وأرتجف، لم أجرب على دخول الغابة إلا بعد أن شجعني " قطرة الدموع".
- ومن هي؟
- أنشى الصقر التي أحضرتني إلى هنا، ألم ترها؟ إنها زوجة "الرمادي".
- أشارت "مرام" إلى وادٍ على أطراف الغابة بالقرب من الجبل الأحمر جهة الشرق، أخبرته أنَّ "الرمادي" و" قطرة الدموع" يعيشان هناك في كوة بالجبل، كانت المسافة طويلة، ترددًا قليلاً قبل أن يقررا السير إلى هناك، فقد رفضت "مرام" استخدام الخنجر للانتقال إلى هناك، ما زالت تخاف، كانت تأمل أن تحملها " قطرة الدموع" وتعيدها في الحال إلى ديارها. بعد نحو ساعة من السير وصلا إلى هناك. حلَّق "الرمادي" فوقهما وشاركته " قطرة الدموع" واقترب كلاهما من "مرام" و"أنس" ووقفا أمامهما يؤدِيان التحية، قال "الرمادي":
- مرحباً "أنس" ، أتيت في الوقت المناسب، حمدًا لله أنت عثرت على "مرام".
- مرحباً يا صديقي.
- قالت "مرام" بتلهف:

- " قطرة الدموع" كيف أنت؟ وكيف هو جرحك؟

أجابتها " قطرة الدموع" وهي تحرك جناحها:

- بخير كما ترين

- هل ستعيدينني الآن إلى بيتي؟

نَكَسَتْ " قطرة الدموع" رأسها وقالت:

- ليس قبل أن يصدر "سامي كول" الأمر المباشر لي يا "مَرام"، تعلمين أن الأمر ليس بيدي.

- إذن أحمليني إلى القصر

- لن أستطيع

- حق القصر!... لماذا!!

- هذا أمر من الحكيم "سامي كول" ، لن أحملك إلا بتوجيهه مباشر منه بدا الإحباط الشديد على "مَرام" ، ولاحظ "أنس" ما أصواتها، كان يرتجف تحت موجة عنيفة من الشعور بالذنب تجاهها، أراد "الرمادي" أن يخفف عنهمما فقال موجهاً كلامه لـ"أنس":

- شاركانا احتفالنا بالزواج.

لم يترك له "الرمادي" فرصة سؤاله! بل حلّق في الحال، التفت "أنس" نحو "مَرام" وسألها بتعجب:

- ألم تخبرني أن " قطرة الدموع" زوجته؟

- بلى أخبرتك، وهي كذلك بالفعل، ولكننا نشهد احتفالاً بطريقة ما، يعود الزوجان إلى نفس الموضع الذي عشاوا فيه كل عام، حيث يؤديان عرضًا لمراسم الزواج ليُجددا الروابط فيما بينهما، وعندما يتعدد الذكر إلى أنشاء يقوم بتقديم طربة لها، ويتضمن هذا العرض عدداً من الحركات الهللوانية واللولبية في الجو، بالإضافة لغطسات جوية حادة، وهي تستطيع

الأنثى أن تتلقى الطريدة فإنها تطير بطريقة عكسية وتلتقطها بمخالبها من قوائم الذكر.

وقف "أنس" يراقب الحركات الهملوانية التي يقوم بها "الرمادي" حتى ينال رضاء زوجته، وتابعها وهي تشاركه التحلق برشاقة، علت وجهه ابتسامة واسعة، سأله "مَرَام" عن سبب تسميتها بـ" قطرة الدموع" فقالت له:

- لأنها من أسرع الطيور على أرض المملكة ، تبدو في هيئتها قطرة دمع وهي تهبط على فريستها، تطير لعلو شاهق ومن ثم تقوم بخطوة جوية حادة وسريعة لتضرب بعدها أحد جناحي طريدها كي لا تؤذي نفسها عند الاصطدام.

من الوقت وهما يتجلزان في الغابة، بدأت بطن "أنس" تقرقر من الجوع وكذلك كانت "مَرَام"، مالت الشمس للغرروب واكتسست الدنيا حالة ذهبية بد菊花. ودعا "الرمادي" و" قطرة الدموع" وبذلت رحلة عودتهما، سأله "مَرَام" باهتمام:

- ما خطوتنا التالية؟ هل سنكمل الطريق إلى القصر الحوراء؟

- نستطيع أن ننتقل إلى هناك في لحظة! فلنستخدم الخنجر وننتقل من خلال فجوة

- لا...لا

- سأعيده سريعا يا "مَرَام" لا تخافي

- ماذا لو خرجت منها إلى عالم ثالث لا أعرف كنهه ولم أجده هناك! يكفي ما مررت به.. يكفي، سنسير على الأقدام

بدا عليه الضيق، فهي تصعب الأمور:

- حسناً، فلنعد لأننا أقرب الآن إلى القرية منها للقصر، ونعود غداً ومعنا بعض الطعام، وربما نستعين بحصانين، أوّد أن أعيده سريعا حتى أعود للبحث عن الكتاب، لا بد أن أحصل عليه بأسرع وقت، حاولت الوصول إلى المكتبة العظمى كما أخبرتك، لكنني لم أصل إليها، ولست على يقين من

وقوعه في يد الملك "كمشاق"، ربما ما زال مع اللصوص، ألم تسمع عن ذلك الأمر وأنتِ هناك؟

- إن أردت أن تسأل فاسأّل "كلودة"، فله أصدقاء هناك بالقصر.

- ماذًا !!! "كلودة" !!

أدرك "أنس" أن المكان الذي رأى فيه كلودة مع فتاة من خلال تلك الفتاحة في الممر قرب الهر الأخضر تقع في بلاط القصر وما حوله، كان يحدّق في الفراغ بينما أكملت "مَرَام" قائلة:

- اطلب منه أن يسأل أصدقاءه هناك عن الكتاب، بالمناسبة، لاحظت أنك تتجنب الحديث عن اسم الكتاب أمامه، وكأنك تخشى أن يعرف عنوانه.

- بالفعل هذا ما أفعله، حذرتهني السيدة "ناردين" من أن أخبر أحداً بعنوان الكتاب، إلا من أثق به.

ثمَّ أومأ إليها فشبّثت نفسها السعادة أنه يثق بها، وقد أخبرها باسم كتابه في بيت "كلودة" من قبل، أردد قائلاً بتأثر:

- هل أخبرتك "أشرياً" عن الرضيّعة التي عثّرنا عليها في الغابة؟

- لا

- هلا سأّلتها عنها وعن حالها، وكيف ترعاها زوجة الخباز؟ يبدو أنها وأمها يتوليان رعايتها، فلم أر "كلودة" يحضرها إلى البيت، وكنّت قد سمعتَه يخبر زوجة الخباز التي ترضعها أنه سيعود كل ليلة ليحضرها لتبيّت معه، لكنّه لم يفعل!

- يا مسكيّنة!!... حسناً سأفعل، لكنني لم ألاحظ وجود رضيّعة بالبيت!

- سمعت أن "أشرياً" ترفض الزواج من "كلودة" وهذا يُحزنه.

رفعت "مَرَام" حاجبيها في استغراب وقالت:

- كيف هذا!! لقد طلّبها أمس للزواج بالفعل ووافقت، وقربياً ستُزفَّ إليه!

استشاط "أنس" غضباً، يبدو أن "كلودة" يتلاعب بتلك الفتاة الرقيقة، يخدعها ويطّلها للزواج ويتصنّع المهوان والضعف ويخونها مع غيرها! وفوق هذا يظهر التنستك ويكثر التسيّب وهو....!!

أكملاً سيرهما صامتين، سيسأله بالفعل عن الكتاب، وإن كان قد وصل للقصر أم لا، وسيسأله عن أشياء أخرى.

عادت "مَرَام" لدار "أشريّا" وسألتها فور أن وصلت عن الطفلة الرضيعة كما أوصاها "أنس"، لكنّها أخبرتها أنها لا تعرف عنها شيئاً، وأنكرت أمرها تماماً!

ظلّلت "مَرَام" تثثر معها وكأنّها طفلة صغيرة وقد رجعت للتو من يومها الأول في المدرسة، كانت "أشريّا" تراقبها وتُتنصّت لحديثها بفضولٍ، أدركت أنّ "مَرَام" تُضمِّر الحبّ والإعجاب لـ"أنس"، عرفت ذلك من نظرات عينيهما المنكسرة، وفلتات حديثها ونشاطها عند كلامهما عنه.

عندما أرخي الليل عباءته المرصعة بالنجوم على سماء القرية كانت "مَرَام" تجلس ساهمة في غرفة "أشريّا" تلوم نفسها على تلك المشاعر التي بدأت تحاكي في نفسها تجاه "أنس"، كيف تعجب به! وذاك يتعارض مع وعدها لـ"أنس" تحافظ على قلبها، أدركت اليوم فقط أن لا سلطان لها على قلبها، لكنّها بلا شك تملك أفعالها الظاهرة. عندما تسير معه غالباً ستحاول أن تصلح ما بنفسها من أمره، وذاك ما عجزت عن إصلاحه طوال اليوم وهي معه، ربما..لن تتكلم معه طوال الطريق! ولن تنظر إلى وجهه! أو ربما تطلب منه أن يستخدم الخنجر وتنقله فوراً إلى القصر ثم إلى بيتهما، لكنّها تخاف هذه الفجوات التي تحرّك في الهواء! كانت تشعر أنّ قلبها يقفز من بين ضلوعها عندما تفكّر في "أنس"، جلست تتأمل في صمت.



- لماذا لم تمرّ علي في الدكان؟

سألة "كلودة" عندما رأه يجلس أمام البيت وعلى وجهه تتمشى علامات

الضيق والغضب، لم يجده "أنس" فظن "كلودة" أنه متعب أو محبط لأنه لم يعثر على كتابه بعد، قال يخفف عنه:

- لا تحزن يا صديقي.

رشقه "أنس" بنظره جعلته يرتكب، تراجع خطوة وسأله باستنكار:

- ما بك؟ ولماذا تنظر إلى هكذا!!

- ما ذنب "أشريا"؟ أتخدعها وتزعم أنك تريد الزواج منها وأنت تعشق غيرها؟

- إذن أخبرتك "مَرَام"! كنت أعلم أنها لن تسترنا.

- تستركمًا!!!

- أخطأت عندما طلبت الستر من بشر! والآن أنا أطلبه من الله.

- عجبًا للناس يطلبون الستر وهم عاكفون على المعصية! أنت تخشى الناس ولا تخشى الله!

- والله أخشاه.. والله أخشاه... لكنني ضعفت! والآن تبت.

- كاذب!! لم تخبرني "مَرَام" أي شيء،رأيتك بعيدًا وأنت معها اليوم، رأيت بنفسي ولم يخبرني أحد، أين ذكرك وتسبيحك؟ ظننتك ناسًاً عابدًا!!

- ما رأيته اليوم كان آخر لقاء لنا!

- أنت كذاب! كنت تراودها عن نفسها وتراودك عن نفسك

- "أنس" أرجوك! أنت لا تفهم شيئاً، إن كنت هناك حقًا ورأيت، ألم تلاحظ أنها هي التي كانت تلقى بنفسها على اليوم وكانت أدفعها! لقد أخبرتها أنها لن تراني مرة أخرى.

ثم أردف وقد تظللت عيناه بالدموع:

- "أنس" ... رفقاً بي، رفقاً بمن وقع في المعصية ثم عاد، أنا الآن أعرف قيمة التوبة أكثر منك، لأنني وقعت في المعصية بعد أن استقام حالي ثم ندمت

وعدت، فتلك السقطة جعلتني على يقين أن الطريق الحق هو طريق التوبة.

ثم أجهش بالبكاء، فلزم "أنس" الصمت، ثم قال بعد أن هدأ بكاء "كلودة":

- الفضيلة التي فيك لا بد أن تنضح على أفعالك، يراها الناس كما يرون ظاهر ثوابك، كنت تظهر الصلاح وأنت تخفي المعصية.

- لأنني غفلت، طلبت الستر فيها ونسيت أن أطلب من الله الستر عنها.. أن تُحجب عني المعصية وأن يحول الله بيتي وبينها، والله لقد تبت وندمت، ساعدني أرجوك.

وعاد لبياته، وجلس "أنس" بجواره صامتاً ساكناً وكأنَّ على رأسه الطير أطلَّ "كُوبُو" من خلف الباب على استحياء، كان ينصلت على حديثهما منذ البداية، سار وهو منكس الرأس تجاه صديق طفولته "كلودة" وجلس بعد أن أحاط كتفه بذراعه، ثم رفع عيناه تجاه "أنس" وقال بخفوت:

- لقد تاب.. أنا أعرفه جيداً وأعرف القصة منذ بدايتها.. رفقاً به ولا تعن
الشيطان عليه!

تفحص "أنس" وجه "كلوده"، كان وجهه المتعب مصفراً وحول عينيه محفور بهالتين من السوداد، بدا جلياً أنه يعاني، بعد ردح من الزمن قال بهدوء:

- لو علمت "أشريا" سُمِّدْر كرامتك على الأرض وتمزق هيتك.

انسحقت روح "كلودة" وقال بخفوت:

- لن يخذلني ربى... حاشاه أن يرد قلبًا باليقين ناجاه.

كانت ليلة عصيبة على "كلودة"، انصرف "كُومبو" وهو يطارد بومة بيضاء كانت تطوف بالبيت وتحلق فوق شجرة قريبة، قذفها بالحجارة فابتعدت في الحال، ظل "كلودة" يبكي طوال الليل حتى أن "أنس" أشفق عليه ورق حلاله.



كانت "مَرَام" تمشط شعرها بينما كانت "أَشْرِيَا" تستعد للنوم، التفتت
"مَرَام" إليها وسألتها بفضول:

- لماذا ترفضين الزواج من "كلودة"؟

شردت "أَشْرِيَا" قليلاً ثم اقتربت من "مَرَام" وجلست بجوارها ثم تأبّطت ذراعها
بلطف وهمست:

- أنا أُحِبُّه لكنني أَخاف!

- من مَاذَا؟

- كما ترين، لست ببارعة الجمال كما أُنْتِي لا أَحْسَن ما تفعله الفتيات في
أنفسهن، حتى أُنْتِي لا أجيد الحديث مثلهن، لا أُطْنِي سأعْجبه، أَخْشى أَلَا
أُرضِّيه إن تزوجته، فربما يراني كالطعام الخالي من الملح والتَّوَابِل.

صمتت "مَرَام"، كانت صورة "أُونِي" وهي تتحدث عن "كلودة" لا تفارق
ذهنها، ودَّت لو لم تعرف عن علاقتهما شيئاً، فها هي الآن تجلس بجوار فتاة
تُحِبُّه لكنها لا تعرف أنه خائن، فاجأتهما "أَشْرِيَا" وهي تهمس:

- ربّما يكون قد وقع في حبّ فتاة بالفعل، سمعت الفتيات يهمسن بهذا.

- معقول!

تطايرت "مَرَام" بالتعجب، فأردفت "أَشْرِيَا":

- ما يحيرني هو تكرار طلبه للزواج مئيّ، لا أدرِي لماذا لا يتزوجها!

أطبقت "مَرَام" شفتيها، واستمرت "أَشْرِيَا" في بوجهها لها:

- يظن بعض الشباب أن كل الفتيات مباحثات، يستطيع أن ينظر، ويتأمل،
ويتفحّص، ويمزح مع تلك، ويحب تلك، ويحلم بتلك، وعندما يريد الزواج
يبحث عن فتاة بعيدة المنال!

زفرت "مَرَام" بحنق وقالت:

- عندك حق.

قامت "أشريا" وبدأت تروح وتحيء في الغرفة وقالت:

- لكن سلوكه قد تغير منذ فترة، أتعلمين تلك النظرة التي تقرئين فيها انكسار من أمامك، ذاك الشحوب الذي يكسو وجهه من يتوقفون عن فعل الخطأ فيبدون وكأنهم يتعافون من مرض، الضعف الذي يصابون به، الهوان الحلو بعد التوبة، ذاك الضوء الشاحب الذي يحلّ شيئاً فشيئاً في وجهه من يعود للصواب...لقد تغير "كلودة" صار لا يرفع حتى عينيه في وجود النساء وهو يسير.

- أترافقينه؟

على استحياء أجابتها:

- من بعيد، أمي تسأل عنه أم "كومبو"، فأمي سري وستري وهي تعرف خبيثي، أما أنا فأدعوه.. وأراقبه من بعيد.

ثم تنهدت وقالت بصوت تشوبيه رنة الم:

- ترى هل من الممكن أن تقرّ عينه بي يا "مَرام" إن تزوجته؟ هل سأعجبه؟ هل سيكون مخلصاً لي؟

بقي السؤال معلقاً في الهواء، ف"مَرام" تخشى أن تخبرها بما تعرفه، قالت "أشريا" بثقة وكأنها تجيب نفسها بنفسها:

- ولم لا! أوليس التوبة تجب ما قبلها! سيفشى والله قلبها، أليس كذلك يا "مَرام"؟ سيرضيه الله بي، وسيستجيب لدعائي... أليس كذلك؟

أجابتها "مَرام" وهي تراقب تعابير وجهها البريء الصادق قائلاً:

- نعم حبيبتي.... سيسألني.

بعد قليل نامت "أشريا"، أما "مَرام" فلم يغمض لها جفن حتى طلع الفجر، ظلت الأفكار تدور في رأسها، صار معرفة بداية تلك الأفكار مستحيل، استسلمت أخيراً للنوم فمهما فكرت وحللت وخططت فهي لن تخبيء النجوم ولن تطفئ وجه القمر.



يومان والحراس يدورون في القصر كالنحل، يفتشون كلّ الغرف، وكانت البداية من غرفة "أونتي" التي قلبتها الجواري رأساً على عقب، فقد أشرفت "نيرة" بنفسها على تفتيشها بينما كانت "أونتي" وقتها في حديقة القصر، خرجت "نيرة" من غرفتها كالإعصار تزوم وتزمجر، فهي لم تعثر على الكتاب، استبعدت أن تكون قد وصلت إليه فاتجهت وأخيها إلى تفتيش غرف الوزراء وكبار الحراس ظانين أن أحداً منهم قد طمع للاستيلاء على الكتاب.

في اليوم الأول وعقب مغادرة "مَرام" للقصر، أغلقت "أونتي" غرفتها عليها في سكون رهيب، أعادت كل شيء لمكانه بنفسها وللأول مرة في حياتها، لم تطلب عوناً من أحد حتى لا ينتبه أحدهم لغياب "مَرام"، لم يدخل عليها إلا جارتها القديمة التي لاحظت غياب "مَرام"، أخبرتها "أونتي" بالحقيقة، ونفحتها كيساً ثقيلاً ممتلئاً بمال لقاء صمتها وإخفائها للأمر.

أرضى ذلك غرور الجارية وانصرفت على وعد بأنها سترسل إليها جارية جديدة أمينة تحفظ السر مثلها، هرولت خارجة من غرفتها فالأميرة "نيرة" غاضبة والألوية لإرضاعها.



رائحة الحب

تحت شجرة البلوط، حيث كانت تتلهف "مَرَام" للعودة إلى منزلها، وقفت
تنصت إلى "أنس" وهو يقول:

- حسناً يا "مَرَام" سألهي بنفسي داخل الفجوة الآن وأعود من خلالها، راقيبي.

دلف "أنس" والذي قضى وقتاً طويلاً يحاول فيه إقناع "مرام" بأن انقالهما من خلال الفجوة سيكون أسرع لها وأيسر له حتى يستطيع إكمال رحلته، استلَّ الخنجر وأولجه في طبقات الهواء وحركه كما يفعل وذكر اسم قصر الحوراء، دلف إلى الفجوة فابتلاعه واختفى من أمام "مراهم"! وقفَت وحيدة تحت شجرة البلوط التي كانا يقفنان تحت ظلالها، شعرت بوحشة رهيبة وخوف شديد، سكن كل شيء حولها فجأة، اختفى الشخص الوحيد الذي اطمأنَّت لأنَّه من عالمها، ظنتْ أنَّه سيوصلها إلى القصر ثمَّ تحملها "قطرة الدمع" إلى بيته! كان يكفيها ما مرت به، فهل هناك مزيد من المفاجآت في انتظارها! تذكَّرت تجار العبيد، والسوق ونظارات الرجال لجسدها، وضرب الجواري لها في القصر، وتلك اللحظة التي قذفها فيها "أنس" بالحجارة في عينيها، تحسستها بأنامل مترتعشة حيث كانت تؤلمها، تلفتَت حولها ونادت بهمس على "أنس" وما لم يأتها الرد انحنت وسحبَت غصن شجرة غليظ وتأهَّبت للدفاع عن نفسها، لقد رحل إذن وتركها وحدها، قررت أن تعود من حيث أتتِها إلى بيت "أشريا"، لعلها تساعدها، اعتصر قلبها الذي أصبحَت دقَّاته كقطبول الحرب وكادت ترکض لولا أن الفجوة انبثقت من اللا شيء أمامها فأجفلت وأطلَّ "أنس" منها مَرَّة أخرى، وقف بيتسُم وحرَّك كتفيه موحياً إليها أنَّ الأمر بسيط، وقال ببراءة:

- أرأيت! ها أنا قد عدت سريعاً

بوجه شاحب وشفتين هربت منهما الدماء ويدين تقبضان على غصن الشجرة وترفعه متأنية في الهواء وكأنه سيف تقاتل به كانت "مَرَام" مجمدة كمثال من الشمع، فوجيء بها تنهال على كتفه ضرباً بغصن الشجرة وهي تصيح بهستيرية:

- لا...لا...

كانت في حالة هياج وغضب شديد، أمسك "أنس" الغصن وجذبه منها بعنف فجرح يدها، فقدت تماسكها وتهافتت وتکورت على الأرض وغطّت وجهها بكفيها وانفجرت باكية تنسج في حرارة فوقف أمامها حائزاً، كان لا يحسن التعامل مع الفتىّات! سأّلها متعجبًا:

- لماذا تبكين؟

قالت بصوت يخنقه البكاء:

- كنت خائفة.

تدكّر كيف كان يفعل والده مع أخته "حبيبة" عندما كانت تجهش بالبكاء فجأة، كان يتوقف عن الكلام معها ويرى على كتفها بحنان ويحتضنها في صمت، وكانت تهدأ وينتهي كل شيء، لكنه ليس والدنا! ولا يستطيع فعل أيّ من هذا، فماذا يفعل! سالت الدماء من كفّها فتلطخ وجهها بمزيج من الدموع والدماء، كانت ترتجف، بدت له ضعيفة كالقشة، لا بد أن يعيدها إلى القصر الآن، فهو لن يتحمل تقلبات شخصيتها تلك، وليس الوقت مناسباً لمرافقته الفتىّات! ولعل "سامي كول" يأمر بإعادتها لبيتها في الحال، فليتخلص من تلك الورطة، قطع "أنس" جزء يسيرًا من طرف قميصه وبلله بماء النهر حيث كانا يسيران بموازاته ومدّه إليها بلطف قائلًا:

- امسحي وجهك فقد تلطخ بالدماء، ودعيني أربط لك جرح يدك.

سحبت منه القماشة بعصبية ومسحت وجهها ثم كفّها المجروح، كانت هناك شذرات من الغصن قد علقت بجرحها، بدأت تسحبها بحرص وعلامات الألم تلوح على صفة وجهها ثم قالت بصوت ممزق حزين:

- كرهت تلك المملكة وتلك الغابة وهذا العالم.

وعادت للبكاء، سألهما وقد رق لحالها:

- حسناً يا "مَرَامْ"، إن كنت ترفضين استخدام الفجوات وتخافينها سأسير معك، لا تخافي ولا تحزني، هيَا فنحن في أول المellar، وخذي هذا لتضمندي جرح يدك.

وقام باقطاع جزء آخر من قميصه، وساعدها لتضمند جرحها بحرصٍ شديد، وسارا معاً، كانت تلك المرة الأولى التي يقترب فيها ذاك الحد من فتاة، وكان يراها فتاة لطيفة رغم بعض العصبية والكثير من البكاء، وربما لأنه ألمها وجراحها مرتين فهي تعامله أحياناً بعنف، لكنه لم يقصد أبداً أن يؤلمها، أراد أن يخبرها بهذه!!

رنا إلها فبدت له كندة هشة من غزل البنات لو أمطرت السماء عليها لذابت من فرط رقّها، تتبعه كقطة صغيرة تطلب الأمان، كانت خطوة منه تعادل خطوات منها، فهدأ من سيره حتى لا يرهقها، راوده شعور جميل أنه مستول عنها، وراق له بشكل ما أنها تخاف عندما يختفي، أو عندما تفصل بينهما أثناء سيرهما شجرة ضخمة، كانت تهrol وتبث عنده خلفها تخشى أن يختفي مرة أخرى. أصحابه الضيق لأنه كان سبباً في بكائها، مزيج من المشاعر كان يختلج في صدره.

توقف عن السير والتفت إليها وأخبرها أنهم سيجلسان للراحة قليلاً، جلست فوراً في صمت وكأنها كانت تنتظر تلك اللحظة لكيها كانت تخجل أن تطلها منه، فقد أرهقها السير، أخرجت من حقيبتها تفاحتين كانت "أشرياً" قد أعطتهما لها ومدت يدها إليه بإحداهما، تناولتها منها وجلس يلقيها في الهواء ويتلقفها بيده ويراقب وجهها بطرف خفي، ثم سألهما بفضول:

- كيف قضيت الفترة الماضية وحدك؟ حديثي يا "مَرَامْ" عن رحلتك وكتابك، هل كنتِ دائمًا خائفةً وتبكون هكذا؟

أطرقت قليلاً وكأن ملاحظته جعلتها تتأمل حالها وما آلت إليه، قالت وهي تحملق في الأرض أمامها:

- لم أكن بتلك الهشاشة، كان لدي شعور بأنني قوية، لم أكنأشعر بالخوف كما أشعر به الآن، وكان للقائي بالمخاطر فور وصولي أثر كبير في نفسي، كانت "الحوراء" معهم، احتضنتني فور أن تركتني " قطرة الدمع" فشعرت وكأن شيئاً ما أحاطني فغمزني الشعور بالأمان، في الحقيقة راودني شعور جديد... ربما روح المقاتلة التي وصلت للتو لأرض المغامرات! شعور يشبه ما قرأت عنه دوماً في الروايات، سلمتني "الحوراء" خريطة وبدأت رحلتي، سريعاً ما ظهرت كلمات كتابي عندما التقيت بالهدية "هيلاء"، كانت فتاة رقيقة وواثقه بنفسها تكيرني بخمس سنوات، لازمتها طوال الوقت، فقد استضافتني في قصرها وعاملتني كشقيقة لها، "هيلاء" تعيش في منطقة تقع خلف مملكة الشمال، لم يكن لدى خنجر مثلث، لكنني كنت أستطيع سماع أفكار الناس.

- ماذ؟ تقرئين الأفكار!

- لا... أسمع صوتها كما أسمع صوتك الآن، تلك كانت من مميزاتي ويبدو أنها فقدتها منذ انتهاء مهمتي، كنت أنصت إلى صوت أفكار من أمامي، فكنت أعرف الصادقين والكاذبين، وكان ذاك مرهقاً جداً، كنت أعياني صراعاً نفسياً عندما أرى على وجوه الناس وألسنتهم عكس ما يفكرون به، وفي النهاية وبعد أن انتهت مهمتي تأملت فأدركت أن الله ستر خواطernنا رحمة بنا، ولو بحنا لمن حولنا بكل ما نفّغر به كما هو ما طاب لنا العيش معًا، الحمد لله أني فقدت تلك الميزة وأنا الآن لا أسمع إلا نفسي.

ارتاح "أنس" حين تأكد أنها فقدت تلك الميزة.. لا يدري لم! وهرب من إجابة نفسه.. أشار إليها لتقوم ليكملها حديثهما وهما يسيران لعلهما يقطعان الغابة قبل حلول الظلام، كانت تسير خلفه، وكلما حاول أن يقدّمها أمامه ليطمئن عليها تتأخر خلفه لبيطء خطواتها، فطلب منها أخيراً أن تسير بجواره ففعلت، سألته على استحياء:

- كم عمر أختك "حبيبة"

- تصغرك بعام؟

ثم أردف بعد أن رنا إليها سريعاً:

- وتشهك كثيراً.

أخذتها ملاحظته وارتبتقت فتعلقت بحقيبتها وقبضت علىها بقوة وكأنها تستمد منها الأمان وقالت:

- لا شك أنك تفتقدوها

- أفقد كل شيء في حياتي، بيتي، وأهلي، رائحة عطر أبي، حضن أمي، صوت جدي، دفء البيت، حتى ملابسي وهاتفي الجوال، ورفافي، وحاسوبى.

- وأنا أفتقد.... الأمان.

التفت إليها وقال بتأثر:

- "مَرَام" سامحيوني لأنني أوجعتك مرتين

- لا عليك، أنا أيضًا ضربتك بالغصن على كتفك كالجنونة.

قال مازحًا:

- لكنك لم تؤلميني... أي محاربة أنت! وأين قوسك البلاستيكى الذى كنت تلعبين به في الغابة!

لاحت على شفتيها ابتسامة خبأتها بكفها المضمدة بجزء من قميصه، كانت كلما رفعت كفها وتأملته وهو ملفوف بشيء يخص "أنس" شعرت بارتباك، وكأنه يمسك يدها بنفسه! سارت بجواره وفي صدرها يتجلج صراع بين رفضها للسير مع شاب غريب عنها، وبين اضطرارها لهذا لتعود إلى القصر، فهي لم تختر تلك الظروف، هي مجبرة عليها لا ريب، بدأت تتمتم بالدعاء ألا يتركها الله، وأن يكفهم شر نفسها ونفس "أنس".

قال وعلى وجهه ابتسامة مشرقة بينما كانا يعبران تحت أشجار الياسمين حيث هطل عليهم الياسمين وكأنه يرحب بهما:

- أعيش رائحة الياسمين.

قالت وهي تحمل بين كفيها حفنة من زهور الياسمين التي تراكمت على الأرض وتقربها من أنفها:

- وأنا، ليتني أستطيع الحديث مع زهراته كما تفعل السيدة "ناردين" فهي تسمع أذن النباتات وتسبحها وتنصت لحكاياتها العجيبة.

- معقول!

- ألا تعرف قصة السيدة "ناردين" مع الغابة هنا؟

- لا

- حسناً... سأخبرك بها

بدأت "مَرَام" تقصّ عليه ما حدث مع السيدة "ناردين"، أشفق على العجوز عندما علم بما فعلته معها زوجة ابنها، وتعجب عندما علم بعديتها إلى النباتات وكيف تنصت إلى أذنها وتحاورها، بينما كانت "مَرَام" تحكي له عنها كان يقاوم ضجةً أحدثها "مَرَام" في عقله ووتجدها، طريقتها في الكلام راقت له، ذاك الهدوء وتلك السكينة التي حلّت عليها بعد أن انتهت تلك العاصفة التي أصابتها عندما اختفى من أمامها فجأة يعجبه، وهذا الضعف الأنثوي الرقيق الذي فيها أثر في نفسه، وقارها واحتشامها أسرّاً فؤاده، أما دموعها فقد صوبت تجاه قلبه الضبرية القاضية! سألها وقد اقتربا من بيت "ناردين":

- أسئل هل ظهرت العبارات في كتابي أم ليس بعد!

- لا أدرى هل سيطلق كتاب "إيكادولي" سراح الكلمات وهو بعيد عن يديك يا "أنس" أم لا!

- كيف كانت العبارات تظهر في كتابك؟

- كان يهتزّ وأحياناً يتحرك في مكانه فكنت أنتبه، وكانت تنبثق الحروف تباعاً وكأنّها تُنقشُ بريشة ومحبرة حرفاً حرفاً على السّطر، أحياناً كنت أشعر أن الكتاب يتنفس وله قلب ينبض وهو يظهر الكلمات، تلك الكتب حيّة يا "أنس"!

- كنت أفكّر أنه ربما يكون "كلودة" و"أشرياً" هما بطلاً قصصيّ، أليس كذلك؟

تممت بضيق ثم قالت:

- أرى "كلودة" لا يستحق أن يكون بطلاً لأي قصة حب!

- لماذا؟

تجهالت سؤاله حتى لا تضطر لفضح "كلودة" ثم قالت:

- ربما بطل قصة كتابك هو "كومبو" وفتاة أخرى! ولم لا؟

هزّكتفيفه قائلاً:

- أو ربما "أونقي" وأي شخص آخر!

- لا تذكريني بـ"أونقي" أرجوك...

- لماذا؟

هرّت رأسها في ضيق وقالت:

- لا شيء.. فلننس أمرها.

كانت العجوز "ناردين" تجلس أمام الكوخ وتستند بذقnya على كفيها المعقودتين فوق عكازها الذي أصبح صديقاً لا يفارقها أبداً عندما تهمل وجهها وبرقت أسريرها من الفرح وهي تراهما يقتربان، أصابتها السعادة وتهلللت أسريرها عندما رأتهما معاً، لم تتمكن من منع نفسها من الضحك بصوت عالٍ وكأنهما طفلة صغيرة سرت بقطيعة من الحلوى أهديت إليهما، جلسا عن يمينها وشمالها بينما احتضنت كفَّ "مَرَام" بحنان فور أن رأت ضمادتها وجلست تسأليها عما أصاها، ثم سألهما كيف كان الطريق، وماذا حدث لهما حتى الآن.



مرَّ الوقت لطيفاً حيث استأنست "مَرَام" بالعجز "ناردين" وكذلك سرَّ "أنس"، وسعدت هي بزيارتهم، وقفَت "مَرَام" تودّعهما، كانت العجوز تبكي، فتلك هي المرة الأخيرة التي ستراهما فيها، كانت قد ودّعتها من قبل بعد انتهاء

مهمتها، وها هي لحظة الوداع تتكرر، وكانت "ناردين" تحمل هم تلك اللحظات، فهي تشعر بالألم في صدرها عندما يغادرها من تحبّهم، تكره الوداع، سارت معهما قليلاً حتى أصبح الطريق أمامها مكشوفاً وحتى حدود الغابة، حيث كان الفاصل الحجري يحيط بالغابة، ابتعدا وكلاهما يتلفت من آن لآخر ويلوح لها، وما أن لوحت له "ناردين" آخر مرّة وفوراً أن خطت "مراٰم" خارج الغابة شعرت وكأنّ سهماً نارياً يخترق رأسها، سقطت على الأرض وعيتها معلقتان بالسماء، ثمّ فقدت الوعي.

صَبَّ "أنس" الماء المتبقى معه على رأسها لكعبها لم تفق، تحسّس نبض يدها ليتأكد أنها لم تفارق الحياة، ثمّ حملها وعاد للغابة وأسرع وخلفه العجوز "ناردين" تجاه كوكبها، وضعها على فراش "ناردين" التي أسرعت تربّت على جعبتها لعلها تفique، أحضرت زجاجة بها سائل نفاذ الرائحة وقررتها من أنفها فأفاقت "مراٰم" وبدأت تسعّل، كانت تشعر بدوار شديد، أخبرتهم أنها تشعر بأن دماءها تغلي في عروقها، تحسست "ناردين" جعبتها ففوجئت بأنّ حرارتها مرتفعة! قامت تطحّن عشبًا ما وأشارت له "أنس" ليحضر بعضًا من الماء وبدأت تذيبه في القليل منه، وسقتها منه شيئاً فشيئاً، بعد قليل بدأت "مراٰم" ترتجف فدثّرّتها العجوز وجلست تحنو عليها وتتممّت بالدعاء، وعندما بدأت المسكينة تتعرّق قالت "ناردين" بثقة وهي تطالع وجه "أنس" الذي استبدّ به القلق عليها:

- ستكون بخير إن شاء الله

قال مستغرباً:

- لا أدرى ما الذي حدث لها! كانت بخير!

فتحت "مراٰم" عينيها وطالعته بنظرة تعني ألا تتركي وحيدة هنا، لم تتمكن من فتح فمها لتحدّثه، لكنه فطن لما ترمي إليه وقال يطمئنها:

- لا تخافي يا "مراٰم"

أغمضت عينيها وخرج من الكوخ، جلس على الدرج الحجري يتفكّر فيما آل إليه الأمر الآن! اقتربت "ناردين" وربّت على كتفه، همس إليها قائلاً:

- هل أستطيع الذهاب إلى القصر دون أن تخبريه؟

- نعم تستطيع، ولكنك ستعود إليها بالتأكيد، أليس كذلك؟

- بالطبع سأفعل إن شاء الله، وددت فقط أن أسأل "سامي كول" عن شيء ما
- سأغلق باب الكوخ علينا ولن أخبرها، فلا تتأخر، أراها تخشى أن تغادر وتركتها وحيدة
- لا تقلي يا أمي

تأثرت العجوز مرة أخرى بندائه، لم يدرك أنه يربت على قلبه بتلك الكلمة... يا "أمي"! كانت نظراتها له تقطر حناناً وهي تراقبه وهو يستلّ خنجره ويحركه في طبقات الهواء، انبثقت الفجوة تتلاعّب وكأنّها تنادي، ففزع داخلها بينما أسرعت العجوز ودلفت إلى الكوخ وأغلقت الباب، كانت "مَرَام" تنهي وترتجف وقد غمر العرق جبينها، فبدأت العجوز تربّت على كتفها بحنان.



كانت "الحوراء" تعلم بأخبار "أنس"، فالرياح تحمل إليها كل همسة تخرج من بين شفتيه، وقفت تنتظر وصوله وهي تطرق بأصابعها على الطاولة في قلق، ظهر أخيراً فقامت فور أن رأته وسارت نحوه بخطوات سريعة، كان القلق بادياً على محياهَا:

- كيف هي "مَرَام" الآن؟ وما الذي أصاها؟
- لا أدرى! فور أن خرجنا من الغابة سقطت على الأرض، تركتها في كوخ العجوز "ناردين"
- كان متوقعاً أن يحدث هذا
- لماذا؟

أخبرني أبي أنها لن تستطيع الرحيل إلا بعد استعادة كتابك، كلاماً شريكان في كتاب "إيكادولي" بطريقة ما، حتى لو وافقت أن تنتقل معك من خلال الفجوات كنا سنعيدها إلى القرية، وددت أن أخبرها هذا بنفسي لأخفف عنها فهي تثق بي وأننا أعلم كيف تشتق الآن للعودة لديارها

ولأتمها، لكن يبدو أنها صارت ضعيفة جدًا بعد أن فقدت مميزاتها
كمحاربة، أرجوك يا "أنس" عد إليها سريعاً، واعتن بها.. أرجوك.

- سأفعل ولكن هل من الممكن أن أطلب من الحكيم "سامي كول" أن يسمح
لها بالعودة إلى بيتها، وسأتحمل وحدي مسؤولية استرداد كتاب "إيكادولي"؟

- للأسف يا "أنس"، لا تسير الأمور بتلك الطريقة، ليس أبي من يحدد

- لقد تعجبت "مَرام" وتعرضت للكثير من الأمور، وهي فتاة رقيقة وضعيفة،
أخشى عليها

- إذن فلتتحمّلها وترعّها حتى تسترد كتابك

- مولاتي..

أغمضت "الحوراء" عينيها وكسا وجهها تعيّر أدرك منه "أنس" أنه لا مجال
للنقاش في أمر حيل "مَرام"، كاد ينصرف لكنه استدار وسألها:

- هل من دواء لها أستطيع حمله معى على الأقل!

ابتسمت "الحوراء" وقالت بثقة:

- أنت في بيت طيبة بارعة، "ناردين" ستتعني بأمر الدواء، لا تقلق يا "أنس"،
عد الآن لتكون بجوار "مَرام" ... أرجوك.

استدار "أنس" بعد أن حيّاها، وأخرج خنجره بعد أن توقف وتأمله
للحظات تذكّر فيها وجه جده وهو يسلّمه إليه ويخبره أنه سيقطع به مسافات
كبيرة! لم يفطن وقتها لهذا المعنى، لكنه يدركه الآن، حركه في الهواء وعاد إلى
الكوخ، حيث كانت "مَرام" ترتجف، طرق على الباب بخفة ففتحته "ناردين"
ودلف محتمياً من الأمطار الغزيرة التي سقطت فجأة، هذا المكان عجيباً!

اشتد البرد واشتدت قوة الرياح، البروق تنقدح في السماء، ستار سميك
من المطر حجب الرؤية، انحنت الأشجار وتعانقت فوق سطح الكوخ تظلله
وتبعد سيول الأمطار عنه، والتفت وشائج الأشجار وأحاطت بأركان البيت
تمعن تسرب الرياح من فتحات الكوخ، كانت النباتات تعني بـ"ناردين" لسنوات
طويلة،وها هي تعني بها وبضيفها، كانت "مَرام" تتنفس من آن لآخر فما زالت

حرارتها مرتفعة، وكانت العجوز تغفو بجوارها وهي جالسة فتسقط رأسها فتنبه وترفعه ثم تعود فتغفو مرة أخرى، بينما جلس "أنس" في ركن الكوخ مستنداً بظهره على الجدار. وبدأ يحدّث نفسه..

عمرها ثمانية عشر عاماً! ما زالت "مَرَام" في بداية مرحلتها الجامعية، لا شك أن خبرتها قليلة في معاملة الشباب، لهذا تصدّه وتعامله بنوع من العدوانية أحياناً، ربما هي ترى أنها هكذا تحمي نفسها كما تظن الكثير من الفتيات! تحتاج وقتاً لتنضج وتصبح أكثر انصباطاً في ردود أفعالها حتى لا تخرج من يتعامل معها، ولكنها تبدو فتاة خلوقه ومهدبة... جميلة، نعم هي جميلة، هكذا يراها، فهي تعجبه وتزور له، وعلى كل حال ذلك ليس حبّاً كما يقولون، فليس من المعقول أن يحبّها بتلك السرعة! لماذا يفكّر فيها كثيراً! فليحاول الآن التفكير في طريقة يصلّ بها إلى كتابه، أما هي وبأي حال من الأحوال ستراقبه طوال رحلته مع كتابه، ولكن...كيف سيتعامل معها؟ كانت الأفكار تتناطح في رأسه وهو يراقب انعكاسات أصوات الشموع وهي تترافق وتشابك على الجدران، تکوّر على الأرض وتتوسد ذراعه واستسلم للنوم، فقد أخبرته العجوز أخيراً أن حرارة "مَرَام" قد انخفضت، وأنها تستبشر بكثرة تعرّقها لأن تلك علامة خير. دَرَّتْه العجوز بخطاء من الصّوف، وعادت حيث كانت "مَرَام" ترنو إلى "أنس" بعينيه الكليلتين.



على استحياء أشرقت الشمس وأقبلت زرقة السماء وفتّت الغيوم فأضاءت أرجاء الغابة، نفتحهم بعض الدفء فأطلق الريحان عبيره الفواح، كانت نباتات الغابة تتلألق بخضارها الزاهي بعد أن غسلتها الأمطار طوال الليل، قالت "ناردين" وهي ترشف بتلذذ المشروب الساخن من كوبها الذي تحتضنه بكلّمها:

- إذن أخبرتك "الحوراء" أن "مَرَام" لن تغادر الآن، وستلازمك حتى تستردّ كتاب "إيكادولي" .. غريب!

- وما الغريب؟

- عادة لكل كتاب محارب واحد يتدخل بطريقة ما حتى يمنع من يريدون تغيير محتوى الكتاب ليخدم أفكارهم الشاذة
 - ترى... من يريد تغيير قصة كتاب "إيكادولي"؟
 - الكتاب عن الحب، هناك حبيبين، ربما هناك من يقهرهما وي فعل الأفاعيل ليمنع اجتماعهما.
- وضع "أنس" كوبه برفق وقال:

- أود قد يخطنان عندما تغلب الشهوة فوق الفضيلة، وتسقط الروح فيغلب الجسد!

قالت العجوز وهي تتلذذ بالمشروب:

- الحب فضيلة؛ جزء منها نولد به، فهي مغروسة في أنفسنا، جزء آخر من تلك الفضيلة نجاهد لنصل إليه.

قال "أنس":

- من يحب الطعام سيشتهيه وسيجد لذته في تناوله بأي طريقة، ولو تخلى عن الفضيلة سيسرق الطعام! وكذلك من يحب وبッシュق أيضاً سيجد لذته في النظر إلى حبيبه بأي طريقة، ولو تخلى عن الفضيلة سيسقط في الحرام."

قالت "ناردين" وقد أعجبتها كلماته:

- نحن لا نعرف ما تحمله لنا الأيام القادمة!

هزّ "أنس" كتفيه وقال:

- ليس الحب مقصوراً بين حبيبين فقط! قد يكون الحب من نوع آخر، حب الله، الأمومة والأبوة، حب الصديق، وحب الخير كما يفعل المغايير.

كان الماء عذباً وكانت تنظر إليه بحنق، ابتسمت وقالت:

- أنت شاب طيب القلب يا "أنس"

طالعها بإشراق وقال لها:

- وأنتِ أمٌ رائعة وحنونة.

دنا منها وقبل رأسها وأحاط كتفها بذراعه، كادت العجوز تبكي، كانت تشترق إلى ابنها الحبيب، أرادت أن تبوح لـ"أنس" ببعض مما حملته بين ضلوعها لستين طويلاً، لكنَّ عطسة "مَرَام" وهي تقف متقدّرة بشال "ناردين" وهي تستند برأسها على حافة باب الكوخ انتشلتهما من حديثهما، هشَّ "أنس" فور أن رأها أمام عينيه، قال برفق وهو يبتسم:

- يرحمك الله!

كان على وجهها ابتسامة متعبة، اقترب منها مع العجوز "ناردين"، والتي قالت بعد أن تمعّنت في عينيها:

- أنتِ اليوم أفضل، سأعد لكما حساء شهيًا في الحال.

أسرعت تجمع بعض الأعشاب والثمار لتعده بينما كان "أنس" يحاول ترتيب الكلمات، لا بدّ أن "مَرَام" ستحزن عندما تعرف أنها لن ترحل إلاّ بعد استرداد كتابه، قال متعلّهّماً:

- لقد ذهبت إلى قصر الحوراء

رفعت عينيها إليه ثمْ كسرت نظرتها سريعاً، كان جفناها يرافقان من الحب، قالت تلومه:

- تركتني إذن!

- لم أغب طويلاً كما تعلمين، كما أتّك كنتَ مع السيدة "ناردين"، وأنا أثق بها

ثبتت نظراتها على الأرض أمامها وقالت:

- وأنا أيضاً أثق بها

- المهم، أخبرتي "الحوراء" أنَّ " قطرة الدم" لن تتمكن من إعادتك إلى بيتك الآن يا "مَرَام"

- لماذا؟

- لأن لك دوراً في كتابي، ولهذا كانت صوري تظهر لك في كتاب "هيلا"، لا بد أن تبقي معي حتى أستردَه

شدّت "مَرَام" الشال على كتفيهما وهزّت رأسها برفق ولم تُثِرْ كما فعلت من قبل، كان ينضر منها الهستيريا والصراخ في تلك اللحظة!، لكنه رأها ساكنة راضية بما سمعته منه، حتى أنها لم تُسأله عن التفاصيل، ولم تسأله عن خطوطهما التالية، سألها باهتمام:

- كيف هي يدك؟

- ما زالت تؤلمني

- آسف.. أنا السبب!

- لا عليك، بدأت اعتاد الألم

انسحب بطفف وتركها وانضم يساعد "ناردين" التي كانت تحاول إشعال النار تحت القدر، ووقفت "مَرَام" تراقبهما في هدوء شديد. كانت كل عظام جسدها تؤلمها، أرادت أن تعود للفراش لترقد وترتاح، لكنها كانت تستمتع بمراقبتهما من بعيد، كانت العجوز سعيدة، فابتسامتها ومزاجها الرائق يمتعان بالنظر إليها، وكان "أنس" يرافقها ويكثر المزارح معها، يبدو أنه أشفق عليها عندما علم بقصتها، فصار يهون عليها ويقصّ عليها الطرائف مما أدخل السرور على قلبها، واهتزت لتلك الأحاديث الندية أشجار الياسمين وبعثرت عبيرها فاختلط برائحة الحب.



مر يومان، كانت "مَرَام" أفضل حالاً، قررا أن يعودا إلى القرية، وجلسا ليخبرا "ناردين" التي أصابها الضيق عندما أدركت أن تلك اللحظات السعيدة مرّت وانتهت، كانت قد بدأت تأنس بهما، فهي تفتقد الشعور بهذا الجو الأسري الدافئ، مارست أمومتها خلال يومين بشكل عميق، كانت تستمتع بهذا وكانا يستمتعان بكل لحظة معها، راقبتهما كثيراً وهما يتحاوران بهدوء، قبل انصرافهما وقفتا أمامهما وقالت وهي تستند إلى عكازها:

- هو الوداع الأخير إذن هذه المرة...

لم يتمكنا من التعقيب سوى بنظرات عاجزة مرتبة ملؤها الأسى..

قالت سريعاً لتخطى لحظات الحزن المؤلمة تلك:

- ليس من الضروري أن تقطعوا المسافة سيراً على الأقدام

ابتسم "أنس" وقال:

- لا تحاولى، "مَرَام" تصاب بالبلع عندما ترى الفجوات.

- لم أقصد الفجوات التي تصنعها بخنجرك!

- إذن ماذا تقصدين؟

رفعت حاجبيها وقالت في كياسة:

- النهر!

سارت العجوز "ناردين" وسارا خلفها حتى اقتربا من ضفة النهر الأخضر، وقفت تراقب الماء ووقفا خلف كتفها وطالعت إنعكاس صوريهما وتأملت الصقر الكبير على يمينها، وذاك الصقر اللطيف على يسارها وضحك قائلة:

- صقر قصير مصاب في جناحه، كم أنت قصيرة يا "مَرَام"!

ابتسمت "مَرَام" وعادت تسأليها:

- كيف سنعود من خلال النهر؟

ضربت العجوز الأرض بعكارها فبدأت الرياح تدور ثم دفعت سطح ماء النهر ليتدفق بسرعة شديدة تجاه الطريق الذي جاء منه "أنس" و "مَرَام" منذ يومين، كانت المياه تسير بسرعة شديدة محدثة تمواجات تشكل أنصاف دوائر متوازية في اتجاه واحد، ضربت العجوز الأرض مرة أخرى فتساقطت أوراق الشجر بكثافة وتحركت وكأن هناك أيادي تتلاعب بها وارتصت فوق بعضها البعض وشكلت بساطاً أخضر فوق سطح الماء، أشارت إلهمما وقالت بهدوء:

- أصعدنا فوق الماء وستنزلكم أوراق الأشجار إلى نهاية الغابة.

قالت "مرام" باندهاش شديد:

- أتمزحين يا خالة!

مدّت العجوز ساقها وخطت فوق البساط الذي شكلته أوراق الأشجار، استقرّت عليه وكأنّها تقف فوق أرض صلبة! وقفّت تطالعهما وعلى وجهها ابتسامة واسعة، قالت تشجّعهما:

- تعالى، هيا مأسير معكما حتّى نهاية الغابة

صعد "أنس" فوق البساط، ومدّت العجوز يدها لـ "مرام" التي كانت ترتجف وهي تنقل ساقها، صرخت عندما بدأ البساط يسير بسرعة فوق الماء وتمسّكت بذراع "ناردين" كان الهواء البارد يصافح وجوههم ويُموج بثيابهم، وثلاثتهم يضعّكون وكأنّهم في مدينة الملاهي، منظر فردوسي بدا على الأفق أمامهم، وصلوا سريعاً إلى الجهة الأخرى من الغابة، قفز "أنس" وخلفه "مرام"، والتفتا نحو "ناردين" التي لوحّت لهما وودعتهما ثم انطلق بساط الأوراق الأخضر عائداً بها إلى حيث كوخها في أقصى الغابة، فهي لا تستطيع تخطي الحاجز الحجري الذي يحيط بها أبداً.



دلّفت "نَبَرَة" بخطوات متسرّعة تكاد تشق الأرض بحدّائها، كانت تجرّ ثوبها خيلاً وتسيّر بغضّرسةٍ أمام أخيها "كمشاق"، تجاھلت "حليم" كالعادة وقالت بغضّب:

- أين الساحر "قرحة"، أريده في الحال

- أرسلت أستدعيه، اهدئي يا "نَبَرَة"، لا بدّ أن الكتاب في القصر، ألم تراودك رؤى عنه؟

- لا ، عن المحارب فقط، كنت قد رأيته أكثر من مرّة مع ذاك الشاب، ما زال يقيم بداره، لم يظهر الكتاب معه بعد، لكن الرؤى لم تراودني منذ ليلتين، لا أدري أين اختفت البوّمة!!

ووجه "حليم" كلامه إليها قائلاً:

- ربما يظهره هزاراً، فأنت لا تراودك الرفوى إلا ليلاً -
رمته بازدراء وقالت:

- المحاربون يديمون النظري في الكتاب ليلاً ونهاراً ليراقبوا ظهور الكلمات فيه، وذلك المحارب يحمل حقيبة لا يبدو أن الكتاب فيها.

ثم استدارت وأشارت بعنجهية إلى أحد الحراس وقالت:

- احضروا الساحر "قرحة" حالاً

انصرف أحد الحراس مهرولاً ليستدعي الساحر "قرحة" ذا الستة أصابع، والذي يخشاه الجميع، حيث كان يستعين بالجان ويقوم بأفاعيل يشيب لها الولدان، جلس "قرحة" تفرقع أصابعها وتفرض شفتتها في غضب، لم يجرؤ أخوها "كمشاق" على لومها فالكتاب قد سرق من غرفتها وهي التي أصرت على الاحتفاظ به عندها، لكنه كان غاضباً منها بشدة.

عادت لجناحها فإذا بجارية تهرب نحوها وهي تحمل عشاً أحضره بستانى القصر من فوق الشجرة، كان يحوى صغار بومتها البيضاء، اتسعت حدقتاها وكانت في غاية الغضب، قالت "نيرة" بحقن شديد:

- أليها انشغلت عن تلك البومة الحقيرة!

مدّت كفيها وخفقت الصغيرين داخل العش، كانت الجارية ترتجف وهي تراقب أنفاسهما وهي تباطأ ثم تقطع، هرولت باكية وأعادت العش للبساتاني الذي أعاده ملكانه في وجل وإشفاق، واحتبا مع الجارية يراقبان البومة المسكينة عندما عادت وقد فُجّعت في صغارها.



خوفاً!

عاد "أنس" إلى دكان "كلودة" بعد أن ترك "مَرَام" أمام بيت "أشريا" واطمأنَّ أنها دلفت إلى الدار بأمان، استقبله "كُومبو" بالعناق وكان في غاية السعادة بعودته، أما "كلودة" فبدا ساهماً وكأنَّ هناك ما يشغل فكره، حتى أنه لم يسأل "أنس" عما فعله في الغابة، واكتفى بمتابعة حواره مع "كُومبو"، قرر "أنس" أن يبدأ رحلة بحثه عن كتابه، أخرج الخريطة التي أعطتها له "الجوراء" وعاد يتفحصها بإمعان، كان يتفكَّر في الأرقام المدونة عليها، ترى ما الذي تعنيه! حاول أن يجري بعض الحسابات ليربط بينها، اجترَّ كلَّ المعادلات التي درسها بالجامعة، لعلَّه يفكَّ تلك الشفرة، لكنَّه لم يصل إلى شيء واضح ومحدداً يبدو أنه سيعود إلى المكتبة العظمى، لا مجال لتأجيل زيارتها ليسألهم عن مصير الكتاب، بينما هو غارق في أفكاره فوجيء بها تقف أمامه! قال متوجباً:

- "مَرَام"! ما الذي أتي بك إلى هنا؟ ألم نتفق على أن تبقى في دار "أشريا" ولا تخرجي إلا للضرورة؟

- أصابني الخوف

- من ماذَا؟

قالت بصوت تخنقه العبرات:

- لا أدرى، أشعر أنني لن أعود إلى بيتي، لقد انتهى أمري وسأظل هنا للأبد

- بل ستعودين إن شاء الله.. ثقي بالله!

- ونعم بالله. حسناً.. ماذا سنفعل؟ ما خطوتنا التالية؟
 - كما اتفقنا، سأحاول البحث عن الكتاب
 - إذن سأذهب معك.
 - لكنني سأذهب إلى المكتبة العظيم، وسأنتقل من خلال فجوة ولم الفجوات! هل من الممكن أن نسير معاً؟
 - المسافة طويلة جداً يا "مَرَامْ"، لقد حاولت من قبل، كما أنَّ المكان هناك مهيب ويُكاد يكون خالياً من البشر! هنا في القرية أنتِ بأمان، وكونك في دار "أشريا" سيجعلني مطمئناً عليك عندما أغيب عن القرية، أرجوك عودي إلى هناك.
- قالت بتضجر:
- يبدو أنك نسيت أنني كنت أعيش هنا وحدي قبل مجئك، ووصولك لا يعني أنك وصيَّ على! لقد علقت معك رغم أنفي!
 - ثم استدارت وسارت بعصبية فلاحها وسار بجوارها وقال يلومها:
 - ظننتك توقفت عن هذا!
 - استدارت بعصبية وسألته:
 - ظننتي توقفت عن ماذا؟
 - عن الغضب فجأة وبلا سبب.. كما تفعل أخي "حبيبة" أحياناً! كُنْتِ أكثر هدوئاً عندما كنَّا مع "ناردين" في الغابة
- شعرت بالحرج منه، قالت بتلعثم:
- لست غاضبة، أنا فقط..
 - قاطعها قائلاً:

- أعلم أنك قلقة وخائفة، وأن فدك لم يميزاتك كمحاربة جعلك أكثر حساسية عن ذي قبل، ولكنك الآن مجبرة على التعامل مع الأمور كما هي، فهوبي على نفسك، ودعيني أقوم بمهمي وساعدني بأن تجعليني مطمئناً عليك وأنا أؤديها.

راقت لها كلماته البسيطة، وسارت بجواره تغمرها حالة من السكون الجميل، تحتاج من آن لآخر لبعض الطمأنة لا أكثر، فالوضع مربك وهي ترثح تحت ضغوط نفسية متباشكة. أعادها إلى بيت "أشريا"، ودعها بعد أن وعدته ألا تغادر البيت مرة أخرى حتى يعود إليها. ثم أسرع إلى أحد البساتين بعيداً عن أعين الناس، أخرج خنجره وحركه في الهواء، انتقل إلى المكتبة العظمى، تكرر الأمر! وتكرر ما حدث له مع الرمال المتحركة، كادت الرمال تتطلع له لولا أنه فعل كما فعل في المرة السابقة ليخلص نفسه منها، سحبته الفجوة وعاد إلى بيت "كلودة"، يبدو أن الانتقال إلى المكتبة العظمى أصعب من الانتقال إلى كل الأماكن في تلك المملكة، كان متعباً ومرهقاً ففضل أن يرتاح قليلاً، مكت هنالك حتى عاد "كلودة" ليلاً، وكان لهما حديث طويل، استسلماً بعده لنوم عميق.



ما زالت السماء مظلمة، لم يبسط الفجر رداءه كاملاً بعد! أفاق "أنس" على صوت الباب وهو يُغلق، وثبت وتبعد "كلودة" حيث خرج قبل أن تشرق الشمس بدقيقتين، كان يسير نحو السهل متوجهاً للقصر للقاء "أونتي"، لحقه "أنس" دون أن يشعر به وضربه على كتفه، أجهل "كلودة" واستدار غاضباً، سأله "أنس" وعيّناه تهمناه:

- هل عدت للقاء؟

- أنا فقط أريد أن...

هربت منه الكلمات، لم يجد ما يقوله!، سأله "أنس":

- ألم تخبرني أنك ندمت وتبت يا "كلودة"؟

- كنت فقط أود أن أتحدث إليها لأخبرها أنني لم أقصد أن أجرحها أو أسيء إليها.

- تشفق عليهما.. أليس كذلك؟

- وأشعر بالذنب الشديد، كان الصواب أن أصدّها من البداية.

- لكِنك إن التقيّت بها ستضعف وتعود.

- لن أعود لذلك يا "أنس"، صدقني، أنا فقط..

- انظر لنفسك! تستدرجك شهوتك لتنزلق مرة أخرى.

- لا.. أنا ذاهب فقط لكي يرتاح ضميري ولست ذاهباً لإرضاء شهوتي، اتركني يا "أنس" أرجوك.

واستدار وترك "أنس" وأكمل طريقه تجاه القصر، لاحقه "أنس" وسبقه ووقف يعترب طريقه وقال وهو يمسك بكتفيه:

- عد معى، وأغلق تلك الصفحة تماماً، ولتنس أمراها وتسليم الله، هو يكفهم، وادع لها في صلاتك هي وكل من يخطئ، توبتك تحتاج منك أن تقطع صلتك بالماضي إلى الأبد، مجرد عودتك إلى نفس المكان ستتبش الذكريات، ستضغط على بقایا علقت بنفسك ولم تزل بعد أدراهنها، ما زالت روحك تتارجح، فشدها بعيداً واضرب خيمتك في فلاة وارياً بنفسك عن هذا واستغفر واستعصم، وغضّ على بنانك إن استبدت بك الشهوة وأصابك الحنين إلى العودة إلى هنا.

- أشعر أحياناً أنني قوي، وأحياناً أخرى أنني قبيح وقدر ونفسي متسخة...
ولن أتغير أبداً، وسأظل كما أنا، لن يغفر لي الناس، ستظل بقایا الماضي عالقة بي، وستطاردني.

- المهم أن يغفر لك رب الناس

- أخشى أن...

- لا تكملاها... ظن به خيراً، سيعذر لك، وسيستجيب، أتظن أن كل من حولك ملائكة! كلهم يخطئون ويدنبون يا "كلودة":

- لعلهم يذنبون ذنوبًا خفيفة، أما أنا فخطئي أكبر! ابتليت في شهوتني يا "أنس"

- كل الذنوب شهوات، شهوة جسد، لذة جواح مادية، تذوقها أعضاؤك فقط، أما روحك...فلها ملکوت آخر، جرّب أن تتلذذ وأشبع روحك بذكر الله، سيعادرك هذا الإحساس بالدونية، وستكون أقوى... جرب.

- وددت أن تكون إنساناً فاضلاً يا "أنس" ... ولكن فات الأوان!

- من قال هذا؟ أن تكون فاضلاً تعني أن تكون إنساناً طيباً ونقياً، أمن الآخرون أذاه.

- ويحب مكارم الأخلاق وتتمثل فيه، أنا أخطأ... كيف سأعود نقياً؟

- لكنك ندمت! كل سيئة ستقلب برحمة الله إلى حسنة، وكل ظلمة ستضيء، وكل نكتة سوداء ستبيض، أنت بشر ولستنبيعاً معصوماً، أنت تخطئ لكنك تداركت الأخطاء، قد تذنب، لكنك تزيد التوبة، يكفي أن يكون معظمك فاضلاً يا "كلودة"، لسنا ملائكة يا صديقي

ظللهم السكينة ووقفا للحظات، انتهى الكلام لكن معانيه لم تنته، نفرت دمعة من عين "كلودة" فاستقبلها "أنس" بكفه واحتضنه ثم سار يتآبّط ذراعه نحو البيت، عاد كلاما لفراشه لينعم بساعة يغفو فيها قبل أن ينطلقما للعمل.

طرقات خفيفة على باب الدار أيقظته من غفوته، كان "كلودة" غارقاً في النوم عندما أفاق "أنس" وسار نحو الباب، فتحه فأصدر الباب أزيجاً غريباً وامتلأت الدار بضوء ذهبي قوي رفع "أنس" كفيه ليحججه عن عينيه، خرج من باب الدار ليرى إن كان مصباحاً أو مذاكاً اختفى الضوء فجأة وظهر أمامه الأمير أواوا الذي كان قد رأه من قبل في النفق تحت الماء، كانت عليه ثياب كثانية مصبوجة بلون برتقالي فاقع ومحفورة بخيوط ذهبية على أطرافها، على رأسه كان التاج يومض تحت ضوء الشمس عاكساً ألوان فصوص الياقوت التي تطعم التاج، فغر "أنس" فاه وهو يتمالء هيئة الأمير الساحرة بقامته المديدة وملامحه المستضيئة، أجمل عندما رأه ينزع التاج عن رأسه ويركض وكأن هناك من يطارده، تلقت "أنس" ثم تبعه حيث دار خلف البيت وأسرع

يختي خلف جذع شجرة، رأى الأمير "أواوا" ينحني حيث كانت هناك كومة من الأغصان وبدأ يزيلها ثم بدأ يحرف الأرض بأصابعه حتى تغيرت رموزه وحاجباه وملابسها، نفض يديه وأخرج صندوقاً خشبياً وجلس بجواره وأخرج منه كتاباً ما، فتحه فدار وتقلب في الهواء وانفصلت ورقاته وطارت في الهواء وحلقت حول الأمير "أواوا"، عاد الأمير يكرر العبارات التي رددتها على مسامع "أنس" في المرتحن الماء بينما تدور الصفحات حوله، وبعد أن انتهى عادت تستقر بانتظام بين دفقي الكتاب، أغلقه بحرص شديد وحمله وكأنه يحمل رضيعاً وتأمله بامتنان ومد يديه بالكتاب لـ"أنس"، تلاقت عيناهما فشعر "أنس" وكأن روحه تنسحب من بين جنبيه، استيقظ على صوت "كلودة" وهو يهرّب بقوّة ويقول له:

- ما بك يا "أنس"؟ لماذا تشهق بتلك الطريقة؟

في تلك اللحظة، كان "كُومبو" يقف ويصبح عليهمما بصوته الجبوري من أمام باب البيت، ولما لم يفتحا ركل الباب بقدمه ودلف بعينيه الضاحكتين، قال بمرح:

- أعدت أمي لكما إفطراً شهياً، فطيرة محسنة بالتفاح والعسل.

في ثوانٍ معدودة كانت الغرفة تعير برائحة الفطير الشهي، وشب "أنس" من فراشه، كان يشعر أن عظام جسده تكاد تتفتت، جلس ساكناً كالصين للحظات ثم قال لهم:

- سأعود بعد لحظات.

خرج راكضاً ودار خلف البيت يتفحّص الأشجار، عبر على كومة الأغصان تحت شجرة جذعها عريض، أسرع "أنس" يحرف تحت الشجرة كما فعل الأمير "أواوا" في الحلم الذي رآه، انحنى وسحب صندوقاً ممتلئاً بالكتب، جلس والتراب يغطي رأسه وثيابه ثم أخرج منه كتابه الذي يبحث عنه، لقد دله الأمير "أواوا" على مكانه!

عاد بالكتاب لرفيقيه، فور أن رأه "كلودة" شهق وألقى الفطيرة من يده وقال:

- إنّه كتابي !!

- بل كتابي... "إيكادولي"

- كيف عرفت مكانه !!

- لن تصدق... بعد أن عدنا غفوت لدقائق ورأيت رؤيا تدلّي على المكان
تحت الشّجرة، دلّني عليها الأمير "أواوا"

قال "كُومبو":

- يا الله! إذن الكتاب من ضمن كتاباته العظيمة يا "أنس"!

ارتبك "كلودة" وبدا عليه التوتر، لم يتخيل أن يكون الكتاب الذي أهدته
له الأميرة "أونقي" هو كتاب "أنس"، قال بتحرج:

- لم أكن أعلم، فقد أهدته لي "أونقي"، وجدت صفحاته خالية فكتبت به!
كانت تلك الهدية التي أرسلت إلىَّ مع "مِرام" لتطلب مني أن أتخلص منها.

- إذن كانت "مِرام" قريبة من الكتاب وهي لا تعلم!

قلب "أنس" صفحاته فلم يجد شيئاً، تعجب "كلودة" وأخذ يبحث عما
كتبه فيه، ثم قال متعجباً:

- كنت قد كتبت بعض الكلمات، لا أدرى أين اختفت!

أغلق "أنس" كتابه وقال:

- الكتاب لا يقبل ما يكتب عليه، يبتلع الكلمات ويرفضها، ستظهر الكلمات
تباعاً في وقت ما، هذا ما أعرفه!

قال "كُومبو" بضمِّ ممتلي بالقطير وكان يتبعهما بفضول شديد :

- هكذا إذن تحدث الأمور، حسناً أيها المحارب، ها أنت قد استعدت كتابك،
فهل سترحل عنّا؟

قالها وفي عينيه مسحة حزن تشي بأنه قد تعلّق بـ"أنس" ويصعب عليه أن
يغادرهما، قال "أنس" يلاطفه:

- لا أئها السمين! سأبقى معكما وسأظل بالقرية حتى يسترد الكتاب كلماته.
- لست سميّنا
- ألسنت "كُومبو"؟
- نعم أنا "كُومبو"!
- إذن أنت سمين

انطلق الثلاثة إلى دكان العطارة، كان "أنس" سعيداً باسترداد كتابه،.. ظلَّ يشاكِسْ "كُومبو" طوال الطريق، بينما البسمة المتعبة لم تغادر وجهه "كلودة"، الذي كان يتعافي من الماضي، وقد بدأ يسترد روحه النقية، عاد يسبح، قال بصوت مكسور:

- سبحانك سبحانك، ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله!



بأنف عريضٍ مثقوب تخلله حلقة ذهبية رفيعة، وأذنين يتدلّى منهما فصّان من الياقوت الأحمر، وبوجه ضامر مغترٌ تثقبه عينان ضيقتان، وعليه ثياب سوداء مشبوحة باللون الأصفر دلف الساحر "قرجة" وعلى رأسه قبعة غريبة تنفر منها صفاتُه المجدولة بحبال تتدلى منها أجراس صغيرة ، جلس أمام الأميرة "نَبَرَة" وقال بصوت أحشن:

- مولاتي الأميرة "نَبَرَة"

كانت "نَبَرَة" تخافه لكنها تأبى أن تظهر هذا، لم تجرؤ على إطالة النظر إلى عينيه أكثر من ثانية، كانت ترکز على أصابع يده الستة وهي تتحدث إليه قائلة:

- أئها الساحر العظيم، أرسلت إليك لتساعدني.
نظر إليها بعينيه المتلخصتين تحت حواجبه المرتعشة على نحو شائن وقال:

- طوع أمرك مولاتي.

- هناك كتاب ثمين يخصّني سُرق من غرفتي، وأنا أبحث عنمن سرقه.

مد "قرحة" يده فجأة وأمسك بيدها فانتفضت وركز عينيه في عينيهما فارتجمست ورائتها نظراته، ترك يدها فتراجععت وقبضتها نحو صدرها وقالت له:

- ساعطيك ما تطلبه، ولبني على السارق.

صَفَقَ "قرحة" فاقترب مساعدته، ووضع إثنين أمام نبره، صبَّ في أحدهما الماء، ووضع في الآخر طيناً أسود، وبدأ يتمتم بكلمات لم تفهمها "نيرة"، ظلَّ يرددتها وكانت تشعر بالجو حولها يزداد حرارة، طلب منها أن تختر إناء وتحمله، حملت "نيرة" إناء الماء فانسكب عليها، غضن الساحر حاجبيه ثم أغمض عينيه في غضب، صرخ صرخة ارتجت لها أركان الغرفة، وأحسست هي بأنَّ هناك ألف إبرة رشقت في ذراعها، طلب منها أن تحمل الإناء الآخر الممتلئ بالطين الأسود، حملته بين يديها بحرث شديد، بدأ الساحر يحدق فيه، وبذلت الصور تمثل أمام عينيه حيَّة مرة أخرى ورأى فتاة تفتش في خزانة "نيرة" وتسرق الكتاب، كان ينتظر أن تستدير ليرى وجهها، وكانت "نيرة" تتبع تعابير وجهه بتركيز شديد وتنصت إليه وهو يصف ما يراه من مشاهد أمام عينيه لتعرف مصير الكتاب، ولكنَّ الطين الأسود ماج في بعضه ثُمَّ تصلب فجأة وتحول إلى حجر صلب، فشهق الساحر وأغمض عينيه، صاحت "نيرة" بعصبية:

- ما الذي حدث؟ من هي الفتاة؟

أمسك الساحر بالإناء وسحب منه الحجر الأسود الذي تكون وقال لها:

- أغلق الطين عينه!

- ما هذا الهراء! أعد ما قلته ولتحضر المزيد من الطين وأخبرني إلى أين ذهب الكتاب؟

- هذا الكتاب ليس لك.

- وما أدركك؟

- الكتاب مسروق من صاحبه.

وقفت وسارت خطوتين ثم التفت إليه وخلعت خواتمها وكل ما ترتديه من جواهر وألقتها أمام الساحر وقالت:

- ولك المزيد، فقط دلّني على مكانه.

- لن أستطيع

- لماذا؟

- منعى "المجاهيم" من تتبع مكان الكتاب

- ومن هؤلاء

- قبيلة من قبائل الجان، يبدو أن الكتاب بهمهم، لماذا تريدين هذا الكتاب؟

- أريدته لأنتمكن من السيطرة على المحارب، أريده... أتفهم؟

رفع حاجبيه وقال وهو يرشقها بنظرة خبيثة:

- يبدو أنك تريدين المحارب لا الكتاب يا مولاتي!

"غضبت الأميرة "نبرة" على شفتيها بغيظ، كادت تنصرف لولا أن "قرحة" قال لها بصوت يشبه الفحيح:

- قد أساعدك في السيطرة على المحارب نفسه.

- كيف؟

- أحضرني لي شيئاً يخصه، واتركي الأمرلي.



أشرق الشمس تكنس بقايا الليل، تنزع أدرائنا علقت بثوب الصُّبح، فتنفس تائباً منيباً، وأنار كلّ شيء بنور الله، صفحة من ليل بهم ولّت تطوي ذنوبها غسلتها دموع التائبين، نسمات الهواء تهمس شكرًا لله على ستره للخاطئين، فهو لم يفضحهم ولم ينزع الغطاء عنهم لأنّه أراد أن يمهلهم ليتوبوا.

كان أنس يتفحص كتابه باطمئنان وهو يجلس في ركن هادئ بـ "دكوان" "كلودة"، كان يتفكر كيف ستظهر الكلمات، وكيف ستكون؟ هل هي قصة؟ أم مجموعة من النصائح والحكم في شكل قصصي؟ أم ماذا!!! هو لا يحتاج الآن إلى الذهاب إلى المكتبة العظمى ليسألهم عن الكتاب، بل يحتاج لمخالطة الناس حتى يظهر أبطال قصة كتابه، ألقى عصا التسيير في القرية التي امتلأت طرقها بالغائدين والراغبين، مرّ الوقت فعاد وكان قد قرر أن يعاون "كلودة" و"كُومبو" في عملهما بدلاً من الجلوس معهما في الدكوان بلا فائدة، بعد يوم طويـل من الثلاثة بـ"بيت أشريا"، دعـتهم الأمـ الكـريـمة كـعادـتها لـتناولـ الطعامـ، كانت تلك المرأة النوبية تجد متعـة فيـ الحياةـ الـاجـتمـاعـيـةـ، مـهـماـ ازـدادـتـ مـسـؤـليـاتـهـ لـأـتـاخـرـعـنـ إـطـاعـمـ الطـعـامـ، أـعـدـتـ لـهـمـ "ـالـكـابـدـ"ـ حـيـثـ كـانـتـ تـعـدـهـ أـحـيـاـنـاـ بـعـدـ أـنـ يـخـتـمـ لـيـتـناـولـوهـ فـيـ الإـفـطـارـ مـعـ العـسلـ وـالـلـبـنـ، كـانـتـ تـجـيدـ صـنـعـهـ مـنـ دـقـيقـ الـذـرـةـ وـالـشـعـيرـ، كـمـاـ كـانـتـ تـعـمـمـهـ "ـالـدـورـكـدـ"ـ، وـ"ـالـشـطـيـطـةـ"ـ، وـ"ـالـمـرجـيـجـةـ"ـ، وـ"ـالـشـيلـدـ"ـ، وـالـعـدـيدـ مـنـ أـصـنـافـ الـأـكـلـاتـ الـنـوـبـيـةـ الشـهـيـةـ.

اقرب "أنس" من "مرام" وأخرج الكتاب لتراه، قالت وهي تمرّ بيدها على غلافه:

- يا إلهي! كان الكتاب قريباً ميّ طوال الوقت وأنا في القصر!
- نعم وفي نفس الغرفة، وكنتِ تطلبين من "كلودة" أن يتخلّص منه! ماذا لو حرقه "كلودة" مثلـاً.. تخيلي!
- تلك الكتب تدافع عن نفسها يا "أنس" لا تقلق ثمّ أضافت مقطبة جبينها:
 - إنها تشعر بكلّ شيء!
- بالمناسبة، لا تخبـي "أشـرياـ"ـ بـأـمـرـ الأمـيرـةـ "ـأـونـتيـ"ـ وـعـلـاقـهـاـ السـابـقـةـ بـ"ـكـلـودـةـ"
- لن أخبرـهاـ...
- أعلم أـنـكـ سـاخـطـةـ عـلـيـهـ، لـكـنـيـ أـشـعـرـ أـنـهـ وـ"ـأـشـرياـ"ـ أـبـطـالـ قـصـةـ كـتـابـيـ.

- هو لا يستحق "أشريا"!

- يا "مَرَام"، "كِلُودَة" كان قد اتخذ قراراً بالتوقف عن رؤيتها من قبل أن تصلي إليه برسالتها، كما أنه كان سيرسلك شخصياً لها لخبرها بهذا.

هزت كتفيها وهي تجلس وقالت:

- أوقال لك هذا!!

- نعم، ولكنك أخبرته أنك حرة ولن تعودي للقصر

أشاحت بوجهها وقالت:

- أشك في صدقه

- لقد ذهب بالفعل وأخبرها أنه لن يذهب إليها مرة أخرى.

كانت "مَرَام" غاضبة وهي تنصلت إليه، فقد رأت "كِلُودَة" بعيتها مع "أُونتي" وكانت تكره فعلهما حيث كانت مجبرة على الذهاب معهما، لم تكن قد شهدت بكاء "كِلُودَة" ولم تسمع كلامه الذي أثر في "أنس" و"كُومبُو"، وعدته أن تكتم السر، بعد لحظات وبشكل فجائي انطلقت أم "أشريا" تزغرد في فرح فقد طلب "كِلُودَة" الزواج من "أشريا" مرة أخرى ووافقت أخيراً الفتاة على الزواج! تذكريت "مَرَام" حدثها معها في غرفتها وأدركت أنها قررت أن تقف بجوار "كِلُودَة" وتثبته وتقبله بعيوبه لأنها تحبه، كانت "مَرَام" ترى تلك مجازفة وحمامة! ما زالت "مَرَام" لا تثق في "كِلُودَة"، لكنها لا تستطيع أن تفتح فمهما اقترنت منها وهنأتها، وكذلك فعل "أنس" مع "كِلُودَة"، وعادا إلى أماكنهما يتهدثان، همست "مَرَام" لـ"أنس":

- لماذا يفعلون هذا!!

- من هم؟

- الرجال!

- ما بهم؟

- أترى "كِلُودَة"! يعود مع فتاة ويتزوج بأخرى عفيفة! أشفع على "أشريا" لكنني لا أستطيع البوح لها بشيء.

- شش... كفي عن هذا!! لا تفضحيه!

- لا أدرى كيف تدافع عنه!

- لقد تاب، وهو نادم على ما فعله بشدة.

غمغمت قائلة:

- وما أدراك؟

- أعرف، فأنا شاب مثله، مرت أيام قليلة لكن ما شهدته فيها يكفي.

- لا يوجد شاب بكر العواطف على وجه الأرض...لماذا لا تكون الزوجة أول حب لزوجها؟

- وما أدراك أن كل الأزواج هكذا؟

- لا أدرى... مجرد ظن.

- أتحسسين أن أي خاطرة ترد على فكر رجل أو شاب تعتبر حبًا؟ الأمر ليس بتلك السهولة، ربما هناك إعجاب، وربما يفكر الشاب في فتاة ويتراجع كما تفعل هي أيضًا، حق الفتاة العفيفة تعرض على عقلها صورة الخاطب لها، وتمر بخاطرها، لكنها وإن انصرف كلَّ منها لحاله تستخلص نفسها من حالة الفكر تلك، ولا يحسب هذا عليها حبًّا.. أليس كذلك؟

- لو فتّشت في قلب أي شاب ستتجده مغارة علي بابا، ممتلئة بالآلاف قصص الحب لكل الفتيات اللاتي التقى بهن في حياته.

- لا تقع في فحَّ التعميم، فليست كل الفتيات تملك قلبًا كمدينة الملاهي التي يستطيع أي شاب تلتقي به أن يتذمَّر منها.

أطبقت فمهما، وعادت تحفز له، كانت تشعر بالغضب تجاه "كلودة"، وكانت تصبَّ غضبها على "أنس"، وكأنَّه مسئول عن أخطاء غيره! لاحظ توترها، أراد أن يخفف عنها فقال بهدوء:

- لم يكن قلبي يومًا كمغارة علي بابا، كنت أتعامل مع زميلاتي في الجامعة بتحفظ حتى أن البعض كان يظنني شخصًا بارداً لا يجيد فنون التعامل

معهن بلياقة ولطف، لكنني كنت دوماً أرى أنه في يوم ما سألتقي بفتاة مميزة، وكما أني حفظت قلبي من أجلها سيخفظها الله من أجلي.

- ولكن! انظرها هي "أشريا" حفظت قلبها! وهذا هي ستتزوج من شاب....

- ربما لصدقه حفظها الله له، وربما لنقائتها أصلحه الله لها، لا يوجد شخص مثالي يا "مَرَام"، كلنا نخطئ، وأخطأنا متفاوتة.

ابتلעה صمت خفيف بعد أن أنصت لنفسه! كان يسترجع فيه ما كان يفعله مع رفاقه سابقاً، كيف كان يلغى صداقته بمن يخطئ خطأ واحداً راوده شعور بالذنب تجاه كل من أقصاهم من حياته، لماذا لم يتراجع ويعطهم فرصة؟ أو حتى يسأل عنهم ويكون هناك عندما يحتاجونه، فربما يثبتهم ولا يعودون للخطأ، انتشلته من فقاعة الصمت التي لاذ بها وهي تقول:

- نعم... ربما أصلحه الله من أجلها يا "أنس"... أرجو هذا.

ازدحم البيت في الحال، أقبل الجيران يفدون إلى الدار بهنائهم، وكان "كُومبو" يهلل فرحاً ويقفز هنا وهناك يسلم على الناس وكأنه هو صاحب العرس، بينما وقف "أنس" و"مَرَام" في حالة سكون لطيف يسترقان النظر خلسة لبعضهما، ويراقبان ميلاد حب جديد، كانت الفرحة تطل من عيني "أشريا"، وكان "كلودة" يشعر بفرحة ممزوجة بالخوف والوجل.

في لحظة ما تلاقت عيناهما بعيوني "أنس" فأسرعت تصرفهما، شعرت بدقّات قلبهما تتواثب، هو الحب لا ريب، هكذا كانت تقطّع الكلمات في ذهنه هو الآخر، وكلاهما يشيح بنظره عن الآخر بينما القلبان يتبادلان النظرات، اهتزّ كتاب "إيكادولي" في حقيبة "أنس"، فأخرجه وفتحه واقتربت "مَرَام" عندما لاحظت ارتباكه والكتاب بين يديه، لقد ظهرت أول عبارات الكتاب، وقف كلاهما يقرؤها بفضولٍ شديد:

" ذات ليلة، وحيث السماء يطللها جريد النخل و كأنه سحاب أحضر، أطل قمرٌ طاهر على أرض لا يعرفها إلّا ساكنوها فأضاء جنبات نفس أخرى بالنور، فباح الريحان بعطره وملاً الكون عطراً لأجلهما، وتعانقت أوراق الورد، ورقشت

الفراشات على حواف الزهر، ودارت الرياح تمنى بعضها البعض، وسكن ماء النهر لينصت على استحياء، فهمس المحب في نفسه، وكان لحبه صوت لم يسمعه إلا حبيبه.. في نفسه! وحمل القلبان الحب كما يحمل الغمام المطر، في بقعة ما بين الشرق والغرب، حيث تتأرجح الحياة بنا، يحكى أنّ ذات مرة، ولد حب!"
تبادل "أنس" مع "مَرام" نظرة خاطفة على استحياء، وعادا يتبعان ما يدور أمامهما في صمت وسكون جميل.



فرحة!

انقلب البيت رأساً على عقب، الزواج اليوم! كانت تلك مفاجأة لـ "أنس"، كما كانت مفاجأة لـ "مَرَام"، فهما من عالم يستغرق الزواج فيه شهوراً طويلة، وربما عاماً أو عامين حتى يتم! كان الإسراع في الزواج وتسهيله من عادات أهل القرية، وخاصة إن كانوا أبناء عم أو خال، كانوا يعاونون بعضهم البعض وكثيرون أهل بيت واحد، حمل بعض الأهالي أثاثاً بسيطاً لبيت "كلودة" كل منهم ينفعه هدية، كما أسرعت النساء بإعداد الطعام كل منهن تعد صنفاً شهياً، أما الفتيات فتجمعن في بيت "أشريا" التي كانت مشغولة بشيء ما تتفحصه بينما كانت صديقاتها يمشطن لها شعرها، سألتها "مرام" عنه فأخبرتها أنه "متّكاً الحبيب"، وهو نوع من البروش مصنوع من سيقان القمح ومشغول بقمash بديع الألوان شغلته "أشريا" ليعلّق خلف العريس "كلودة"، وكذلك تفعل كلّ عروس بالقرية، ابتسمت "مرام" بينما كانت تتبعي ضحكات الفتيات، وأحاديثهن الجحولة، وتلك الهمسات والكلمات الخفيفة على الظهور في جو من الفضول والخجل، ستتزوج "أشرياً" أخيراً من حبيبها الذي تعفت حتى طلبها.

من اليوم جميلاً، وبسطت الفرحة رداءها على الجميع، انتقل "أنس" لبيت "كُومبيو" وبات ليته عنده، بينما عادت "مرام" مع أم "أشرياً" تفككف لها دموعها فقد غادرت قرة عينها لبيتها الجديد، كان كلّ منها في مساحة أخرى، لكنهما كانا يحلقان معاً في سماء الحبّ، همس "أنس" لنفسه والكري يعقد بمعاقل جفنيه وقال:

- سأتزوجها... ولم لا؟

بينما كانت "مَرَام" ساهمة وهي تحدّق في الفراغ وتقول:

- "إِيْكَادُولِي"



انتصف الليل، لكن السكينة والهدوء لا يزوران القصر حتى يطلع الفجر، كالعادة يحتفل الملك "كِمْشَاق" ورفاقه بأي شيء، ليس ضروريًا أن يكون هناك سبب محدد، ولكنهم يحتفلون! أمّا "نَبَرَة" فما زالت غاضبة، لكن غضبها لم يمنعها من الجلوس وسط الاحتفال لستمتع وتتلذذ بمراقبة العيون لقوامها وجمالها.

في غرفتها كانت "أُونَتِي" تفرك يديها في غضب وهي تسترجع آخر حوار لها مع "كِلُودَة"، تذكرت عندما قال لها (ربما لا ترينني مرة أخرى)، لكن هذا لم يكن ما يقض مضاجعها بل تلك المقاومة التي لاقتها وهي تحاول أن تقترب منه كالمرة السابقة! كان يمسك بذراعيها بقسوةً ويدفعها وهي ترغب فيه وتحبه! حتى أنه عاد وظهر من بين الأشجار بعد أن انصرفت الجارية وأخبرها بوضوح وبكلمات مقتضبة أنه سيتوقف عن لقائهما، وأنه نادم على كل لحظة رآها فيها، وأنه يخشى الله ويرجو مغفرته! شعرت بطعنة وكأنه وجه إليها إهانة شديدة.. لم يترك لها الفرصة وأسرع هاربًا منها وكأنها الموت يلاحقه.

- فليذهب للجحيم ذاك الحقير!

قالتبا بمرارة وكل خلية في جسدها تنفر غاضبة، فتحت خزانتها وأخرجت أحسن أثوابها وأكثرها إظهاراً لملائتها وارتديته ونزلت في كامل زينتها للحفل، أرادت أن ترضي غرورها بشكل ما، شيء ما يعيد إليها كرامتها التي أهدرها "كِلُودَة" بنفوره بتلك الطريقة، فور دخولها ران صمت مفاجئ على الحضور، لو ألقى أحدهم إبرة لاستمع الجميع لرنينها، كان جمالها في تلك اللحظة يفوق جمال "نَبَرَة" التي استشاطت غضباً عندما رأتها، فهي لا تقبل بوجود من يناظرها عرش الجمال في ذلك القصر، حتى أختها الشقيقة، انضمت "أُونَتِي" للحضور، وعاد الصخب للقاعة.



كان كل شيء يبدوراً في عيني "مَرَام" وهي تسير بتؤده نحو الدكّان، كانت تراودها أحلام يقطّلة خاطفة وهي تسير، وكانت تبتسم وهي شاردة كطفلة صغيرة، تخيلت نفسها عروسًا ترتدي فستانًا أبيض واسعًا وتزفّ إليه، تخيلت كل شيء حتى لون ربطة عنقه، كل تلك التفاصيل الصغيرة التي لم تكن تعلم أنها ستدقق فيها حتى وهي تحلم به وتخيله، حمدت الله أنه لا أحد يرى ما يدور برأسها. اقتربت منها بانضباط وحيثما بوقار ثمّ وضعـت سلـة ممتـلة بالطعام أعدـتها أم "أشـريـا" للعروـسـينـ أمـامـ "كـومـبوـ" وـ"أنـسـ" وـسـائـلـهماـ:

- من منكم سيحمل الطعام للعروـسـينـ؟

قهـقهـهـ "كـومـبوـ" قـائـلاـ:

- ما زلت لا أصدق أن "كلـوـدـةـ" تـزـوجـ!

كان "أنـسـ" على غير عادته، لقد بدأ يرتبك في حضور "مَرَام"! كان يشعر أن نفسه التي بين جنبيه ترتجـ كالجرـسـ، هربـ الكلـماتـ منهـ، شـعـرـ أنهـ لاـ يـسـتـطـيعـ الكلامـ، وـكـانـ الـوهـنـ أـصـابـهـ! تـذـكـرـ كـيفـ كانـ يـرـىـ "كلـوـدـةـ" وـهـوـ يـتـحدـثـ إلىـ "أشـريـاـ"، وكـيفـ كانـ يـتـهمـ بالـهـوانـ وـالـضـعـفـ، اخـرـقـتـ "مَرـامـ" فـقـاعـةـ الصـمتـ التيـ كانـ لـائـذاـ بـهـاـ وـسـائـلـهـ:

- هل ستتحمل أنت الطعام يا "أنـسـ"؟

- يـبـدوـهـذـاـ لـأـنـ "كـومـبوـ" لـنـ يـسـتـطـعـ تـرـكـ الدـكـانـ، هلـ مـنـ المـمـكـنـ أـنـ تـسـيـرـ مـعـيـ؟

فـاجـأـهـ بـرـدـهاـ الـذـيـ نـزـلـ عـلـيـهـ كـالـصـاعـقةـ عـنـدـمـاـ قـالـتـ:

- لاـ!

ردـ بـتـحـرـّجـ:

- يـبـدوـ أـنـيـ أـزـعـجـتـكـ.

قالـتـ بـأـرـتـبـاكـ:

- لاـ لاـ.. لمـ تـزـعـجـنـيـ وـلـكـنـيـ، أـفـضـلـ أـنـ أـعـودـ لـأـمـ "أشـريـاـ" فـهـيـ حـزـينـةـ لـفـرـاقـ ابنـهـاـ كـمـاـ تـعـلـمـ.

- حسناً سأذهب الآن.

- لا تنس أن تنقل سلامي إليهما.

استدار كلاهما وافترقا، كانت "مَرَام" قد قررت ألا تسير معه وحدها مرة أخرى، لا تدري كيف في تلك الظروف العجيبة! وفي تلك المملكة الغربية! لكنها أرادت أن تحافظ بتلك المنطقة المحظورة التي تربت على أن تحب نفسها وقلبيها بها، فلا تسمح لغريب بأن يقتسمها، حتى لو كانت..... تحبه!، اجترت ذلك الحوار الذي دار بينها وبين "أونتي" التي أخبرتها أنها لن تستطيع السيطرة على مشاعرها ونفسها إن وقعت في الحب، وأنها ستختلط، وكان ردها أنها ستستعصم.

سار "أنس" نحو بيت "كلودة"، شارداً يفكر كيف أصابه سهم الحب فجعله هشاً بتلك الطريقة! في تلك اللحظة شعر باهتزاز في حقيقته فأدرك أن هناك عبارة جديدة ظهرت في الكتاب....

"عندما أحّبّها، ارتفق معها فوق مستوى اللذة، لم يدع الفرصة لجسده لكي يمتلي روحه ويقودها إلى الماوية، ترك العنان لروحه لتحلق فوق جسده فروضته وارتقت به نحو الجنان، كان يحبّها، ويعشقها، لكنه يخشى من نفسه، ويخشى عليها من نفسه!"

أكمل "أنس" طريقه يتفكر في الكلمات، وبعد أن وصل لبيت "كلودة" والتقى به وعائقه طويلاً، ثم أعطاه الطعام طلب منه الدعاء، شعر "كلودة" لأول مرة أن "أنس" أصابه شيء ما! لكنه أسرع يغادر على استحياء وعاد من حيث أتى.

أغمض "أنس" عينيه، وجال في نفسه، وكأنه يتعرف عليهما لأول مرة! هناك اشتياق لحالة من الشفافية مررت به ربما في لحظات عديدة في أيام مضت، أحياناً وهو ساجد، وكثيراً لحظة إفطاره بعد صيام رقّ فيه قلبه، وربما عندما كان يقرأ القرآن، تنفس بعمق ثم فتح عينيه، وسار وهو يطالع كل شيء حوله بعين أخرى، ومن منظور مختلف.

عاد إلى الدكان حيث كان "كُومبو" يوزع الابتسamas، ذاك الشاب لديه روح تضج بالسعادة، يفرقها على الآخرين، وكأنه لا يخشى الحزن أبداً.



مر أسبوع عاش فيه "كلودة" أسعد لحظات حياته مع حبيبة قلبه "أشريا"، كانت كل لحظة تمر بهما تزدهرما قربا، وكانت هادئة كقطة ودية اطمأنت أخيراً لجوار صاحبها وسيدها فسكنت له. ما زال البرد شديداً وكأن تلك المملكة فصولها الأربععة شتاء! كانت "أشريا" ترتجف عندما أخبرها "كلودة" وهو يحتضن كفيها بين كفيه أنه سيعود للعمل، وإن أحبت أن تسير معه لبيت أمها فلتستعد في الحال، هبّت واثبة ووضعت على رأسها خماراً فضفاضاً وسارت ترفل فيه خلف زوجها، استدار يحتضن كفها بكفه وسارا معاً نحو بيت أمها التي أغرتت دموع فرحتها وجهها فور أن رأتها، توجه إلى الدكان حيث كان "أنس" يقرأ في كتابه بتمعن، كان قد استقر في نفس "أنس" أن "كلودة" و"أشريا" هما بطلان قصة الكتاب بالفعل، أخفى عنه ما كان يقرؤه وبعد أن سلم عليه انخرط كلاهما في العمل، مر اليوم طبيقاً على الجميع، واجتمعوا على الطعام كالعادة، وقف "أنس" بجوار "مراهم" غير ناظر إليها وقال وقد بدا عليه التحرج:

- هل أنتِ بخير؟

- نعم أنا بخير.

- كيف هي عينك ويدك؟

- عيني أفضل، وببدأ الجرح في كفي يتحسن والحمد لله.

كانت وكلما تنظف جرح يدها تعيد تصميده بتلك القماشة التي مزقها من قميصه، ودّت أن تخبره بالكثير من الأشياء، عن خوفها مما زالت خائفة، لكنها أصبحت تخجل من أن تخبره أنها تخاف أن يختفي فجأة، أو أن يحدث له خطب ما، مضى "أنس" بخياله يطوي الأيام وقال فجأة:

- عندما نعود لديارنا... ما رأيك أن تتعرّفي بأختي "حبيبة".

بدا على وجهها الاستبسار وقالت:

- أود ذلك بالفعل.

افتربت شفتاه عن ابتسامة وقال:

- ستسعد بهذا، فهي قليلة الأصدقاء، كما أنها تشبهك كثيراً.
- أخبرتني بهذا من قبل.

نسى وجودهما في بيت أشريا ووسط الجميع وبدأ يحدّثها بصوتٍ عالٍ عن نفسه أمام الجميع، حدّثها عن أيام الجامعة، ورفاقه، وطبيعة دراسته، حتى أتته أخبارها عن طفولته، كانت تنصت إليه مستمتعة بحديثه، قالت مبتهجة:

- يبدو أنَّ دراسة الهندسة ممتعة، أظنك درستها بحبٍ وشفف.

أومأ موافقاً وأكمل حديثه، وكأنَّه اليوم لا يريدها أن تتحدث، بل أن تنصت إليه وحسب، فهو يودُّ أن يخبرها بكل شاردة وواردة عن حياته، كانت حريصة على أن تبدو هادئة منضبطة في تصرفاتها وأقوالها لتداري بهذا المظهر ما يضطرب في نفسها من نوازع. وكان يحدّثها وفي عينيه وهج جميلٌ تطل منه إشراقة مسحورة. كان يراها قريبة منه جداً وبعيدة عنه جداً، فهو يتجلَّ الخروج من تلك الملائكة ليطمئن أنها موجودة بالفعل، وأنها واقع في حياته يستطيع أن يجعلها جزءاً منه، أصبح يخشى أن تكون "مرام" حلماً يراوده!

لو تنهيت لعينيه لرأتهما تقطران حباً لكنها كانت تخفض الطرف، وكان هو يتحدَّث إليها طويلاً ثم يختلس نظرة ويعود فيخفض الطرف عنها، كانت هناك معركة تدور في صدره، كان يستجيب فيصمت ويسكن، ثم يجد نفسه وقد عاد يحدّثها وكأنَّ لسانه كان محبوساً لسنوات وأطلق سراحه للتو، وكانت كلها آذان صاغية، بينما كان "كُومبو" يراقبما في سكينة وهدوء شديد. جاء وقت الفراق، وكان ثقيلاً على قلبه كما لم يكن من قبل، ودعها وانصرف مع "كُومبو" وأمه إلى بيتهما ترف كل جوارحه هو إليها. اهتزَّ الكتاب في حقيقته، فآخرجه وقرأ ما كتب فيه:

"وأسرت روحها لديها، وعلق قلبها لديها، ومضى كلّ منها يملُّك في نفسه شيئاً من الآخر، يحلمان بلحظة يسكب كلّ منها رحيق الحب الظاهر في فؤاد الآخر"

رفع رأسه وتأمل "كلودة" و"أشريا" وهما يسيران أمامه نحو بيتهما، ثم أغلقه وأعاده إلى حقيقته ومضى مع صديقه "كُومبو".

أما "مَرَام" فجلست هادئة القلب راضية النفس نشوأة الخيال، لكنها شعرت بضيق فجأة، كانت تعلم أنه لا بدّ من صراع قبل أن يُسترد الكتاب، ولا بدّ أن وقته اقترب.



في الصباح التالي وفي غرفتها وحيث كانت "أونقي" تتلوى من الغيظ دلفت عليها شقيقتها "نَبِرَة" وجلست بعد أن أشارت للجواري ليتركنها وحدهما، قالت بلهجة آمرة:

- هناك شيء ما! أنت لست "أونقي" التي أعرفها، أخبرني ما الذي يحدث؟

- لا شيء!! لم تقولين هذا الكلام

قامت وسارت نحوها وامسكت بالمقعد حيث غطست "أونقي" فيه خوفاً ورعباً منها، وألصقت جمجمتها بجمجمة اختها وقالت:

- إن لم تتنطقي فسأستخرج منك الكلام بطريقتي الخاصة.

تمتمت "أونقي" بخوف وقالت بصوت مخنوق:

- ماذا تريدين؟

- الكتاب.. أنت سرقته أليس كذلك؟

شعرت "أونقي" بقشعريرة تجتاح جسدها كله وبعد أن ابتعدت عنها اختها وقفـت ترتجـف كورقة شجرة تتلاعـب بها الـرياح وقالـت بصـوت مرتعـش:

- بل سرقـته تلك الجـارية.

- من؟

- "مَرَام"

- تلك المـريضـة؟

- لم تكن مريضة، كانت مصابة في عينها فقط، أحضرها "حليم" ..أساليه عنها، فقد دثّرها بوشاحه عندما أحضرها، وكانت سعيدة بهذا! هي سرقت الكتاب من غرفتك وفرت بعد أن سرت المال من خزانتي.

كطلقة مدفوع خرجت "نيرة" من غرفة أختها وهي تهمهم بعبارات توعد وتهديد لها لأنها لم تخبرها في الحال، كما بدأت تسب وتلعن في "حليم"، انحدرت ككرة من النار على الدرج واقتحمت ديوان أخيها "كمشاق" وقدفت بكلماتها في وجه "حليم" الذي كان يقف بجواره:

- أنت السبب، تلك الجارية التي أحضرتها هي التي سرقت الكتاب من غرفتي وهربت من القصر بعد أن سرقت المال من "أونتي"

- أي جارية؟

- "مِرَام"

- أيهما؟ أنا لا أذكرها!

- تلك التي غططيتها بوشاحك أمهما...

صاحب "كمشاق" يستوقفها قبل أن تسبه، فهو يكره أن يغضبه لأنّه ساعده الأيمن، وألقت بجسدها على الكرسي وكان صاعقة أصابتها، قال "حليم" بجدية:

- ليس هذا بوجه سارقة.

- يبدو أنك عاشق أمها الحليم.

قالتها باستهزاء، فتجاهل ملاحظتها وقال:

- لست بسفيه أو أحمق حتى أخدع! تلك الفتاة ليست سارقة، وهي فتاة شريفة لم يمسها رجل من قبل، عودي لأختك "أونتي" فهناك شيء ما وراء اختفاء تلك الجارية، وهناك سر وراء اختفاء الكتاب.

عادت "نيرة" إلى غرفة أختها "أونتي" ودار بينهما حوار أدارته بطريقتها الخاصة حتى استخلصت منها القصة بحذافيرها من البداية وحتى تلك

اللحظة التي ماتت فيها روحها عندما لفظها "كلودة" ورفض غرامها، انكشف الأمر لـ"نيرة"، لكنّها لم تخبر أخاها ولم تخبر "حليم" بما عرفته، فهي تود رؤية "أنس" أولاً!

انطلق بعض الحراس الخاصين بها بعد طلوع الفجر يبحثون عن "كلودة" وعثروا عليه سريعاً فالوصول إلى بيته سهل عليهم، وانتزعوه من حضن بيته وأمنه وزوجته "أشريا" التي مادت الأرض تحت قدميهما وسقطت مغشياً عليها في الحال.



عادت "أشريا" إلى بيته "أنها" وأخبرتها و "مَرَام" بما حدث بعبارات قليلة يتخللها بكاء شديد بنسيج مسموع، كانت لا تعرف لماذا أخذوها! سالت "مرام" ماراً وتكراراً وهي الوحيدة التي كانت في ذاك القصر، وكانت "مرام" في حيرة من أمرها أخبرها بأمر الأميرة "أونتي" وقصتها مع "كلودة" أم لا. آثرت الصمت، وخرجت لتخبر "كُومبو" و "أنس" اللذين أغلقا الدكان وتوجهوا فوراً لبيت "أشريا" ، هدأها "أنس" ، وأخبرها أن "كلودة" يعيش الكتب كما تعرف هي، وأن كتابه كان عنده، وحراس الملك يطاردون المحاربين، ويطلبون كتبهم، ولأن الخبر وصلهم بأن الكتاب عنده اعتقلوه، بكت وتعلقت بكلمته وتوسلت إليه أن يعطيهم الكتاب ويعيد إليها زوجها "كلودة" ، وعدها أن يعيده وخرج حائزاً، لا يدرى ماذا يفعل!



كانت ضربات السيطر على ظهر "كلودة" متواлиّة حتى أنه فقد وعيه، كان خائراً مضعّع القوى حيث علقوه من قدميه فشعر بأن رأسه سينفجر، كرروا عليه السؤال:

- أين الكتاب؟

وكانت إجابته واحدة لا تتغير:

- الكتاب مع "أنس".

لکنهم كانوا يتلذذون بتعدديه، كانت "نَبْرَةٌ" تراقبهم وهم يضربونه، وجلست تفگر فقد أخبروها أنه تزوج منذ أسبوع، فهل هو بطل قصة الكتاب؟، وهل إن حصلوا على الكتاب الآن وثقبوا قلبه سيستطيعون كتابة ما يريدون بدمه حسب هواهم! يغيرون ما يحّتون، ويثبتون ما يريدون أن يثبتوه في عقول الناس! رفعت كفها فتوقفوا عن جلده، واقتربت منه ووقفت أمام وجهه المقلوب حيث كان لا يزال معلقاً في الهواء، كانت علامات الألم بادية في عينيه الدايبتين وسحننته الشاحبة، سألته مهدداً له:

- إن لم تخبرنا أين "أنس" الآن سأجعلهم يخلعون عيّنا من عينيك.

أخبرها عن مكانه، كان منهاجاً لا يتحمل نفخة هواء أخرى تمر على صفحه وجهه، فوصف لها العنوان بالتفصيل، أشارت لرجالها ليحضروا قلماً وقريطاساً، وكتبت لـ"أنس" تستدعيه لتراب بطريقة أدبية راقية، وأرسلتهم إليه، أرادت أن تلتقي به لتحاربه بطريقتها الخاصة.



مرضت "أشريا" مرضًا شديداً، كانت تنتفخ وجيئها يتفضّد عرقاً، فسيرها في ذاك الطقس البارد بعد أن سلبوها زوجها صباحاً من بيتهما لبيت أمها أضر بصحتها، أصابتها الحمى وكانت كسيرة ومهزومة النفس بسبب ما حدث لزوجها وجيئها، جلست مرام تمسح جيئها بالماء، أما أمها فكانت لا تتوقف عن البكاء، في غرفة أخرى من الدار كان "أنس" يجلس مع "كُومبو" يفكّر هل يذهب إلى قصر "كمشاق" الآن ويستخدم خنجره أم يذهب أولاً للحراء ويسألها! تناهى إلى سمعهما صهيل خيول، فانتفخ "كُومبو" وخرج يرى من الباب فإذا برجل مهيب الطلعة قال بطريقة رسمية:

- معي رسالة من الأميرة "نَبْرَةٌ".

كانت طريقته في الكلام توحى بالتوقيع الشديد، يبدو أن "نَبْرَةٌ" أوصته بذلك، اقترب "أنس" وتسليم الرسالة، ثم قرأها وقال:

- إنها تدعوني للقاءها.

اقربت "مراٰم" في قلق وقالت:

- لا تذهب.

لحظة "أنس" أن يدها ترتعش ونظر فإذا دمعة تند من عينها، قال بهدوء:

- لماذا؟

غامت على وجهها سحابة من الأسى وقالت:

- أرجوك لا تذهب، إنها "نَبْرَة"!

قال يطمئنها:

- هي تطلب اللقاء في مكان بعيد عن القصر، وليست الرسالة من الملك "كمشاق" نفسه، وبأي حال لا بد أن أساعد "كلودة"، سأساومها على الكتاب.

وضع "أنس" في حقيبته كتاباً آخرًا ليوهمهم أنه يحمل كتابه في حقيبته، ذاك ما تبادر إلى ذهنه بعد أن فكر سريعاً ليجبرهم على عدم قتله. قالت "مراٰم" وهي تحبس دموعها:

- وماذا إن لم تعد؟

أجابها بثقة:

- سأعود إن شاء الله

شعرت بشوكة حادة تنغرز في فؤادها، قالت بخفوت:

- وماذا لو... لم نلتقي مرة أخرى هنا على أرض تلك المملكة؟

اضطربت في دمه الكلمات ثم قال:

- دعينا نتعاهد على شيء، إن لم يُكتب لنا اللقاء هنا، وعاد كلّ منا لأهله،
فلنلتقي في الإسكندرية، في مكان محدد.

- فليكن

واتفقا على المكان، وودعها "أنس" وهو يقرأ الألم على وجهها وفي عينيها،
كان لا بدّ من إطلاع "كُومبو" على بعض الأمور، استأمنه على "مَرَام" وشدّ على
يديه وهو يصافحه، وابتعد مع الحراس يتلفّت من آن لآخر مشيرًا إلى "مَرَام"
التي انخلع قلّبها لرحيله.



(٢٠)

خطرًا

على حصان كستنائي اللون وتحت ستار الليل، كانت الأميرة "نَبِرَة" متوجهة صوب مكان بعيد عن القصر وبعيداً عن عين أخيها الملك "كمشاق"، ترجلت بثوب فتان وأقبلت ترفل في زينتها حيث كان "أنس"، عندما رأت وجهه "أنس" أحست بقلتها ينسحق لكتها نجحت في السيطرة على مشاعرها، كان يقف بكرياء، تأملت فتوته بإعجاب، قطراتُ العرق كانت تتلاألأ على جبينه رغم برودة الجو! فأدركت أنه كالبركان داخله يغلي رغم القوة والثبات الذي يحاول الظهور بهما، كان قد أغمض عينيه وأرخي ذراعيه يبدو منهما في التفكير بعمق، وقفت لدقيقة تتأمله وترابه، فُتنّت به فنسية من هي وأين هي ولم جاءت، بينما كانت تراقب كل لفحة منه وكل حركة يقوم بها بإعجاب، كانت تقترب بخطوات هادئة، أشارت للحراس الذين حيواها بإجلال، انتبه "أنس" ورفع عينيه ورنا نحوها بنظرة خاطفة وقال وهو يطوف في الأرجاء بعينيه:

- أين "كلودة"؟

اقتربت ووقفت قبالتها حتى اخترق عطرها القوي أنفه وقالت وهي ترممه: بجرأة:

- أنت قوي، وجريء! كيف ليت دعوتي بتلك السهولة! ألا تخشى أن أقتلك؟

لم يرد عليها مثيراً لديها شعوراً بغيضاً بأيتها تتحدث إلى الفراغ. كادت تصرخ في وجهه كما اعتادت، تهره، تصفعه ليعرف عينيه ويحدّثها، لكنها وقفت أمامه كالقط الصغير، قالت بنبرة مرهفة:

- اسمي... "نَبِرَة".

لائِدًا بفقاعة من الصمت انصرف مبتعدًا عنها بينما وقفت تتبع خطواته،
لم يتسمّ لها التنفس، وكأنّ نبض قلبها يتردد في صدغتها، لقد فُتنت "نَبْرَة"
ولأول مرة في حياتها! فتنت بالمحارب الذي جاء خصيصًا ليسترد نهاية كتاب
ستنافذه عليه!

جلست على مقعد قربه إليها أحد حراسها ووضعت ساقاً على ساق وقالت
بخضوع:

- "إيكادولي.." هل تعرف معناها؟

لم يلتفت "أنس" ، قالت هامسة:

- أحبك

لم يرف له جفن، كان ثابتاً كالطود فشعرت بازعاج وأردفت:

- أين الكتاب؟

- ليس معي

- وأين هو؟

- في أمان.

قالت بهدوء:

- لماذا لم تحضره معك، ألا تثق بي؟

- وما الذي يدعوني للثقة بك! لقد خطفتم صديقي!

كانت تحاول أن تمدّ حبائلها حوله ببطء، قالت وهي توقع كلماتها:

- وما الذي جعلك تثق بـ"الحوراء"؟ أليس من الغريب أن تمنحك ثقتك لغرباء
دون آخرين، أتيت إلى مملكتنا غريباً عنا، لا تعرف عن ماضينا فما لك
تحكم على الناس دون أن تسمع منهم؟

- كان جدي هنا من قبل وكذلك أبي، وأنا أثق بهما وبمن وثقا به من قبل.

ابتسمت وقالت:

- وهل لا بد أن نفعل كل ما فعله أباًونا وأجدادنا دون تفكير!
بدأت كلماتها تستفرّه، قال بعصبية:

- لا.. ولكنني أثق في حكمهما على الأشخاص، ولكل منها تاريخه وتجربته هنا.

تحولت ابتسامتها إلى تقلص مريع على جاني فهمها وقالت:

- أين عقلك، أليس لك عقل تفگر به وتحكم على الصواب والخطأ، وتختر
بارادتك؟ أم أنت تساق كالأخumi!

بدأ الوريد في جمتيه ينبعض، ردّ بحدّة:

- اخترت بإرادتي وعقولي أن أثق بأبي وجدي.

تلونت سريعاً كالحرباء ونظرت إليه نظرة فيها كل معانى الاستسلام والغزل
وقالت:

- لماذا أنت غاضب؟ هل ضايقناك في شيء؟ أنت تعلم أنني كنت أستطيع أن
أطلب منهم إحضارك بنفس الطريقة التي أحضروا بها "كلودة"، لكنني
أعلم أنك مختلف عنه، أنت شريف... لكنه خائن غدر بـ"أونتي" المسكينة،
وكان تحبه.

- هو ليس بخائن!

قالها وهو يمرّ على وجهها سريعاً حيث رمشت عندما التقطرت مقلتيه
فأردد مدافعاً عن "كلودة":

- كانت تطارده، لم يكن ليفكر في أميرة وهو شاب بسيط وفقير، هي التي
فتحت له الأبواب، وكانت تستدرجه وتغويه، وقد ندم وتراجع وأنهى
علاقته بها وأخبرها بنفسه.

لم يكن أمر "أونتي" يشكل أهمية لدى "تبّرة"، كان جل تركيزها على "أنس"،
شعرت للحظات أنها فهمته، هو من ذاك النوع من الشباب المهدّب الذي
يسهل الطريق إلى قلبه عن طريق معاملته بذوق وأدب، لا بأس من إظهار

بعض الضعف حتى تستميله، وربما تشهر أسلحة أنوثتها لاحقاً، قالت بعد صمت خفيض:

- أنت على صواب، أهلكتني أخي "أونتي"، كنت أتصحّحها كثيراً لكنها كانت تسيء إلى أسرتنا بأفعالها، لا أدري كيف أتصرف معها.

ثم سألته:

- هل هما أبطال قصة كتابك؟ هل ظهرت العبارات بعد أن التقيت بهما؟

- ربما... ربما "كلودة" وزوجته.

- أو "كلودة" و "أونتي"!

- لا أظن.

- الكتب هنا تفاجئنا، تكون عكس كل التوقعات! ربما أنا وأنت أبطال هذه القصة.

ارتبك "أنس" عندما قالت هذا ورنا إليها حيث اقتنصلت نظرة منه، ابتعدت عنه خطوات ثم استدارت فجأة قائلة:

- هل أحبيب من قبل؟

- ولم تسألين؟

هزت كتفها وقالت:

- طلما قلت هذا فأنت عاشق، من لا يحب يجيب نافياً بثقة في الحال، ترى من هي؟

أشاح "أنس" بوجهه بعيداً عنها وقال:

- أتيت لأنتحدث عن "كلودة"، أين هو الآن؟

- لا بأس بحديث جانبي، وسنعرج للحديث عنه فلا تقلق.

- لا... لا مجال لحديث آخر.

قام يسير بغضب فعلى قميصه بمسمار بارز من خشب الجدار، نزعه منه بعصبية فتمزقت منه قطعة وعلقت بالمسمار فابتعد وهو يفرك ذراعه حيث أصابه المسمار بجرح، بينما اتجهت "نَبِرَةُ" والتققطت قطعة القماش التي تمزقت من قميصه وكورتها في كفها، أومأت لكيبر الحراس فقد اتفقت معه أن ينزع عن "أنس" قميصه قبل رحلية لتعطيه للساحر "قرحة"، لكنها الآن ستكتفي بهذا الجزء الممزق، فهمها الحارس في الحال.

كرر "أنس" كلامه باستياء شديد:

- أريد أن أرى "كلودة" حالاً.

كان يتحدث بثقة، فهو لا يهابها ولا يخشها، حتى أنه لم ينظر إليها! شعرت "نَبِرَةُ" أن هناك من رشق كومة من الإبر في جسدها، انتفضت وسارت نحو حصانها حيث ساعدتها أحد الحراس في ركوبه، ثم التفتت نحو "أنس" وقالت بعنجهية:

- أحضر كتاب "إيكادولي" واستبدل به بصديقك، وأسرع قبل أن يقتله الملك.
انصرفت "نَبِرَةُ" والغيرة تتاجج في صدرها، ذات الشاب عاشق لا محالة، لم يرف له جفن وهي من هي تتألق في زينتها أمامه، وكأنه قد عمي وهي بقربه!



كان اللصوص ومنذ خروجهم من قصر الملك "كمشاقي" يبحثون عن "أنس" في كل مكان، توزعوا بين القرى يبحثون عنه، على حين غفلة منه، وبينما هو عائد من لقاء "نَبِرَةُ"، وبعد أن تتبعوه نجحوا في أسره بعد اشتباك عسير مع رجالهم، فقد كان "أنس" من ذاك النوع الذي يصعب أن تغلبه إلا بالكثرة، فهو خصم قوي وعنييد. أسرعوا به نحو قصر الملك ، ودخلوا به مقيداً، وقدموه لـ "حليم" ، ركلوا "أنس" بقسوة ليخرّ مرغماً على ركبتيه أمامه، لكنه وثب بقيوده واقفاً وأبي أن ينحني، فانهالوا عليه بالركلات حتى فقد وعيه.

استيقظ على أثر ضرب السياط وقد كان معلقاً من ساقيه، كان يشعر أن دماءه التي تجمعت في رأسه المتدلّي تكاد تخرج من عينيه، كان الجلاد ينهال على جذعه بالسياط، بينما كان "حليم" يتمسّى أمامه، أشار للجلاد ليتوقف عن ضربه، أخر خنجراً رفيعاً واقترب من قلبه ليثقبه، وقال يهدده:

- أتعلم أنني أستطيع الآن أن أثقب قلبك؟

- وماذا بعد؟

- ستموت.

- وهل أنا على قيد الحياة الآن!

قالها "أنس" وكان يعنّها، فقد بدأت الأمور تختلط عليه، ملأ من تلك المملكة، وببدأ يكره كلّ ركن فيها. كاد "حليم" يشير للجلاد ليعود لجلده، لكن "أنس" باغته سائلاً:

- في أي عام نحن الآن؟

- ماذا!!

- وددت أن أعرف... في أي عام نحن؟

- مائة وثلاثة وأربعون.

- ماذا!!

- كما قلت لك مائة وثلاثة وأربعون، لماذا تتعجب؟

- معقول!

cad "أنس" يقول شيئاً ما، فقد تذكّر نصيحة الأمير "أواوا" التي أخبره بها في المررت تحت الماء في تلك الرؤيا، أن يتبّه للأرقام! لو لا دخول "نّبرة" التي صرخت فالتفت "حليم" تجاهها وقال:

- "نّبرة"! صحيح، نسيت أن أدعوك لتشهدي تلك اللحظة، ها هو المحارب وستثقب قلبه الآن.

اقربت وهمست وهي ترشقه بنظراتها:

- وكيف ستثقب قلبه والكتاب ليس معنا أهلاً للأحمق!

زمر غاضباً حيث استفزته كلماتها وقال بصوت جهوري ليسمعه وبخيفه:

- سنجمع دماءه في وعاء لوقت لاحق وعندما نعثر على الكتاب سنكتب ما يليق بملكنا العظيم "كمشاق".

- وما أدراك أن هذا صواب؟ لم يحدث هذا من قبل.

التفتت "نَبِرَة" نحو وجه "أنس" فسحببت "حليم" من ذراعه بعيداً حتى لا يسمعهما وأردفت قائلة:

- أرى أن نستقيه حياً حتى نحصل على الكتاب، لقد كنت سبباً في ضياعه يا "حليم"، ألم تعثر على تلك الجارية التي اشتريتها من السوق... التي سرقت الكتاب؟

- ليس بعد، لكنني سأعثر عليهما.

انصرفما معاً وتركا "أنس" بعد أن أمر "حليم" الجلاد أن ينزله ويقيد ساقيه بالسلسل.

وبعد نحو ساعتين، وتحت جنح الليل تسللت "نَبِرَة" إلى زنزانته وهي تخفي وجهها. كان ثمن صمت الحراس غالياً، لكنها ولأنها تعرف عن زعيمهم الكثير من الأسرار بسبب عيقي يومتها كان التهديد وسيلة لتصل إلى ما أرادته، استطاعت أن تحرر "أنس" ، وقفـت تلتقط أنفاسها وقالـت هامـسة:

- سـنذهبـ الآنـ إـلـىـ غـرـفـيـ،ـ سـأـخـفـيكـ حتـىـ أـرـتـبـ أـمـرـ هـرـوـبـكـ معـ الـحرـاسـ.

- لا -

- لماذا؟

- ولـمـاـذاـ أـذـهـبـ مـعـكـ وـأـنـاـ اـسـتـطـيـعـ الفـرـارـ الآـنـ!

كان "أنس" لا يثق بها، لكنها كانت سبباً لكي يهرب، ما زال لا يفهمها! ربما فيها بعض الضعف الذي يراه في عينيها، أو ربما هي فعلاً ذات قلب طيب، لكن جرأتها وسفورها عظماً في قلبه الامتعاض والحدر منها، كان مختاراً في أمرها، وهو بالتأكيد لن يبيت في غرفة امرأة! لا سيما التي لا حياء لها! قال محاولاً أن يستشف ما وراء أفعالها:

- كيف استطعتِ دخول زنزانتي؟

قالت في دلال وقد تملكتها الزهو:

- لي عيون ورجال، لا تستهن بي!

ران عليهما الصمت للحظات كانت تفگر في مخرج ما، يبدو أنه صعب المراس، رأت أن تتركه يرحل لتكتسب ثقته مؤقتاً، وتستدعيه مرة أخرى وقتما شاءت، سمعت صوتاً أريكتها، فأسرعـت تجاه أحد رجالها، وكلفته أن يدلـه على الطريق لكي يخرج من القصر بسلام.

هرـب في الظلام مهـتـداً بضوء القمر، قطـع المسافـة ركـضاً وكـأنـه يهـرب من الموـت، كان غـضـبه هـادـراً وشـدـيدـاً، هـدـأـ من رـكـضـه عـنـدـمـا اـقـرـبـ من بـيـتـ "أشـريـاـ"ـ، فـيـ تـلـكـ السـاعـةـ كـانـتـ القرـيـةـ قـدـ خـلـتـ إـلـاـ منـ أـوـاـخـ النـاسـ وـطـوـارـقـ اللـيلـ وـبـقـيـةـ مـنـ الـأـنـفـاسـ تـحـبـوـ فـيـ الـطـرـقـاتـ ذـاهـبـةـ إـلـىـ مـضـاجـعـهـاـ، وـضـعـتـ "مـرـامـ"ـ يـدـهاـ عـلـىـ صـدـرـهاـ وـتـهـنـدـتـ باـطـئـنـاـنـ عـنـدـمـاـ رـأـتـهـ يـقـرـبـ، حـيـثـ كـانـتـ تـتـنـقـلـ بـيـنـ "أشـريـاـ"ـ وـهـيـ تـنـفـضـ بـيـنـ يـدـيـ أـمـهـاـ، وـبـيـنـ النـافـذـةـ تـرـاقـبـ الطـرـيقـ وـتـنـتـظـرـ عـودـتـهـ، أـسـرـعـ "كـومـبوـ"ـ مـهـرـولاًـ نـحـوـ فـورـ أـنـ رـآـهـ لـيـسـأـلـهـ عـنـ "كـلوـدـهـ"ـ، طـلـبـ مـنـهـ أـنـ يـنـتـظـرـ حـتـىـ تـنـضـمـ إـلـيـمـاـ "مـرـامـ"ـ، فـهـوـ لـاـ يـوـدـ إـرـعـاجـ "أشـريـاـ"ـ لـأـنـهـ لـاـ يـحـمـلـ خـبـرـاـ جـدـيدـاـ عـنـ زـوـجـهـاـ، وـبـعـدـ أـنـ خـرـجـتـ "مـرـامـ"ـ قـصـ عـلـيـهـماـ مـاـ حدـثـ بـالـتـفـصـيـلـ، وـفـورـ أـنـ اـنـتـهـيـ أـطـيـقـ عـلـيـهـ الصـمـتـ كـأـنـ كـلـ الـكـلـامـ قـدـ تـلـاشـىـ وـتـبـخـرـ عـلـىـ شـفـتـيـهـ. كـانـ مـتـعـبـاـ تـؤـلهـ آثارـ السـيـاطـ علىـ جـذـعـهـ، فـارـقـهـ نـسـاطـهـ وـخـفـتـهـ وـبـدـأـ يـجـمـعـ عـلـىـ صـدـرـهـ نـوـعـ مـنـ الـكـابـةـ، قـالـتـ "مـرـامـ"ـ وـهـيـ تـسـقـيـهـ المـاءـ:

- "أنـسـ"ـ ماـ بـكـ؟ـ هـلـ تـخـفـيـ عـنـاـ شـيـئـاـ مـاـ؟ـ

كـانـتـ تـلـكـ المـرـةـ الـأـوـلـيـ فـيـ حـيـاتـهـ الـيـوـمـ الـأـكـبـرـ، وـكـانـ يـشـعـرـ بـالـإـهـانـةـ، أـمـسـكـ الـكـوبـ وـفـيـ يـدـهـ بـقـيـةـ مـنـ اـضـطـرـابـ وـقـالـ:

- لا... ولكنني أشعر أن الأمور قد بدأت تتعقد.

اختلس نظرة واقتبس شيئاً من عينها ليسترد شيئاً من إرادته ثم خفض طرفه وقال:

- لكن تلك الأزمة ستمر إن شاء الله، وسنعود إلى ديارنا يا "مَرَام".

حاولت أن تمنحه ابتسامة مفتدية لتشجعه وتخفف عنه، لكنها لمحت في وجهه مراة وفي قسماته وجوماً أخافها. انصرف مع "كُومبو" ليطبب له جراح ظهره في بيته، وعادت "مَرَام" وسهرت ليلتها بجوار "أشريا".



يقولون إن تحت البحر نار، وإن جوف الأرض يتجلج بجحيم يتلظى، وهناك تحت هذا الرماد شظيات تختبئ، وهنا تحت بشرة تلك الأميرة التي تبدو للناظرين باردة دماء تغلي وقلب يحترق... كانت "نَبِرَة" تتساءل في نفسها، كيف تجاهلها "أنس"؟، كيف لم يُفتن بجمالها؟، كان يشبه تلك التماشيل الخالية من النقوش، يتحدث معها وكأنه لا يقول شيئاً، ينظر إليها وكأنه لا يراها! قررت أن ترسل إليه مرة أخرى، وكان قد مر يومان على رحيله من القصر، والذي أحدث ضجة بين الحراس كلفتها الكثير من المال، واضطررت لقتل أحد رجال "حليم" حيث ذبحه رجالها لأنه كاد يشي بأمر تبريرها لـ "أنس"، لم يكن "حليم" يعلم بأنها تعرف عنوان "أنس"، وظللت تخطط لكي لا ينكشف أمره لأخيها ولـ "حليم" ففي نفسها شيء تجاهه، ترى أنه يصلح أن يكون حبيبأً لها، وربما تغير أموراً كثيرة في تلك المملكة! كانت تتوجه رؤيتها، أرسلت إليه رسالة تطلب منه أن يلتقي بها لأمر هام وضروري، أرسلتها في الخفاء مع أحد رجالها.

وسط النهار، وبينما يفكّر في طريقة ما يعرف بها أخبار "كلودة"، حيث حاول أكثر من مرة أن ينتقل بالخنجر ل بلاط القصر ليبحث عنه، كان يدلف إلى الفجوة ويعود لنفس المكان! هناك شيء غريب! لا ينجح الأمر مع قصر الملك "كمشاق" كما نجح مع غيره! وأصابه إرهاق شديد. جاءته الرسالة معطرة بعطرها وملفوقة بشكل أنيق وكأنها رسالة حبٍ مما

جعله يتعجب! أرادت "نَبِرَة" أن تلتقي به بالقرب من بيت "كلودة"! تعجب للمكان الذي اختارته، أخْبَرَ "مَرَام" و"كُومبو" وأسرع إلى هناك، مَرَّةً أخرى ذهب للقاءها دون الكتاب، مَرَّةً أخرى تركه والخنجر مع "مَرَام" التي ماتت على لسانها الكلمات، فهي تشعر أن الأميرة "نَبِرَة" تدبّر لشيء ما، وكانت تخشى على "أنس".

فور أن وصل إلى البيت انطلق يفتّش بعينيه هنا وهناك، لا حراس ولا خيول! فلأين هي؟ خلف البيت، وفي بستان كثيف الأشجار فوجّع بصر مهيب الطلعة ينتظره مع "نَبِرَة" التي رجّبت به في شيء من الحرارة، وقفّت أمامه بزيتها وكأنّها قطعة من الفتنة المتحركة.

قدّمت له بإجلال، كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها "القرناس"! ذاك الصقر الذي سمع عنه الكثير، كان يختلف في هيئته عن "الرمادي"، كان "القرناس" ذا ظهر أسود، والجسد أبيض يخرج منه جناحين مبرقشين، وذيل طوبل، وعيّض، ومدبب عند نهايته، ذو طرف أزرق وعلامة بيضاء على أقصاه. يظهر أعلى رأسه السوداء كما الشارب الذي يمتد على الوجنتين بلون أردوازي يتباين بشكل حاد مع جانبي العنق الداكنين والحلق الأبيض. اهتَّ فور أن رأى "أنس" وقال بصوت أحشّ:

- مرحباً أيها المحارب!

- مرحباً أيها "القرناس".

- أين كتابك؟

- ليس معي.

- من الخطأ أن تسير بلا كتابك.

- أعرف هذا جيداً، والآن.. ماذا تريidan مني؟

تقدّمت "نَبِرَة" تجاهه وطالعته بشغفٍ وإعجاب وقالت:

- صفقة!

- أي صفقة؟

أشارت بارتباك للقرناس الذي قال بثقة:

- أنت تعلم أننا نحن الصقور نعرف عن التاريخ والكتب ما لا تعرفونه،
فدعني أطلعك على السر.
- أي سر؟

- كتابك يتحدث عن الحب، "إيكادولي" يحكي قصة حب أميرة ومحارب،
الأميرة وقعت في حبه منذ النظرة الأولى، أنت محارب وها هي الأميرة.

ثم بسط جناحه مشيرًا إلى "نَبْرَة" وأردف قائلاً:

- القصة كانت تنتهي بموت المحارب، حيث سيقتله أحد الأمراء غيره علهمها،
ولأن الأميرة "نَبْرَة" تكره هذا وتخشاه، والصفقة هنا أعرضها عليك بنفسي،
فأنا لي مكانة بين باقي الصقور. الأميرة "نَبْرَة" تعرض عليك أن تسلّمها
الكتاب بنفسك، وتكتبا معًا قصتكما على صفحاته بدماء جرح بسيط
على كفيكما، وتسلّمك نفسها وتسلمها نفسك، ليخلد حبكما إلى الأبد.

حرك "أنس" رأسه وقال ساخراً:

- أتعني أن أتزوجها!

تطلعت إليه بنظرة كلها نداء وقالت:

- ولماذا نتزوج! أنت تعلم أن زواجنا مستحيل لأنك محارب، يكفيانا الحب

قال باشمئزاز:

- أي حب هذا!!!

قالت بهدوء:

- الحب لا يحتاج إلى زواج!

قال غاضبًا:

- ما هذا الهراء! أنت تخرفين..

ثارت "نيرة" ومادت الأرض تحت قدميها، وبدلاً من أن تصرخ في وجهه غطت وجهها بكفيها وبدأت تبكي، رفرف "القرناس" بجناحيه وحلق مبتعداً، كان الصقر يفهم ما تقدم على فعله الأميرة "نيرة"، فانصرف وترك لها الساحة لتكمل دورها، بينما هرولت هي نحو "أنس" وقالت بخفوت:

- أنت لا تصدق أليس كذلك؟

- أصدق ماذا؟

- أني أحبك!.. أرجوك... أنا أحبك!

شعر "أنس" بكارثة تظلله، تراجع للخلف مستعجلاً وهو يراقب عينيه المغروقتين بالدموع وقال:

- الحب لا يأتي بالتسلل والرجاء

- لكنه يقع على الإنسان بغير اختياره، لا أريد منك سوى القرب، دعني أسكب روحي بروحك، اسمح لي أن أحبك.

أنهت كلماتها وعادت تبكي، كانت ماهرة في استجلاب دموعها، وبارعة في توظيف إيماءاتها ونظراتها. أقبلت عليه فقال في صوت غائر كأنما ينبعث من أعماق هاوية:

- اتركيوني.. ابتعدي عنّي.

شعر "أنس" بالخطر عندما بدأ يتعاطف معها! وعندما بدأت كلماتها تؤثر فيه، أسرع مهرولاً خارج البستان، وعاد والأفكار تتناثر في رأسه. وكأن عاصفة تجتاح نفسه فتحطمها وتوشك أن تحطم حياته كلها.



حل الليل وأطلَّ القمر مختنقاً، في ضوء واهن لشمعة أوشكَت أن تنطفئ وتحترق فتيلها، وكانت هناك ظلال صغيرة قد ظهرت وانعكست على الأرض يراقب أصحابها وجه "أشريا". في ركن يلفه الظلام إلا من بصيص صباح صغير، كان جبينها مغموراً بالعرق وهي تجلس في هوانٍ ويجوارها أمها تمسح

رأسها بالماء من آنٍ لآخر وهي ترتجف. شدّت الغطاء الصوفي على جسد ابنتها المنكورة بجوارها قبل تسقيها الدواء..

خرج "أنس" ومعه "كُومبو" و "مَرام" يتحاورون، كان "أنس" قد قصّا عليهما ما حدث مع الأميرة "نَبَرَة"، كان "أنس" متعباً وكأنه خرج للتو من حرب، مرّت البومة البيضاء من فوقيهم فصرخت "مَرام"، أخبرت "أنس" أن "نَبَرَة" تراقبهم وأخبرته عن تلك البومة وكيف تمنح "نَبَرَة" رؤى ليلية وهما هي ستقلّ إليها أنهم التقوا هنا ومعهم الكتاب، لاحق "كُومبو" البومة وطاردها بالقاء الأحجار عليها حتى ابتعدت، قرروا الانتقال مع "أشريَا" وأمها إلى مكان أمين، حق أم "كُومبو" ذهبت معهم، بعيداً عن أعين الناس، وعن عيني "نَبَرَة" وبومتها قضوا ليتهم غير مطمئنين، فالقلق يستبد بهم على "كلودة" المسكينة، وكان الانتقال بـ"أشريَا" وهي مريضة أمراً لم تستحسنها أمها لهذا قاومتهم كثيراً لكنهم في النهاية اضطروا إلى هذا، خوفاً من حراس "نَبَرَة". وكانت "أشريَا" لا تزال تعاني من الحمى، لم يخرج أحد منهم، وكانوا الثلاثة "أنس" و "مَرام" و "كُومبو" يفكرون في طريقة للوصول إلى "كلودة"، قرروا أن يحاولوا الذهاب سيراً على الأقدام في اليوم التالي، فـ"مَرام" تعرف الطريق إلى القصر، وربما تسعّي مساعدتهم للتسلل من أحد الأبواب. أرخي الظلام ستراً، وسكنوا حيث هم، وبعد أن عانت "نَبَرَة" طوال النهار من نفسها التي تتقلب بين جنبيها وعاودت البكاء، فقد شغفها "أنس" حباً وباتت مغرمة به، وقد بدأ ذاك الشغف منذ رأته بعيوني بومتها في الغابة.

خرجت ومعها تلك القطعة التي تمزقت من قميصه، كانت تشتمها وتقبّلها. وصلت في مكان ما حيث اجتمعت زمرة من النساء غليظات الملامح، لدبهن أجسادٌ ضخمة، ووجوهٌ كستها صفرة كالحاجة. ساهمات الخدوود، كائنةً تدلّين على الأرض من مشنقة. جلست كلّ منهن بجوار الأخرى وشكّلوا حلقةً حول الأميرة "نَبَرَة"، وعلمن ثياب سوداء طويلة مطبوع عليها رموز خضراء وصفراء فاقعة، كتابات غريبة ترمّز لشئ ما!

ذهبت إليهن "نَبَرَة" حيث أخبرتها الوصيفة أنهن سيساعدنها على استجلاب الحب لقلب "أنس"، وأنه سيغرس بها إن نادت عليه الليلة وهن يرتلن ترانيمًا معينة بينما تعقد كبيرهن عقدة على قطعة من قميص "أنس" الذي يحمل

عرقه. وكانت "نَبْرَة" تؤمن أنَّ السحر هو الحل! فقد فشلت في إغوائه بجمالها، فشلت لأول مرة أمام رجل! وهي التي لا يصمد أمام جمالها الرجال!

من خلفهن كان هناك بعض الغلمان يعلقون الطبلول على رقبتهم، أما النساء الغلاظ فقد استقرت بين أيديهن أوعية من الفخار مجوفة تصدر دويًا مكتومًا عندما يطرقونها بكفوفهن. رفع زعيمهم عصاهم فبدأ القرع على الطبلول بانتظام، امتنج صوت القرع الطبول بأصواتهم الغليظة، همهم الرجال وهم يقرون عن أجراً نحاسية في أيديهم، ثم بدأت النساء بتزويج ترانيم حزينة، كان للصوت وقع مهيب ومخيف، بدأت الترانيم تتغير لنَبْرَة لِنَبْرَةً غاضبة، وتتسارع إيقاع القرع على الطبلول والأجراس، بدأت "نَبْرَة" تنفعل، اهتزَّ جسدها كله وكأنَّها أُصيَّبت بصاعقةٍ من السماء، وبكت بنشيج مسموع، التقت حولها بعض النساء وقمن بحركات منتظمة، حركن رءوسهن وأكتفاهن بطريقة غريبة، إنَّها رقصة النار، شهقت "نَبْرَة" ثم قالت بصوت مخنوق وكأنَّه يصدر من بئر عميق، وقد نبع من سويدة قلبها:

- "إيكادولي"

تعالت أصوات النساء يردون علمها بنفس الكلمة، مصحوبة بنغمة حزينة:

- "إيكادولي.....إيكادولي"

كانوا يطيلون الصوت بالحرف الأخير وكأنَّهم يَتَّحَّنُ معها ويستجلبن البكاء، علا صوت "نَبْرَة" شيئاً فشيئاً، بدأت تصرخ كالمزبوجة، مرات ومرات، دموعها أغرت وجنتها، ضممت يديها لصدرها، كانت رغبتها الجامحة إليه تستنفطر على وجهها، وتسوقها في عنان الغيط، دارت حول نفسها وكأنَّها غابت عنهم، حتى انهارت وغرقت في يأسها وانحنى متقوقةً وكأنَّها تتلقى طعنة في فؤادها، تلَوَّت من الألم، سقطت على الأرض وهي تكررها "إيكادولي.....إيكادولي"، بينما كان "أنس" في مكان آخر مشغولاً بحديثه مع "كومبو" شعر وكأنَّ أحدهم غرز في قلبه شوكة. حاول الوقوف على قدميه، بدأ يتقدَّم ببطء كما لو كان بصد غطسة انقطع نفسه لها ثمَّ غاب عن الوعي فجأة.



(٢١)

سحر!

لم ينم "أنس" تلك الليلة، كان شارد اللب ذا حل الحسن تجيء به الخواطر وتذهب، يرى الناس حوله وكأنهم أخيلة تراقص، وأشباح تضطرب، كان يتصفّح وجوه "مِرَام" و"كُومبو" وأمه، و"أشريَا" وأمها فينكرها ولا يعرف فيها وجها! كانت صورة "نَبْرَة" تمثّل أمامه بزینتها، صوتها كان يهمس في أذنيه نفس الكلمة التي كانت تصرخ بها وسط النساء وهي تتلوى... "إيكادولي"، حتى عندما أغمض عينيه رأى عينيها أمامه، رائحة عطرها التي عرفها يوم رآها كانت تخترق أنفه! انفصل عن الواقع وبدا وكأنه قد سُلب عقله!

سؤاله "كُومبو" باهتمام:

- ما بك يا "أنس"؟

ابتسم ابتسامة ممزقة يُخالطها الأسى، وقال:

- أشعر وكأنني لست أنا!

- ربما أصابتك الحمى.

تحسس رأسه فانتفض "أنس" وأبعد كفّه بانزعاج، تراجع "كُومبو" ورمقه بنظرة فاحصة ثم قال:

- هل هناك شيء ما تود أن تُخبرني به؟

باضطراب ووجل طاف "أنس" بنظراته في المكان ثم قال:

- لا...لا يوجد شيء.

ثم أردد متممًا بصوت متقطع:

- "نَبْرَة".... أُريد "نَبْرَة".

فغر "كُومبو" فاه وقال باندهاش:

- نَبْرَة!

- نعم... أُريدَها!

أغمض "كُومبو" عينيه وحاول أن يُعيد أفكاره إلى نصاها .. اقتربت أم "كُومبو" وكانت تراقبهما، قالت وهي تشير إليه بأصابع ترجف:

- إنَّه مسحور...

قال "كُومبو":

- كيف؟ كيف يا أمي؟

- ألا ترى عينيه!.. وكيف يردد اسمها!

قال "كُومبو" بتوتر شديد:

- قميصه! نعم.. قميصه كان ممزقًا يا أمي، وعندما سألته عنه وطلبت منه الجزء الممزق للأفعى له أخبرني بما حدث وقال إنه ترك الجزء المقطوع وراءه هناك، لا بدَّ أنَّ الخبيثة "نَبْرَة" أخذته وعقدت عليه سحرًا.

خرج "أنس" من البيت القديم الذي كانوا يختفون فيه هائماً على وجهه، حتى أنه لم يتحدث إلى "مَرَام"، ركض وهو يتربَّح نحو السهول حول بيت "كلودة"، ولاحقه "كُومبو" الذي صاح فور أن رآه يتوجه إلى هناك:

- كنت فريسة سهلة، انشغلت بخنجرك وانتقالك عبر الفجوات، وكتابك العجيب، وأصحابك العجب بنفسك، نسيت أنَّ كلَّ هذا هباء إن لم تستعصم بالله!

قال له هذا محاولاً أن يكبح جماح تلك الوساوس والخواطر التي تجتاح صديقه الذي كان يقف أمامه منكسرًا بحلق جافٌ ووجه ملتهب وهو يردد:

- وماذا سأفعل الآن... ساعدني.
- ماذا تريده؟
- أن أذهب إلى "نيرة"
- لن تذهب! ولن تركك.
- دفعه "أنس" بعنف، وصارعه للحظات، كان أكثر منه قوّة فتراجع "كومبو" قليلاً ثم ظل يلاحقه ويحذّره، قال يذكّره:
- أترى؟ أنت الآن تفعل ما كان يفعله "كلودة".
- لا -
- أنت تسعي إلى الرذيلة.
- لا... أنا سألتني عنها فقط، سأتحدث إليها.
- عد يا "أنس" أرجوك، أفق قبل أن تتمزق هيبيتك طالعة "أنس" بعينين محتقنتين وقال صارخًا:
- اغرب عن وجهي.
- اعترضه "كومبو" بصدره وثبت ساقيه بالأرض وقال له:
- إذن... تخطئني أولاً إن أردت صعود ذلك السهل.
- وقف "كومبو" مكانه ولم يتزحزح قيد أنملة وظل يدفعه وينفعه، ثم أرهق كلاهما من دفع الآخر له، هرب "أنس" من "كومبو" الذي كان يلاحقه وينفعه من الذهاب لـ "نيرة"، حاول أن يستخدم الخنجر ليصل إليها سريعاً وحركه في الهواء، ظهرت الفجوة فوقف أمامها وجرب أن يردد اسم القصر، وجرب أن يردد اسمها... "نيرة"، لكن الخنجر لم ينقله إليها!
- ولما مل من ملاحقة "كومبو" له انتقل إلى الغابة، فأسرع "كومبو" وأخبر "مَرام" بما حدث، فهي وحدها تستطيع الدخول إلى الغابة. كانت "مَرام" تركض خلفه محاولة اللحاق به، بينما كان يسير بخطوات متعرجة وبلا هدف

وسط الغابة، وكأنّ هناك من يسوقه بحبل، وصلت أخيراً حيث استطاعت أن تنادي عليه فسمعها والتفت ورمقها بعينين ذابلتين وسالّها في حنق:

- مَاذَا تريدين.

كانت أنفاسها المتلاحقة تمنعها من الكلام، دقّات قلبها كانت تتواكب بسبب ركضها المتواصل من بيت "أشرياً" حتى مكان "أنس" ، بصعوبة قالت:

- لا تذهب إليها يا "أنس" .. أرجوك.

- لا أستطيع، لا بدّ أن أراها.

- لا...لا

صرخت فالتفت إليها غاضبًا كما لم يفعل من قبل وقال بغضبٍ هادر:

- مرّة أخرى تصرخين؟.. هي انتجي بالبكاء واضربيني بغضن شجرة الأطفال.

كانت "مراام" تدرك أنه ليس "أنس" الذي تعرفه، حاولت أن تتماسك وقالت بهدوء:

- أنت لست بوعيك يا "أنس" ، أرجوك عد معي وسنحاول الخروج من تلك الأزمة معاً.

- عودي أنت واتركيفي، أو سيري في الغابة وحدك..

- أرجوك يا "أنس" .

- ابتعددي عنـي.

دفعها فسقطت على الأرض بينما أكمل طريقه غير مبالٍ بنداءاتها المتتالية، صاحت قائلة:

- "تَبَرَّة" لا تحبـك.. ذاك ليس حبـاً يا "أنس" ، وأنت لا تحبـها

- ومن أخبرك أنـي لا أحـبـها؟

انسحقت روحها وقالت بخفوت:
- أنا أعرف.

- وما أدراك؟ هل قرأتِ أفكاري؟
ثم ضحك ساخراً وقال:

- هل عادت لك تلك الموهبة؟

وقفت وسارت نحوه بهدوء وقالت وهي تحدّق في وجهه بعين منطفئة:
- لم أقرأ أفكارك... لكنني شعرت بك!
حرث عيناه كالجنون وقال:

- أنت لا تعلمين شيئاً يا "مَرَام"، عودي إلى الغابة، إلى "ناردين" واتركيني
لحالي.

رفعت صوتها قائلة:

- "نَبْرَة" تزيد الكتاب.. "إيكادولي" وفور أن تحصل عليه ستقتلك.

صارت عيناه تقدحان شرّاً مخيفاً، بحركة فجائية عنيفة أخرج "أنس"
الكتاب والتفت نحو "مَرَام" وألقاه في وجهها فأحدث الكتاب خدشاً بطول
خدّها الأيمن وسقط أمامها على الأرض، تحسست وجهها وكان الخدش
يحرقها، كادت تبكي لكنها تمسكت، قال دون أن ينظر إليها:

- أنا ذاهب لأجلها... لأجل "نَبْرَة"، خذِي الكتاب واتركيفي لحالٍ.

رفع خنجره في الهواء، أراد أن يقول شيئاً لكنه كان في حالة من الهوان
والضعف حتى أنه لم يتمكن من نطق حرف واحد، كان غارقاً في غياب فكره
وكأنه قد شُلّ فجأة، اقتربت "مَرَام" بسرعة وتخلّت بالشجاعة واستجمعت كلّ
ما لديها من قوة وعزيمة وحدّقت في الفجوة وهي تتلاعب أمامهما في الهواء
وقالت:

- البيت القديم مع "كُومبو".

ثُمَّ دفعته بأقصى قوَّةٍ أمامها فالتحقت الفجوة، وقفزت خلفه لأول مَرَّةٍ
تبليغ خوفها من أجل إنقاذه، وفور أن وصلاً ورأه "كُومبو" حيث كان
يُنْظَرُهُما وهو في غاية القلق أمسك بـ"أنس" وأسنده حيث كان يترنَّح وصَبَّ
على رأسه الماء، فهذا "أنس" وقال له بخفوت:

- ساعدني أرجوك.

رمقه مبتسماً وحاول جاهداً أن يظهر رباطة جأشه ليثبته وقال له:

- ما أنا إلَّا عبْدٌ ضعيف الحيلة إن لم تقوَ أنت على الأمر بنفسك.

- أرجوك....

- ولم ترجُوني يا "أنس"! وما أملك لك أنا! اطلبها من الله!

خر "أنس" على ركبتيه مسحوقاً مكسوراً، مرَّت الدقائق ثقيلة عليه، كان
يقاوم رغبة تنازعه وتدفعه للركوض إليها، وكان جسده يؤلمه وكأنَّ هناك من
يدَقُّ كلَّ جزءٍ فيه بمطرقة من حديد، وقفَت "مراٰم" تبكي وهي تراهم في تلك
الحالة، غربت الشمس فاضطربت لتركهما، قبل انصرافها قالت له:

- "أنس" سارحل الآن، أرجوك تماسك.

- ساعدني.

- ليتني أستطيع.

نخر الحزن قلبها بلا هواة، أرادت أن تخبره أَنَّها تحبه، كانت تغريب ذهنها
بباحثة عن كلمة تبيَّثُ فيها ما تشعر به، لكنَّها ضلَّت الطريق إلى كلِّ المعاني
والكلمات! وأرادت أن تطلب منه أن يحفظ نفسه لها فكلَّ راجفة من رواجف
قلبهما تهتف باسمه.. لكنَّها لا تستطيع أن تخبره بكلِّ هذا!!

أحدَث صمتها ضجيجاً في نفسه، وتكلَّم كلَّ شيءٍ فيهما دون أن يتكلَّما،
وانصرفت تمشي على استحياء تجرَّ قلبها الممزق خلفها، وعادت حيث "أشريا".
لازمه "كُومبو" ولم يفارقه، تعاهدا على اجتياز تلك الضربة القاسية معًا، قرر
الآن يتركه، وقف "كُومبو" يقلب الأفكار في رأسه، الأحداث تتسرَّع، لا بدَّ أن

يزول أثر السحر، بينما هو غارق في الاحتمالات كلها زفر "أنس" وكأن روحه تتفلت من بين جنبيه وقال بعد جهد شديد:

- قيَّدَنِي يا أخي.

- مَاذَا!!.. لَمْ أُقِيدَكَ يَا "أَنْسَ"؟

- قيَّدَنِي أَرْجُوكَ...

- اجلس واذكر الله.

- قيَّدَنِي أَوْلًا، حَتَّى لا أُرْكِضُ نحْوَهَا، لَا أُرِيدُ أَنْ أَقْعُ فِيمَا لَا يَرْضِي رَبِّي.

- حسناً فلننتقل إذًا إلى مكان آخر حيث أستطيع أن أغلق عليك باباً يا "أنس".

وانطلاقاً معاً إلى مكان آخر، أسرع "كُومبو" بتقييد "أنس" بسلسلة من حديد، طلب "أنس" منه أن يقييد قدميه أيضًا ففعل على مضض، أغلق النوافذ، ثم تراجع للخلف وهو يراقب "أنس"، وجلس على الأرض أمامه وبدأ في تلاوة ما يحفظه من القرآن، لم يكن "كُومبو" شيئاً ولا ناساً يتحدث عنه الناس ويشيرون إليه، لكنه كان يحمل في قلبه يقيناً قد لا يحمله شيخ فقيه، كان ينوي القراءة ويعود للبداية فيقرأ مرة أخرى، لم يمل ولم يكل طوال الليل، بينما كان "أنس" كالوحش الكاسر يزور في قيده، انطفأ بريق عينيه، وتتسارعت دقات قلبه، كان في الماضي مستريح النفس، خالي الفكر، لا تملكه شهوة وكان يبكي من خشية الله، فماذا سيفعل الآن وقد تبرّجت له الدنيا!!ـ أين تلك اللوعة التي كان يشعر بها عند ذكر الله؟

أغمض عينيه ودفع بآخر قواه في أتون المعركة الداخلية التي من شأنها أن تعيد نفسه إليه، دارت بين نفسه العفيفة ونفسه التي أسرتها الشهوة حرب عنيفة ملتهبة كان وقود نارها من روحه وجسمه، كان صدره ضيقاً وكأنه يصعد في السماء، جرّ أقدامه وتقدم بيضاء، ارتعدت أوصاله.

مرّت ثلاثة أيام وهو على حاله، ينazu في قيده الذي أدى ساقيه، يطعمه "كُومبو" ويرقيه بالقرآن ويعتني به، ويتركه لساعة يزور فيها أمّه و"أشريا" وأمهما، و"مَرام"، بدأ يتشل نفسه من غيابة الجب الذي ألقى فيه، ودارس على

الشهوة التي تتاجج في صدره مخافة ربه. لم يتثنّ له التنفس وسقط مغشياً عليه. شعر أخيراً وكأنّ روحه قد عُنتَ من رق الجسد وارتَفعت عن الأرض فهامت في السماء.



ثلاثة أيام بلياليها مضت تملّس على بعضها البعض، بهارها العكر وليلها اليميم، وأخيراً جلس "كُومبو" أمامه بابتسامة متعبة حزينة، عندما شعر أن "أنس" قد استرد نفسه التي رأه بها أول مرّة التقى به فيها، كان "أنس" ثابتاً ساكناً بعد أن داس على الشهوة التي كانت تتراجّح في صدره مخافة ربه.

أراد "كُومبو" أن يخبره بما دار خلال الأيام الثلاثة الماضية، حيث كانت تحمل الكثير من الألم، فقد داهم الحراس ذاك البيت القديم الذي كانوا يختبئون فيه، سرقوا الكتاب "إيكادولي" من "مرام"، وأسرموا "مرام" عندما تعرّف عليها أحد الحرس حيث كان بصحبة "حليم" عندما اشتري الجواري وكانت من ضمنهم، عادت "أشريا" مع أمها لدارهما، ما زالت أم "كُومبو" تلازمهما. أتى "كُومبو" سرداً التفاصيل على "أنس"، ووضع أمامه خنجره وذاك الكيس الذي يحتوي على قطع الكريستال التي تحولت إلى قطع فحم مرّة أخرى، وبجوارهما بسط الخريطة التي أعطتها "الحوراء" لأنس، ثمّ خلع قلادة "أنس" وأعادها له فقد كان يرتديها لأن "أنس" كان قد ألقاها على الأرض في إحدى المرات، وأخرج من جيبة الزجاجة الزرقاء الصغيرة وقال وهو يطرق عليها بأطراف أصابعه:

- ذاك نوع من الحبر المعنّق، نوع نادر مصنوع من مسحوق حجر أسود نفيس ما عاد يصنع الآن، أظنه معك لسبب وجيه.

- ظننته دواء !!

همس "أنس" بكلماته الأخيرة وهو في حالة انهزام نفسي وهوان شديد، أشفق عليه "كُومبو" فانطلق يحثّه ويشجعه:

- هيا يا "أنس"، قم أهبا المحارب، لا بد أن تستعيد كل شيء.

- وکیف هذا؟

- فكر، فما كان "إيكادولي" ليختارك إن لم تكن أهلاً لاسترداده، أشعر أنك اقتربت من النهاية، ستسترد الكتاب، وتحرر "كلودة" ليعود لعروسه، وتندى "مَرَام" من أيديهم.

ران عليهما صمت ثقيل، قطعه صوت "كُومبو" الذي حاول أن يخرجه من شروده عندما أشار إلى الخريطة وهو يسأله:

- ماذا تعنى تلك الأرقام التي على الخريطة؟

بدأ يقرؤها وهو يشير إلى كل بقعة في الخريطة، كان يحكي موقفاً مزّهباً معا هنا وهناك، وهناك. وبينما يتحدث بعفوية كان "أنس" ينظر في الخريطة، وثبت فجأة وقد بدأ يتضح له شيء ما! تلك الأقمار تعني الكثير، وهي المفتاح، وقف وقد بدت في عينيه نظرة واثقة ولاح على شفتيه شيخ ابتسامة، فسألته "كومبو" بفضول:

- أشعر أنك اكتشفت للتو شيئاً ما؟ أليس كذلك؟

- بلى، أنت رائع يا "كُومبو".

قالها وطلب منه ألا يغادر مكانه، وبدأ يحرك خنجره في الهواء، تارة يقول قصر "الحوراء"، وتارة يقول الغابة، وتارة يقول بيت كلودة، كان يختفي لدقائق ثم يعود وينشق من الهواء، وكان الأمر يبدو لـ"كُومبو" مضحكاً ومخيضاً في الوقت نفسه.

وبينما يتنقل "أنس" ويتحدث مع "الحوراء" و"سامي كول" و"المغaitir والعجوز "ناردين" و"المجاھيم"، وخلال فجوة منهم ظهر له فجأة "شهاب وجذبه من قميصه بعنف إلى بيته الذي زاره فيه بالغاية والذي لم يعثر عليه مرّة أخرى، كان غاضبًا للغاية، الصقه بالجدار وغرس عينيه في عيني "أنس" وصرخ في وجهه قائلاً:

- أتظن أئك ستغير شيئاً أيها الأحمق؟ أنت مجرد حرف لا قيمة له..أنت مجرد عالمة، رمز لا يلتفت إليه من يعيش هنا، وجودك غير هام بالمرة، أنت لا شيء... ولن تغير شيئاً.

- ما كنت لأغير الماضي، أنا فقط سأجاهد لكي أستعيد الحقيقة كما كتبها صاحبها أول مرة.
- أنت أضعف من أن تعيد الحروف، وعقلك أضيق من أن يستوعب تلك الكلمات، أنت بلا فائدة.
- سأكون عالمة ترقيم تزيد المعنى وضوحاً، حرف عطف يقرب بين معنيين، وفاصلة تفصل بين كذبتيين، ونقطة تنهي بعض الجمل المؤلمة، وعلامة استفهام بعد سؤالٍ بلية، وربما قوسين يضممان الحقيقة التي أؤمن بها، أو قوساً يغلق جملة ما فينهي حقيقة بأكملها!
- لن تفعل يا "أنس".
- بل سأفعل إن شاء الله يا "شهاب".
- مستحيل.
- كلّ شيء ممكّن طالما أنّك تسعى وراءه وتطلبه.
- لن تستطيع.
- راقبني إذن.
- سأراقبك... ولن أسمح لك بإفساد كلّ شيء.
- أفلت منه "أنس" وغاص في الفجوة، ثمّ عاد إلى حيث كان "كُومبو" مستلقياً على الأرض ينتظره، سأله بملل وهو يتثاءب:

 - لماذا تأخرت هذا المرة يا "أنس"؟

- بصوت واثق ونظرية ثاقبة سحبه من ذراعه وقال له:
- الآن يا "كُومبو" ستنتقل معي خلال الفجوات، وسنذهب جميعاً لإنقاذ "كلودة" و"مراهم"، هل أنت مستعد؟

ازدرد "كُومبو" ريقه بصعوبة، وهمس بخفوت:
- أنا مستعد.

قال "أنس" وقد تألقت عيناه وأطلَّ منها بريق روح المحارب التي تسكنه:
- الآن نعالج الأمور على طريقة عالمكم العجيب بإذن الله، هيا بنا.
حرَّك "أنس" خنجره في الهواء، فانبثقت فجوة تتلاعب وتموج ألوانها في
بعضها البعض، ثم دلف فيها ساحِّاً معه صديقه "كُومبو".



روح المحارب

كانت العجوز "ناردين" جالسة أمام كوخها عندما ظهر "أنس" وبصحبته "كُومبو" من خلال فجوة أمامها، حيّاتها بإجلال ومدّ يده فأعطته عكاّزها الذي تتكئ عليه، وكأنّها تسلمه شيئاً عظيماً أو تقليده وساماً! كان عكاّزها يعني لها الكثير، غصن شجرة غليظ ومتين سحبته يوم ألقت بها زوجة ابنها في الغابة، كانت تنصت لأنّيه، وينصت لهمساتها، يؤنسها الغصن وتستأنس به، ومنحها سرّاً عظيماً. قالت بصوت مرتعش تصاحبه بحةً لطيفةً:

- لا تننس يا "أنس"، ثلاث طرقات ثم انتظر، وأتبعهم بطرقة وسيكونون طوع أمرك.

حيّاتها بحسبور، وعاد يحرّك خنجره في الهواء، انتقالاً إلى قصر "الحوراء"، كان "كُومبو" يرتعد، تلك كانت أول مرة يرى فيها "المغايير"، كانوا يقفون في صفوف منتظمة وهم يمتطون خيولهم بكمبراء وعلى رءوسهم قلسات زراء وقد تلّثموا بمنديل بيضاء تخفي ملامحهم عن الناظرين، توّقفوا أمامه وترجل أحدهم مقترباً من "أنس" وحيّاه بوقار قائلاً:

- طوع أمرك أيها المحارب.

كان ذاك الزاجل الأزرق، والذي كان لحضوره أثر عميق في نفس "أنس"، فقد شعر بالطمأنينة بعدما تحدّث معه في مرّة سابقة من تلك المرات التي كان يلح فيها خلال الفجوات منتقلًا إلى القصر. رفعت "الحوراء" يدها وأصدرت لهم الأمر، وفور أن حرّك "أنس" خنجره في طبقات الهواء وردد اسم قصر الملك "كمشاق" .. انبعثت الفجوة، وبدأ المغايير يقفرون فيها واحداً تلو الآخر بخيولهم، تبعهم "أنس" ومعه "كُومبو" وعندما اطمأن أنّهم يقفون على

السهول قريباً من القصر ترك "كُومبو" معهم وانتقل من خلال فجوة أخرى حيث "المجاهم"، وطلب منهم الأمان، وتعاهد معهم أن ينقلهم من خلال فجوات خنجره إلى حيث يستطيعون السيطرة على ما تحت أرض قصر الملك "كمشاق"، لتوسيع مملكتهم، فتلك هي الطريقة الوحيدة لكي يتمكنوا من عبور الفاصل الحجري الذي يحسم في الغابة وبسببه لا يخرجون منها، مقابل أن يعينوه على اقتحام القصر وتحرير صديقه "كلودة"، و"مَارَام" التي كان يتحرق شوقاً للاطمئنان عليها، وافق زعيم "المجاهم"، وأعطاه الأمان له ولرفاقه وللمغايير، فسمح لهم "أنس" بالانتقال عبر الفجوة، لم يرهم "المغايير" ولا "كُومبو"، لكنهم سمعوا أصواتهم فقط بجوارهم فأصابتهم الرعب الشديد وقد كانوا حولهم في كل مكان، لكن "أنس" وحده كان يستطيع رؤيتهم، في الجهة المقابلة غير بعيد ظهرت كوكبة من الفرسان يتقدمها أحد هم يبدو كأن له شأنًا عظيماً بينهم، ربما فارس عال المرتبة، كان وشاحه من قماش فخم محفور بفراز ثمين مختلف ومميز عن بقية الفرسان، كان ذاك "حليم" يستعد للدفاع عن قصر الملك الذي يغطيه ب حياته، والذي يثق به ثقة عماء، فقد أربكهم ذاك الحشد وهو يقترب.

كان فارع الطول، له وجه يشع مهابة، ينفتح الرعب في قلب أي غريب. تقدم وحيداً بجواهه ثم توقف، استعار "أنس" جواد "الزالج الأزرق" وامتطاه بقفزة واحدة، وسار وحيداً حتى وقف في مواجهة "حليم" الذي أومأ يحييه وقال:

- هربت مني المرأة السابقة، ليتنى ثقبت قلبك ولم أستمع لنصيحة الأميرة "بيرة".

- كان من حسن حظي أن حررتني بنفسها من أسرك لتنكشف لي نواياها.

- ماذا! أنت كاذب!

- لست بكاذب، ولك أن تسأل حواسها الذين يلزمونها، واسألهما أيضاً عن كتاب "إيكادولي" فهو معها الآن.

- أنت كاذب!

- أنا لا أكذب، وأستطيع أن أكشف لك الحقيقة كلها، وما لا تعرفه أيضًا!
ولتعلم أن اقتحامنا للقصر سيتم لا رب! وسأكون بعد قليل في ديوان الملك، وأصادر عنقه.

شهر "حليم" سيفه وقال وهو يشير إليه به:

- لن تمر... سأقتلك قبل أن تفك في الأمر.

تفحّص "أنس" بهدوء ملامح "حليم"، ثم قال له:

- أتذكرة عندما سألك عندما وقعت في أسرك عن أي عام نحن فيه؟

- نعم .. أذكر.

- حسناً... إلى أي حد أنت مغامر؟

- ماذا تعني؟

- لو رأيتك أقفز في الهواء بجوادي هذا خلال فجوة معلقة في الهواء، هل ستقبل أن تقفز إليها بجواحك خلفي؟

تردد قليلاً ثم شدد قبضته على سيفه وقال متھفراً:

- ولو قفزت للجحيم سأقفز خلفك.

ابتسم "أنس" بعد أن سمع جملته الأخيرة، وتراجع بجواده إلى الخلف خطوتين ثم حرك خنجره في الهواء وقال "مملكة الجنوب" ... ثلاثة وعشرون... ابىثقت الفجوة وتعلقت في الهواء، التفت نحو "حليم" ودعاه ليتبعه، وقفز خلالها قبله، وخلفه وقف "حليم" متھداً للحظات، ثم قفز واختفى كلاهما لوقت تعدد النصف ساعة. ظن المغايير أن "أنس" لن يعود، ووقف "كومبو" يقرض أظافره، وأخيراً عاد وكأنه يقفز من رحم الهواء وتبعه "حليم"، دار كلاهما حول الآخر بفرسه، ثم توقف "حليم" ونكس رأسه لوقت وجيزٍ كان كافياً لاتخاذ أهم قرار في حياته، قالها بثقة وهو يحدّق في رأس جواده:

- كما اتفقنا... اتركه لي يا "أنس"، واهتم أنت بصديقك.

قال "أنس":

- و"مَرَام"؟

- عندما تنقذ صديقك، وعندما أفعل ما عليّ أن أفعله، سأقلب القصر بحثاً عنها، وسأنقذها بنفسي.

- كلمة شرف؟

- نعم أيها المحارب.. كلمة شرف!

حدث كل ذلك و"المغاتير" و"كومبو" وحق "المجاهيم" كانوا في دهشة شديدة. تراجع "حليم" وأمر الجنود بالبقاء في أماكنهم على بوابات القصر وفوق سطحه، ودلل إلى داخل ديوان الملك "كمشاق"، وعلى عينيه تستقر نظرة غريبة. كان "أنس" يلملم شتات فكره، ويحاول التركيز على إنجاح خطته، بقي أن يستدعي الصدور، وقبل أن يحرك خنجره في الهواء، كانوا يفدون أفواجاً فوقهم حتى أظلمت السماء، تحرك "المغاتير" وتبعهم "المجاهيم" وأحاطوا القصر من جهاته الأربع، وارتفعت الصدور فوقه فحجبت ضوء الشمس عنه فارتج الملك "كمشاق" وحاشيته، وخرج الجميع بأسلحتهم، وغطت الغربان القصر فاسودت نوافذه من الخارج، وارتص الحرس بالنبار واتخذ عدد من الرماة أوضاع التصويب نحو "المغاتير"، ووقف جند القصر شاهرين سيوفهم وحرابهم أمام البوابات، وبدأ صدام عنيف.



كان "أنس" يقف أمام القصر بشقة حيث رفع صوته وصرخ بأقصى ما أوتي من قوة منادياً على الملك "كمشاق"، لم يخرج إليه أحد، كان يمسك بعصابة العجوز "ناردين" التي سلمتها له، رفعها في الهواء ثم ضرب الأرض ثلاث ضربات متتاليات فأحدث دويًا خلع قلوب كل من بالقصر، وانتظر قليلاً ثم قال :

- اخرجي بأمر الله.

ثُمَّ ضرب ضربة قوية فانغرست العصابة في الأرض التي بدأت تنشق وتنفتح جنباتها بسرعة، وبرزت وشائج أشجار متشابكة ظلت ترتفع وتتشابك وتسيير كما تسير الأفاعي هنا وهناك، شلت أركان القصر، وسحبت الجنود والتفت على سيقاهم ثُمَّ سحبتهم لباطن الأرض فابتلعهم جميعاً فارتبت الغربان وانتفضت تختبط في بعضها البعض محلقة بعيداً وسقط منها ما سقط. التفت تجاه "الزاجل الأزرق" وتبادل معه نظرة ذات معنى فاقترب منه، ثم استدار نحو زعيم "المجاهم" الذي دنا منه في الحال، ثُمَّ أشار للرمادي فاقرب، كاد "كُومبو" أن ينضم إليهم، فقال له "أنس":

- "كُومبو" انتظر أنت، من أجل أمك وأشريها وأمها، ولو لم أعد وكتب الله لـ"مراهم" النجاة، عاهدني أن تساعدها على العودة لقصر "الحوراء" إن لم ينج أحد من "المغاتير" ليعود بها.

أوًما "كُومبو" برأسه في صمت ووجوم، شَدَّ على كفه متاثراً حتى أن عينيه الضاحكتين امتلأت بالدموع، خشي أن يكون هذا الوداع! ووقف في رهبة يراقب "أنس" الذي حرك خنجره في طبقات الهواء قائلاً:

- ديوان الملك "كمشاق"

ابتثقت الفجوة فدلل منها "أنس" مع "الزاجل الأزرق" وزعيم "المجاهم" الذي لا يراه إلا "أنس" ومعهم الرمادي، فوجيء الملك "كمشاق" ومن حوله بظهورهم أمامهم، كان أول ما روع "أنس" هو رؤيته لـ"كلودة" وهو معلم من قدميه، كان الساحر "قرحة" يجلس تحت رأسه، وبين يديه كتاب "إيكادولي"، يستعد لكتابية أول عبارات فيه على طريقتهم بدماء كلودة بعد أن يثقبوا قلبه، وكانت "نيرة" تمسك بهم وتستعد، اهتزت يدها عندما رأت "أنس"، لكنها عادت تطالعه كذئبة جريحة ما زال بها بعض خبث ودهاء، كان الغل والغضب يطغى على مشاعرها، إن لم يكن هولها، فالكتاب سيكون!

وإن كُتب على صفحاته باسمها واسم أخيها وعلى شريعتهما التي تکفر بكل شيء إلا ملکهما، فذاك سيجعل "أنس" أسيراً لديها لأنه فشل في استرداد كتابه، ستسيطر على كل شيء، هكذا كانت تظن، أسرعت نحو "كلودة" ورشقت السهم في قلبه، فصرخ صرخة مدوية وب بدأت الدماء تسيل منه، وبدأ الساحر يجمعها في إناء صغير و يكتب بها في صفحة من الكتاب، بينما وقف

أمامه رجل ضخم الجثة يحمل سيفاً ويحركه مهدداً في الهواء أي شخص يفك في الاقتراب من الساحر، صرخ "أنس" مطلقاً إشارة الهجوم فانقض "المجاهيم" على بقية الجنود واحداً تلو الآخر وفور أن رأى المغايير سقوط الجنود أمامهم، انطلقوا وبدأوا يقتلون القصر بالتدريج، بينما انقض "الزاجل الأزرق" على الفارس الذي كان يحيي الساحر وهو يكتب وبازله حتى جنده بسيفه وصরعه فأحاط به آخرون، استمر يضرب ويجدل، وحوله زعيم "المجاهيم" يصرع بعضهم هنا وبعضهم هناك يخنقهم ويحبس أنفاسهم ، من بينهما وهما يساعدانه تسلل "أنس" مقترباً من الساحر وضربه ضربة بالسيف فقط ذراعه التي كان يكتب بها، ثم قطع العبال التي كان "كلودة" معلقاً بها من قدميه، كان "كلودة" يتآلم وبدا وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، نظر إليه "أنس" فألفاه ساكن الأطراف، شachsen البصر، وصدره يرتفع وينخفض وشفتيه تخلجان، فالتفت واستلق خنجره وحركه في الهواء لينتقل به إلى الغابة حيث العجوز "ناردين"، وسحبه معه خلال الفجوة، هرولت العجوز تجاههما وفور أن رأت "كلودة" شهقت وانحنت تتحسس السهم المرسق في قلبه، رفعت عينيها تجاه "أنس" وقالت له:

- هل أحضرت الزجاجة التي سألك عنها؟

- نعم.. ها هي، ولكن هل أنت على يقين مما أخبرتني به؟ لقد أخبرني "كُومبو" أنها حبر معتقد!

ابتسمت العجوز، وهرت رأسها بثقة، ثم سحبت زجاجة الحبر الزرقاء من يدي "أنس"، وفتحتها بحرص، قربتها لأنفها أولاً وشممتها ثم قالت بصوت واثق:

- الآن يا "أنس"

قبض "أنس" على السهم الذي رشقته "نيرة" في قلب "كلودة" ، وانتزعه بقوة، فانفجرت الدماء من الجرح، كانت الدماء حالكة السوداء! ارتج قلب "أنس" فرعاً وهو يراها تسيل، وضفت العجوز كفها عليها وهمست:

- يكفي.. يكفي.

فتوقفت الدماء عن السيلان وبدأت تقطر من الزجاجة داخل الجرح نقطة نقطة، ورفعت رأسها تجاه "أنس" قائلة:

- اتركه الان ولا تقلق عليه، وعُد لتنقذ "مَرَام"، فلن أستطيع علاج جراحها هنا!

انتفض "أنس" وشعر بالخوف يعتصر قلبه، حرك خنجره في الهواء وعاد لقصر "كمشاق"، كانت المعركة ما زالت مستمرة، وكانت "نَبْرَة" والتي كانت تفكك دماء "كلودة" التي استحالت سواداً على الأرض وتكتب بنفسها في كتاب "إيكادولي"، فور أن رأته يقترب احتضنت الكتاب وفرت به. بينما كان "حليم" يغرس سيفه في قلب أخيها "كمشاق"!! ويراقبه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم سحب سيفه ورفعه وهتف بصوته ممجداً ذكرى أبيه في هر آرakan القصر، هنا يعلو سلطان الملك على سلطان الصداقة، كانت نظراته كالبرق المنطابر من عين جواد مفترس، توقف الجندي عن القتال والتلفوا حوله يأتمنون بأمره بعدما صارت الغلبة والسلطة له منذ تلك اللحظة، بينما انسحب "المغايير" بأمر "الراجل الأزرق" وعادوا أدراجهم على السبيل حول القصر، وعادت الصقور تحلق بعد أن فتكت بمجاميع الغربان التي كانت قد تبافت حول القصر، كان "القرناس" قد حمل "مَرَام" وطار بها بعيداً دون أن يتلفتوا إليه، وانطلقت "نَبْرَة" على جوادها وهي تحتضن كتاب "إيكادولي" يحميها رجالها بالنيل ويرشقون كل من يتبعها، كانت تتجه نحو الجبل الأحمر.



بكلمات مقتضبة تحدث "حليم" حيث كانت دماء "كمشاق" لا تزال على سيفه، لم يجرؤ أحد أن ينقاشه، فقد كان قوي الشكيمة، حتى نقطة ضعفه الوحيدة - وهي حبه لـ"نَبْرَة"- تلاشت عندما تبعثر تلك الليلة التي اقتحمت فيها "أُونتي" الحفل وتحدىت معه بكل أريحية وصراحة، وأخبرته بقصتها مع "كلودة" وكيف كانت تحبه لكنها الآن تشعر وكأنه شبح عديم الملامح منها، كانت تدرك أنها ركضت خلف شهوة، نعم، لقد أطلقت العنان لجسدها ليستطيع روحها وكانت تتصرف كالحيوانات،وها هي نادمة، فالحب لا يأتي بالتوسل. أنصت إليها وتأمل حال نفسه وما يراه من "نَبْرَة" من إهانات متواتلة، وهي تنفر منه وتهينه وتقاومه، قرر أن يخرجها من قلبه، وكان للكلمات "أُونتي" وقع عظيم في نفسه.

تقىد "أنس" ووجه الكلام إليه بإجلال أمام الجميع ليثبتت أركان ملكه الجديد، وطلب منه ما وعده به مسبقاً:

- جاللة الملك "حليم".

هرّ "حليم" رأسه وفي عينيه نظرة امتنان على تلك اللمحات التي تركت أثراً على حاشية الملك البائد "كمشاق"، وأصدر الأمر لجنوده ليفتتشوا القصر بحثاً عن "مَرَام" ، كانت "أُونتي" تتحب في غرفتها وت بكى شقيقها "كمشاق" ، وكانت تخشى ما هو قادم. أخبرتهم أن المسكينة "مَرَام" الآن بين يدي اختها "نَبِرَة" وهي في طريقها لتلقى بها من فوق الجبل الأحمر.

كان "حليم" يقف بإجلال أمامها، أراد أن يشرح لها سبب قتلها له، والذي صحبه "أنس" خلال فجوة ليكشفه لها، ففوجئ بها تعرف السبب! فقد أسرت لها أنها به قبل أن تموت، ران عليهما صمت طويل وحولهما بعض المقربين، توقفت عن البكاء، وأخبرته أنها سترحل وتترك القصر فرفض بشدة، وخيرها بين أن تظل في القصر معززة مكرمة، أو أن تختار مكاناً قريباً ليأمر ببناء قصرٍ جديد يليق بها وتكون تحت رعايتها، كانت حائرة ومكلومة فلم تجده، فتركتها لهبدأ، وأمر حراسه بـألا يتركوها تغادر القصر، وانصرف وقد بدأ يحمل لها في قلبه من المشاعر ما قد يغير مصيرهما يوماً ما!



حرك "أنس" خنجره في الهواء وشعر وكأنه يشق به صدره وردد بصوت مرتعش:

- قمة الجبل الأحمر.

ابتخت الفجوة وكان يتوجه ظهرها ودقّات قلبه تتواشب، كان يخشى أن يصل فيراها صريعة وقد فارقت الحياة، كان قلبه ينتفض بين ضلوعه وهو يقفز في الفجوة ليصل إلى هناك، حيث كانت "نَبِرَة" تقف وقد انحنى تكتب نهاية قصتين، أنهت أولهما بموت المحب "كلودة" الذي كان يعشق "أشريا" لكنه أخطأ وفطر قلب اختها، وكانت تنهي الأخرى بموت "مَرَام" ، كانت "مَرَام" مقيدة من يديها بحبل طويل، أوقفها رجال "نَبِرَة" على حافة الجبل الذي

غطى الجليد قمّته، وتحلّقت فوقه سحب حمراء، قيل إنها من دماء المحاربين الذين قُتلوا ظلماً من قبل، على مر السنين، ولم يسمع بهم أحد، كانت "مراٰم" تحدّق في السحب وعلّمها سكينة عجيبة! وكأن روحها قد سقيت صبراً وثباتاً حتى رضيت واطمأنت.

أما "أنس" فكان يقترب في وجل وحرص شديدين وهو يراقبها ويختلفت ويراقب "نَبِرَة" وهي تكتب، كان الحراس على مسافة بعيدة منها، يحمون ظهرها ويراقبون الطريق، ووقفوا في حالة استعداد لصد أي هجوم جديد، حاول "أنس" أن يتخطى "نَبِرَة" ليقترب من "مراٰم" وينقذها، لكنها انتفضت وشعرت به، فأسرعت وركلت "مراٰم" من ظهرها فسقطت من فوق قمة الجبل وهي تصرخ، انطلق "أنس" يركض نحو حافة القمة وأغمض عينيه وقفز فحلّ كما أخبرته "مراٰم" من قبل. أنَّ المحاربين وحدهم يستطيعون التخلّيق كالصقور حول الجبل وفي نطاق الغابة، لكنها لم تجرؤ يوماً على فعلها، ولأنَّها فقدت مميزاتها كمحاربة منذ عادت ودخلت الغابة لتبعد "أنس" لم تتمكن من التخلّيق مثله، كانت تهوي بسرعة شديدة نحو القاع، تذَرَّ "أنس" ما أخبرته به عن " قطرة الدمع" ، فضمَّ يديه إلى جنبيه وألصق ساقيه ببعضهما وانطلق بسرعة شديدة وسبقهَا لثقل وزنه عنها ثم بحركة خاطفة التقطها من الجبل الذي قيدتها به "نَبِرَة" ، شقّت عندما شعرت أن هناك من يجذبها وكانت قد أغمضت عينيها بعد أن نطقت بالشهادتين تنتظر الموت والفناء، فتحت عينيها فووجدت نفسها معلقة في الهواء، رفعت رأسها فرأت "أنس" وهو يمسك بالجبل ويرتفع ويرتقي ويحلق وكأنه صقر يطير بجناحين، صعد بها شيئاً فشيئاً وكان يتعجب من قدرته على الانتقال من طبقة لأخرى في الهواء، حتى شعر أنه يستطع أن يثبت نفسه معلقاً كما تفعل الطيور في الهواء، فعلها للحظات وثبتَّ ونظر إلى معصمهَا فإذا بالجبل ينغرس في لحمها يكاد يذبح يديها، وكذا كان أثره مؤلماً في يده، بدأ يسحب الجبل ليمسك يديها فتراجحت وكاد الجبل ينفلت من يده فشخصت نحوه وصرخت صرخة انخلع لها قلبها، شدد قبضته على الجبل وأسع يرفعها حتى وصلاً لبروز حجري عريض قُرب قمة الجبل تعلوه ندف السحاب الأحمر التي تشكّل تلك الحالة الحمراء، رنا إليها بإشراقٍ وهو يتحسّن يده وذراعه حيث كان يلف عليها الجبل، كانت تحرقه بشدة وتوجهه، وكذلك يداها، أجهشت "مراٰم" بالبكاء، قال "أنس" وصوته يقطر حناناً وحبّاً:

- ذكريني بعد أن ينتهي كلّ شيء أن أخبرك بشيء ما، شيء يهمنا معاً...
ذكريني يا "مَرَام".

بلا كلام، وفي مساحة من الزمن لم تُحسب، وفي عالم عجيب لم يعرفها موقعه لكنه احتل من قلبهما مكاناً قصياً، كان قلبه وقلبهما متاغمين في الدقات، فكل دقة في صدرها صدراها قويٌّ في صدره، كانت روحه وروحها منسجمتين بلا عناق، نفسٌ.. وأخرى تريد أن تسكن إليها، لكنهما يتعرفان رغم كونهما على حافة جبل حيث لا تراهما عيون الناس، لكنهما على يقين أن ربّ الناس يراهما.

أخرج خنجره وحرّكه في الهواء وانتقلت قبله "مَرَام" إلى الغابة وتبعها خوفاً عليها، لم يحب أن يتركها وحيدة مرة أخرى، في تلك اللحظة الخفيفة فور اختفائهما داخل الفجوة أمامه بدت وكأنها فجوة تفصل شطري حياته، كان يجهما حبّاً نقياً ملائكيّاً، وأمام كوخ العجوز "ناردين" كان "كلودة" قد برأ وકأنه لم يُصب بسهم من قبل، أعاده "أنس" لعروسه وداره، وأعاد "كُومبو" إلى أمه، ونقل "المغaitir" إلى قصر "الحوراء" مع "مَرَام"، ثم عاد للغابة ليرد للعجز "ناردين" عكاذاها الذي تتکئ عليه، كان الغصن يحُنّ إليها كما كانت هي تحن إليه! وقف "أنس" أمامها وقال بعد أن حيّاها وشكّرها:

- ها هو عكاذاك يا أمي.

احتضنت العجوز عكاذاها وكأنّ عزيزاً كان غائباً وردد إليها، قرّيتها من أدتها وبدت وكأنها تنصت لشيء ما، ثم رفعت عينيها تجاه وجه "أنس" وقالت:

- كنت أعلم أنه سيحبك يا "أنس"، لم يخب ظني بك، منذ اللحظة الأولى
وأنا أشعر أنك شاب نقي.

ابتسم "أنس" ووضع يده على كتفها وقال بحنان بلية:

- والآن يا أمي، هل ستقبلين هديتي؟

- أي هدية!

- رحلة .

- إلى أين؟!
- مفاجأة!

- أخبرني أرجوك، فأشجار الغابة لن تسمح لي بالرحيل أبداً.
- حتى من الفجوات التي أحدهما بخنجر؟
- سيسحبونني منها يا ولدي.... سيفرضون.

رفع "أنس" صوته وكأنه يود أن تسمعه كل أشجار الغابة وقال:
- سأنقلك إلى بيتك.. إلى ولدك يا أمي.. فأنت تستيقين لرؤيته وقلبك يتوجع.
اهتزت أشجار الغابة وعلا همسها وضجيجها حتى أن "ناردين" رفعت يديها على أذنها وهي تسأله:

- وكيف عرفت عنوانه!
- سألت أنا و "كومبو" وأخيراً وصلنا إلى ولدك الحبيب ولقد رأيته يقف أمام داره ويلاعب أبناءه، كم هم رائعون!

شعرت العجوز بارتباك شديد، كانت مشاعرها تتراجع بين شوتها لرؤيه ابنها وبين خوفها من أن يكون قد أقر ما فعلته زوجته، كانت تخشى أن تكشف النقاب عن الحقيقة، فهي لم تسمع أي خبر عن أنه جاء ليبحث عنها، حتى عندما تخبرها أشجار ونباتات الغابة عن دخول أحدهم أو حتى وفاته كانت تذهب لتتحرى الأمر وتتصفح الوجوه لعلها ترى وجه ابنها بينهم، لكنها كانت تصاب دوماً بخيبة الأمل، وتعود مكسورة القلب إلى كوخها.

قالت وقد دمعت عينها:

- لا يا "أنس" .. اتركني هنا كما أنا بين أشجارى.
طربت الأشجار لما سمعته، حل السكون وعاد الجميع لينصب لحديثهما، حاول "أنس" أن يشجعها ويبيث في قلبه الطمأنينة فقال وهو يبتسم:
- أحد أحفادك يُدعى "بدر" وله وجه كالبدر يا أمي، حقاً إنه خفيف الدم.

ابتسمت العجوز بضمِّ مفهومِ موضوعِ وكان لا بتسامتها البريئة أثُرٌ بلِيغٌ في قلب "أنس" الذي أردف قائلاً:

- وشقيقته الصغرى تدعى "شموس"! يبدو أن ابنك يكثر من مراقبة السماء! أخشى إن أنجب طفلاً جديداً أن يسميه "رعد" أو "برق"!

ضحكَت "ناردين" وأمسكت بذراع "أنس" وقالت بفضول:

- متى ذهبت.

- قبل أن تظهر علىَّ أعراض السحر، وانشغلت بما عرفته عنِّي فأجلَّت إخبارك حتى اللحظة.

قالت وقد بدت علامات الخوف على وجهها الطيب:

- وهل... رأيت زوجته؟

- لا، كان هو فقط من يداعب الصغارين أمام داره، وكان أشقاوهما الأكبر عمراً يجلسون في هدوء وسكونة، هيئا بنا، الوقت يمرّ..

- لحظة يا "أنس"، سأرتدي ثوباً آخر وأغسل وجهي.

أسرعت "ناردين" وقد دبَّ النشاط في أوصالها وهرولت تجاه الكوخ وبعد دقائق كانت تقف أمامه بابتسامة رائعة كانت هي أبلغ زينتها، حرك "أنس" خنجره في الهواء فظهرت الفجوة، امتدت وشائج الأشجار واقتربت من ساق "ناردين" وكانت تلتقي حولها، لكنها لم تجرؤ! توقفت عن الزحف وعادت إلى أماكنها بينما كانت "ناردين" تراقبها بعينين معورقتين بالدموع، دلف "أنس" إلى الفجوة بعد أن أمسك بذراع "ناردين" تاركين خلفهما أشجار الغابة تهتز أغصانها وتتنَّ وتباكي في نشيج عجيب، يخشون أن ترحل للأبد! علت أصوات الأغصان وهي تتشابك وتختبئ وتهتز، فهناك خطب جلل قد حدث في تلك الغابة!

رحلت الحبيبة "ناردين"، رحلت تلك التي تمنَّ الحب للجميع، ولكلَّ من يمرّ من بين ضلوعها!

كان لا بدَّ أن ينقلها "أنس" إلى بيت ابنها فما كانت لتخرج من حدود الغابة

وتختطف ذاك الحاجز الحجري إلا بواسطة الفجوة التي يفتحها بخنجره، بعد لحظات خرج "أنس" من الفجوة ويده في يد العجوز التي شهقت فور أن رأت أمامها ابنها يقف بقامته المتوسطة الطول ووجهه المستدير، كان يحمل فتاة صغيرة رائعة الجمال، اقترب "أنس" منه وكانت "ناردين" تتأبّط ذراعه بيدها اليسرى بينما تتکّن بيدها اليمنى على عكازها، كان يطعن ابنته حبات من التوت بحنان ولطف، فور أن وقعت عيناه على وجه أمه انتفض ووضع الصغيرة على الأرض ثمّ وثب وصرخ كطفل صغير مذهول:

- أمي... إنها أمي!!!

صاحت "ناردين" وقد انهمرت دموعها في الحال:

- "ربيع"!

هرول "ربيع" تجاه أمه وانكبّ عليها يقبل يديها تارة ويقبل رأسها تارة أخرى وقد اختلطت دموعه بدموعها، كان يبكي وهو عاجز عن الكلام، لم يجد كلمة تعبر عمّا يعتمل في صدره، مسحت "ناردين" وجهه بكفّها وقالت بصوت تقطّعه الدموع:

- اشتقت إليك يا حبيبي، دعني أشمّك يا "ربيع"، أشتاق رائحتك.

أجهش "ربيع" بالبكاء، وعانقها وظلّت تشمّ عنقه وهو يبكي في حضنها، قال بعد أن تحامل على نفسه:

- بحثت عنك كثيراً في كلّ مكان، ظننت أنك هربت من الدار، كنت أعلم أن زوجتي لا تحبّك.

وضعع العجوز يدها على فم ابنها لتسكته وقالت:

- هسس... لا ترفع صوتك يا "ربيع" حتى لا تسمعك.

- لا تخافي يا أمي، لقد طلّقها.

- ماذا!!

- قلبت حياتي جحيمًا فطلقتها وتركت الصغار بكل قسوة وتخلت عن أموتها.

قالت العجوز بألم:

- وحرمتني من أموتي ومنك.

احتواها "ربيع" في حضنه وقال بحنان:

- لا يا أمي، لن يحررك أحد مفي أبداً بعد الآن.

ثم حمل صغيرته وقرّبها من وجهها وقال لها:

- لقد تزوجت "سندس" أتذكرينهما، وأنجبنا "بدر" و"شموس"، انظري يا أمي.. هيَا هيَا احملهيا.

ورفع صوته ينادي زوجته التي كانت تخرب فوق سطح الدار، أجبت زوجته النساء وهبطت الدرج على عجل وأسرعت تجاهه بوجهها الطيب، تذكرتها في الحال فقد كانت تقتنى في البنية المجاورة مع أمها التي كانت أعز صديقة لـ "ناردين"، عانقتها طويلاً وجلس الجميع داخل الدار، إن للماضي حينينا يتغلغل في القلوب ويتمكن منها، عادت "ناردين" بذاكرتها إلى سنين مضت، كانت تقلب عينيها بين أحفادها بفرحة وحبور، مضت ساعة وهم على تلك الحال، وحولهم الصغار يلعبون ويراقبون جدّتهم والفرحة تطلّ من أعینهم، وقف "أنس" ليستعد للرحيل، وبعد أن ودعهم كاد يحرك خنجره لولا تعليق "ناردين" فجأة بذراعه! كانت في هلع وكأنها طفل يتيم سيرحل من يرعاها ويتركه في بيت غريب!

تعجب عندما توسلت إليه ليعيدها إلى كوخها في الغابة، قالت بتوتّر:

- أرجوك يا "أنس" أعدني إلى الغابة.

صاح "ربيع" متعجباً وقد سمعها:

- كيف يا أمي! كيف!!

- أرجوك يا "ربيع"، لن أستطيع البقاء هنا.. سأموت.

- غير معقول يا أمي! أتفضلين وحدتك في غابة موحشة على البقاء معي أنا وأبنائي!

- عشت لسنوات هناك فلا تقلق.

- أنت تعلمين أنني لن أستطيع دخول تلك الغابة أبداً ولن أتمكن من عبور ذاك الحاجز الحجري! أنا حتى لا أعلم كيف تعيشين في تلك الغابة المخيفة وحدك!

- اتركي يا ولدي لأعود .. أرجوك؟

قال "أنس" محاولاً إقناعها بالبقاء مع ابنها "ربيع":

- أنت تحتاجين للسيد "ربيع" وهو لن يستغفي عنك يا أمي، أرجوك ابقي هنا معهم.

قالت بعد صمت ثقيل:

- أصبح الكوخ بيتي، وأنا لا أرتاح إلا في بيتي.

ثم جذبت "أنس" بلطف من ذراعه فانحنى لهمس في أذنه:

- دعني أرحل حتى لا تتغير نظرة الحب التي رأيتها في عيني "سندس" اليوم، فإن بقية ستتغير، الإنسان ثقيل يا ولدي، وأنا أكره أن أكون حملاً يستقله الآخرون.

لم يفلح أحد في إقناعها، أصرت وأخبرتهم أنها ستسرير إلى هناك إن لم ينقلها "أنس"، لم يط لها البقاء بين أحفادها، حتى دموع ابنها لم تشفع لديها، ستكتفي برؤيتها كل أسبوع على أطراف الغابة!، أخبرت "ربيع" أن الأشجار ستتركها تتخطى الحاجز الحجري بأمان ولن تعيدها كالعادة طالما أنها سترها اليوم وقد عادت لتقييم هناك للأبد، هكذا همس لها عكاها. خضع "ربيع" على مضضٍ وودها بالدموع. استجابة "أنس" لرغبتها وأعادها إلى الغابة حيث كوهها فهاجت الأشجار وماجت وعلا الضجيج، وأقيم عرس بالغابة، عادت الحبيبة "ناردين" ... عادت الحبيبة "ناردين".



في بقعة أخرى، بسط "المجاهيم" نفوذهم أخيراً على ما تحت أرض قصر مملكة الجنوب حيث يطل قصر الملك "حليم" فوق تلك المساحات الواسعة كوتدي ضخم تحيطه السهول الخضراء من كل جانب، فتوسعت مملكتهم وانتقل بعضهم إليها للأبد، أصحاب "أنس" إرهاق شديد، فكثرة التنقل جعلته يشعر بدور شديد، أصبح يرى كل شيء بالأرقام، وباتت لديه خريطة منحوتة في ذهنه، على كل بقعة فيها رقم منقوش له دلالة بات يعرفها، أراد أن يرتاح ولو للحظة لكنه لا يستطيع، ما زال أمامه الأهم وهو أن يسترد كتاب "إيكادولي" من بين مخالب وأنياب الذئاب.

كان "القرناس" قد حمل الكتاب من فوق قمة الجبل الأحمر بعد أن أنهت "نيرة" آخر جملة فيه إلى المكتبة العظمى، تسلمه منه الحراس بالمكتبة واجتمعوا ليطّلعوا على ما فيه، كانت تلك العبارات التي ظهرت بينما كان الكتاب مع "أنس" قد اختفت جميعها، وامتلاه الكتاب بعبارات صاغها الساحر "قرجة" قبل أن يقطع "أنس" يده، وأكملتها الأميرة "نيرة" بدماء "كلودة" التي كانت على الأرض، فور أن يُختتم الكتاب ويضاف إلى رفوف المكتبة سيكون لـ"نيرة" شأن عظيم، كان حرّاس الكتب بالمكتبة العظمى يتصفّحون الكتاب بينما حدث شيء عجيب لم يحدث منذ فترة بعيدة!.



اندفعت حزمة من أشعة الشمس الوردية على أوراق أشجار السنديان الوارفة المحيطة بالبناء العظيم، ثمّ انسابت على جذوعها المغطاة بالطحالب والنباتات المتسلقة، وأخيراً انزلقت على الأرض وكانتها ترقص فوق العشب! فوق الممر المؤدي إلى البوابة الرئيسية للمكتبة، كانت الأشجار تتلامس وتتعانق مع بعضها البعض لتحبس ضوء الشمس عن الوصول إلى الممر، نسمات الهواء كانت باردة، صfan من الحجارة البيضاء كانوا على الجانبين مرصوصان بنظام دقيق، كان "أنس" قد انتقل إلى المكتبة عبر فجوة ونجحت المحاولة هذه المرة، لم يسقط في بحر من الرمال المتحركة ليبتلّه، ولم تصبه صاعقة من السماء تفتّك به. كان من الضروري أن يزور المكتبة العظمى بنفسه، فالكتاب هناك كما أخبروه في قصر "الحوراء"، ولا بدّ أن يكون حاضراً في تلك

اللحظات الفارقة لعله ينجح في استرداده، كان "أنس" يرى كلّ هذا من خلف بوابة ضخمة من الحديد مشغولة بطريقة عجيبة، حاول أن يصدر صوتاً لعل هناك من يجيبه، حاول أن يهزّها بيديه لكنها كانت متينة وثقيلة، من بعيد أسرع بعض الرجال الأقوية نحو البوابة يتعجبون من ذلك الذي وصل إليها ووقف يراقب البناء العظيم، كانوا يتبدلون النظارات التي تشي بتعجبهم، من يجرؤ على الاقتراب من حدود المكتبة العظيمة! قبل أن يصلوا إلى البوابة، وحيث انتهت صفوف الحجارة البيضاء، وقفوا بجوار بعضهم البعض عاقدين أذرعهم أمام صدورهم، تقدم أحدهم وكان يُلقب "أنس" بنظراته، بينما كان يمسك بالبوابة الحديدية ينتظر أن يدنو منه ليُسأل، وقبل أن يقترب فتحت نوافذ البناء من خلفهم فجأة وصرخ أحد ما:

- لا تتحرّك من مكانك نحن في خطر داهم وأنت الملوّم!

ثم فجأة ومرة أخرى صرخ منادياً كما صرخ منذ قليل:

- أدخلوه حلاً... أدخلوه.. فلقد حدث ما لم يحدث من قبل!

أسرع الرجال يفتحون البوابة الحديدية وأفسحوا الطريق لـ "أنس" ليدخل، كان يسير وهو يتلقّى يميناً ويساراً، فهو يشعر أنّ هناك من يلازمه كتفاً بكتفٍ ويسير معه، يكاد يسمع أنفاسه المتتابعة! بل يشعر بدفنه! لكته لا يراه!

دلف إلى البناء فأحاط به شعور بالسكونية رغم ارتباك الجميع وازدحام المكان بوجوهه تطالعه باهتمام، بدا وكأنّ كل من بالبناء تخطوا السنتين من أعمارهم، كانت السقوف مزينة بنقوش ذهبية بدعة، مطعمة بألوان زاهية، تشبه تلك التي رأها في بيت جده، تذكّر الآن كيف تشبه بوابة بيت جده تلك البوابة الخارجية لكنها تصغرها حجماً، مرّ بشجرة من خشب الأبنوس تشبه تلك التي سقط فرع منها في غرفة جده عندما رأى كتاب "أبادول" لأول مرة، وكانته يتتجول في متحف عريق ممتئ بالتحف الثمينة كان "أنس" يتتجول مستمتعاً بما يراه، صعد الدرج خلف كهل متوسط القامة له لحية كثة طويلة بيضاء بعد أن رحّب به، وأخيراً وصل إلى قاعة تتوسطها طاولة مستديرة يحلى حولها رجال يتشاربون في الخلقة لهم سحنة طيبة مريحة، على رأس الطاولة كان أكبرهم يجلس بوقار تحت ووجهه ابتسامة مشرقة، تلوّ

على جهته الواسعة سجدة رمادية خفيفة لا يشك الناظر إليها أنها جهة عابد، استند الكهل على حافة الطاولة ووقف يرحب بـ"أنس" وأشار إلى بهو كبير تتفرج منه ممرات طويلة ممتلئة بالرفوف يميناً ويساراً حيث تستقر عليها الكتب، سارا معًا من بينها حيث كان الكهل يمسك بندراع "أنس" ويشير إليها ثم قال:

- لم تتحرك الكتب منذ ثلاثين عاماً كما تحركت اليوم، لقد أصابنا الرعب، طئنا أن البناء سينهار، كانت أول مرة تخرج من أماكنها وتدور ثم تعود يوم وصول جدك يا "أنس"، ومن بعدها حين جاء أبوكوها هو الأمر يتكرر اليوم، ثم أكمل مبتهجاً:

- الآن يا "أنس" .. حان الوقت.

- الآن ماذا؟

- سأتركك هنا لتخلو بصديقك قليلاً.

- صديقي !!

- "إيكادولي" ... الكتاب! وسانظرك مع حراس الكتب، لتنسلمه منك.

- وأين هو الكتاب؟

- في تلك الغرفة، أرسلناه مع كوكبة من الصقور وغسلوه في ماء النهر الأخضر، فالكتابة بالدماء لا تزول إلا بغسله هناك، أتدري يا "أنس"؟ لو قتلوك لبقيت الكلمات في "إيكادولي" للأبد، وما كان ماء النهر ليمحوها، وكنا سنضطر لقبول الكتاب وضمه للروف.

- وهل حدث هذا من قبل؟

- نعم، لكن لا تقلق، الكتب لا تهدأ وستظل تدافع عن نفسها ، وكل كتاب سُرق سيبحث عن محارب جديد ليسترده، عندما يصدق شخص ما بالقيم التي فيها تسترد عزيمتها وروحها فتبتلع الكلمات، حتى إن كانت بالدماء، فوجود ذاك المحارب يمنحها القوة لتعاير وتعاني صراغاً حتى يأتي ويساعدها.

ثم استقرت عيناه على عيني "أنس" وقال:

- أظنك تحمل مفتاح الغرفة، أليس كذلك؟

أخرج "أنس" ذاك المفتاح الذي أعطاه له والده، ورفعه ليراه الكهل الذي هشّ حين رآه، ثم أشار تجاه غرفة في صدر ممر يقع على يمينهما وطلب من "أنس" أن يتوجه إليها، سار "أنس" تجاه الغرفة وعاوده الشعور بأن هناك من يلازمه ويسيّر قريباً منه كتفاً بكتف، دسّ المفتاح في الباب وفتحه، ودلّف بهدوء.

في غرفة مضيئة جدرانها بيضاء وخالية من النقوش كان كتاب "إيكادولي" يسقّر على طاولة بيضاء مستديرة تحتل بقعة صغير وسط الغرفة، اقترب "أنس" ولامس الكتاب بأطراف أنامله، فور أن فتح الكتاب شعر بقشعريرة تجتاح جسده، ثم انطلقت صفحات الكتاب هاربة من بين دفتيه واحدة تلو الأخرى تتعلق في الهواء، أحاطت الصفحات الخالية بـ"أنس" ودارت عدة مرات ثم توقفت عن الدوران، ابتعدت عنه وارتقت وبطريقة فجائحة اقترب أولها وانبسط أمام عينيه، ظهرت عليها تباعاً العبارات التي رأها "أنس" في المخارة تحت النهر الأخضر، رأها أولاً بنفس اللغة الغربية التي لم يتمكن من فك طلاسمها، ثم تلاشت لتستقرّ معانها باللغة العربية أمام عينيه، كانت كل ورقة تحمل عبارة واحدة، كانت العبارة تظهر وفي نفس الوقت يتعدد معها صوت الأمير "أواوا" وهو يقولها باللغة التوبية عندما رآه "أنس" في المررت تحت النهر الأخضر، كان صوته متزامناً ومتنااغماً مع الكتابة:

إيكادولي

أحبّك؛ تعني أن كل علامات الحب خرجت من خدرها فجأة عندما رأيتني، خصيصاً لك وحدك، بعد أن دُرّتْها طويلاً حتى أغثّر عليك.

إيكادولي

أُحْبُك؛ تعني أن أستتر براءة الطهر حتى ألتقي بك على غير موعد، أحفظ لك أمانتك في نفسي دون أن أراك، لتكون أول من يوقع على شغاف قلبي.

إيكادولي

أُحْبُك؛ تعني أنني سأعيش ملامحك يوماً بعد يوم، وسأعيش في تضاريس وجهك حتى الموت، سأحب فيك روحك التي بين جنبيك، ولن ألتفت لغيرك!

إيكادولي

أُحْبُك؛ تعني أن ترتحف كفّي لأول مرّة بين يديك، لأنك أول من يلمسها، فأنت بداية الحبّ، وأنت نهايته، قوسان بينهما حلال، وليس خارج القوسين ثمة حبٌ!

إيكادولي

أُحْبُك؛ تعني أن أسكنك، وتعيش أنت بين ضلوعي، وأن أكون لك الأمان، والحسن الذي تلجم إلية إن أغضبتُك فتشكوني إلى نفسي وأنت أقرب إلى من نفسي.

إيكادولي

أُحْبُك؛ تعني أن أدمي النظر إليك، وأعود فأغضض طرفي عنك حتى تكون لي وأكون لك، فأراك في كلّ العالم حولي، وتشنّ كلّ راحفة من رواحف قلبي هاتفة باسمك، تطلبك من الله، ترجوه أن يمنحك إياك مطيباً بالحلال.

إيكادولي

أحبك؛ تعني أن يضيئني قربك ولا يطفئ شعلة روحي، وهنا في قلبي حيث تسكن تتشابك خيوط النور فأبصر في عينيك كلَّ الوجود جميلاً.

إيكادولي

أحبك؛ تعني أن أقبل عليك لأحدّثك بخواطري، ثمَّ أدّحر الكلمات فتحدث صحيحاً في نفسي، فأعقد عليها حتى يضمّنا العشْ وأعطيك الميثاق، فأسكبها لثنا شجياً في أذنيك، فيخفت الضحيم وأسكن إليك.

إيكادولي

أحبك؛ تعني أن يكون حبك حجاباً لي عن المعاصي، فصلاحك يصلحني، وعفافك يلهمني الشرف، فأحبك لما أنت عليه من فضيلة، ولما أكون عليه منها عندما أكون معك، تقرّبني لربِّي، وتحرّني إليه، فيحبنا الله ونحبه.

إيكادولي

أحبك؛ تعني أن يتكلّم كلَّ شيءٍ فيما دون أن نتكلّم، نلتقي دون أن نفرق في بحر الرذيلة، فتسمعني بظهرك، وأنصت إليك باستغافل، حتى يريد الله.

دارت تلك الصفحات وكانت العبارات العشر قد كُتبت عليها أمام عيني "أنس"، ثمَّ انطوت من جديد بين دفَّتي الكتاب المفتوح على الطاولة، وببدأت صفحات أخرى مرقمة تتولى أمام عينيه، تحكي ما مزَّ به بالتفصيل، كلَّ خطوة، كلَّ همسة، كلَّ شخص التقى به، حتى "مراام"، حتى الغابة وما فيها، والقصرين، وبقيت الصفحة الأخيرة، كان يُكتب فيها ما يحدث له في تلك الغرفة بالتحديد، تركت مساحة فارغة! ... ثمَّ كُتب أمام عينيه على السطر الأخير:

واسترد الكتاب الذي يحبه.. "إيكادولي"!

ثم سُحبَت الورقة الأخيرة فجأة من الهواء واستقرت داخل الغلاف، وأغلق الكتاب بقوة فأصدر دويًا أجمل منه "أنس"، في تلك اللحظة فتح الكهل ذو اللحية البيضاء الباب خلفه، وحمل الكتاب، وسار معه يرثي على كتفه، ويهنئه باسترداد كتاب "إيكادولي". وبعد أن أنهى "أنس" زيارته إلى المكتبة، أخرج خنجره وحرّكه في الهواء وانتقل إلى قصر "الحوراء"، حيث كان الجميع يتظروننه، حمله "المغايير" على الأعناق، كانوا يحتفلون بنجاحه، سقطت حقيبته فالتحقت بها "مراٌم" وعلقتها بكتفها كما يفعل "أنس"، ووقفت تراقبه، تخلص بلطف منهم واقترب على استحياء لي Bowman لها بمكnon صدره، كانت دقات قلبه تتواثب وكذلك كانت هي، كاد يقول شيئاً لولا "الرمادي" الذي ظهر فجأة وانطلق تجاه "أنس" كقذيفة مدفع، وفجأة! انقض عليه بمخلبيه وطار به محلاً فوق مملكة البلاغة وسط صباح الجميع، ظلّ الصقر العجيب يخفق بجناحيه ويبتعد... ويبتعد... ثم ابتلعهما سحب السماء. شعر "أنس" بدوار شديد، وغرق في الظلام وشعر وكأن ملزمة تضغط على صدره، دوائر يغوص فيها وتتسع.. وتتسع، صرخ منادياً باسمها:

- "مراٌم"..."مراٌم"



عودة!

وأخيراً فتح عينيه ليجد نفسه في بيت جده بالفيوم، ممدداً على أرض الغرفة التي التقى فيها بالرمادي لأول مرة، حاول أن يرفع رأسه فإذا بباب الغرفة يفتح لمبروك تجاهه والده وجده، لم يتمكن من فتح فمه، أراد أن يقول شيئاً ما! لكن والده رأى على يده بحنان وطالعة بنظرات تعني أن الوقت قد حان لكي ترتاح، ارتعى جفناه واستسلم للنوم لفترة، ثم أفاق فجأة وانتفض وقفز يتلفت يمنة ويسرة وكأنه يبحث عن شيء ما، قال جده الذي دلف للغرفة وهو يحمل في يده الجريدة:

- ما بك يا "أنس"؟ عن أي شيء تبحث؟
- الكتاب... "إيكادولي"... أين هو؟
- اهدا يا "أنس".
- "مَرام"!
- من "مَرام"؟
- فتاة التقى بها هناك.
- سيبقى هؤلاء هناك، لا بد أن تعلم أنك الآن انفصلت عن عالمهم.
- ولكن.
- طالعه أبوه الذي كان يراقب حوارهما بتأنّر وقال بصوت غلبه نبرة حانية:

- أعلم وأقدر شعورك الآن، أنت تتوجع، تعلقت بهم، أحبيتهم، وكأنّ هناك من اقتلهم فجأة من قلبك.
- اسمعني يا أبي، "مرام" كانت مثلي، م..م... محاربة، لا بد أنها قد عادت هي الأخرى إلى هنا، إلى عالمنا! كيف سأصل إليها؟
- "أنس"... تمالك نفسك، فكلّ ما عشتـه سيظل...
- سيظل ماذا؟
- في الحقيقة... أنت..
- أنا ماذا!!!
- كنت مجرد... شخصية في رواية!
- بدأ الغضب يأخذ طريقه إلى رأسه، صاح بعصبية:
- ماذا!!! ما الذي تقوله!
- كما سمعت.. مجرد شخصية في رواية!
- وتلك الملابس التي ما زلت أرتدّها!!! لا تحذني بتلك الطريقة أرجوك!
- رفقاً بنفسك يا بني، مررت بما تمر به من قبل، اصبر أياماً وسينتهي كل شيء.
- كيف... كيف!! هذا لم يكن حلماً!
- تحلم لفترة تخطّت الأسبوع!! وتختحفي عن الوجود يا "أنس"!
- أرأيت.. تعرّف إذن أن ما مررت به حقيقي، لقد اختفيت من هنا، لم أفقد الوعي ولم أكن نائماً ولم أغرق في غيبوبة، كنت أعلم أن الشمس التي تشرق على تلك المملكة هي نفس الشمس التي تشرق علينا هنا فكيف تقول أني غصت في رواية! أنا بشر، أنا روح، أنا إنسان!
- يا بني، انتهى الأمر...

تحسّس "أنس" يده وقال بحماس:

- انظر.. أثر هذه الحبال المجدولة على يدي، ما زال يحرقني!

أغمض الأب عينيه في يامي وقال:

- لن يصدقك أحد، ولن تستطيع العودة إلى هناك، حاولنا قبلك وفشلنا..
أنسيت؟

هزّ "أنس" رأسه وقام يجول في الغرفة كالمجنون وقال:

- وكيف أنسى نفسي التي وجدتها هناك؟

أمسك جدّه بذراعه وأعطاه الجريدة وقال بهدوء:

- انظر.. ها هي الجريدة هناك إعلان عن رواية جديدة للكاتب "شهاب السيوفي"، ستتصدر عن دار "مملكة البلاغة" للنشر والتوزيع، مكتوب هنا أنّ الرواية تحكي قصة حب نوبية قديمة، هكذا تسير الأمور.

أمسك "أنس" الجريدة وطالع صورة الكاتب، وصاح متعجباً:

- إنه هو.."شهاب" !!

- لا بدّ أنك التقيت به هناك، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، كان يظهر ويختفي من آن لآخر.

هزّ الجد رأسه بثقة وقال بهدوء:

- وهذا ما حدث معنا من قبل، معي ومع أبيك، صدرت روايّاتان بعد عودتنا وكنا نلتقي بالكاتب هناك، يظهر فجأة، ويختفي فجأة، وانتهى الأمر.

التفت إليهما الأب الذي كان يحملق في زجاج النافذة مراقباً انعكاس ضوء الشمس عليه:

- هذا ما أعنيه يا ولدي، كلّ ما مررت به مخطوط في تلك الرواية بعنابة شديدة، وانتهى الآن فقد تم تسليمها لدار النشر وستتم طباعتها، فلتنس كلّ ما مررت به هناك.

- و"مَرَام"!!

- كانت أيضًا مجرد شخصية في رواية.

- لا... لا.. مستحيل!

- أعلم أن الأمر يصعب عليك، هكذا هو في البداية، ستعاني كثيراً يا ولدي،
اهدا فأنت عاقل وتعلم جيداً أنت لن تعود إلى هناك. والأيام كفيلة بلمحة
الجراح.

- ولكن... الرمادي! ألن يعود!

- لن يظهر إلا بظهور رمز جديد، لأحد أفراد العائلة، ربما بعد سنوات طويلة
من الآن، ابن لك أو حفيد من أحفادك، حاول أن تتجاوز الصدمة لتكمل
حياتك.

- ولكن...

قبض "أنس" على صدره، وقال بخفوت:

- شيء ما مني بقي عالقاً هناك ولم يغادر.

قال والده:

- اثبت يا "أنس"، واحمد الله أن الأمر لن يتكرر.

- ماذا تعني؟

- تخيل مثلاً لو تكرر الأمر من آن لآخر كلما قرأ أحدهم الرواية تعود أنت
لنقطة البداية وكأن شيئاً لم يكن، وتتكرر الأحداث!

- ليت هذا يحدث، ليته يتكرر كل يوم، ليتني أراهم مرة أخرى، عزائي
الوحيد وقتها أنني سألتقي بمن أحببتم مرات ومرات.

- لكن إن حدث هذا لن تستطيع إخبارهم بأي شيء.

- لماذا؟

- لأنك ستنسى كلّ شيء وتعود لنقطة البداية، وكأنّ ذاكرتك قد محيت تماماً، انتهى الأمر يا بني... تمسك أرجوك.

ارتفع رنين هاتف والده، كانت والدته، يبدو أنها كانت غاضبة لأنّ "أنس" لم يرد على مكالماتها طوال أسبوع كامل!، كان الأب يحاول شرح موقف "أنس" وأخبرها أنّ هاتفه كان مفقوداً وأنّه كان مع رفاته، أصرت على سماع صوته فقد كانت تشعر أنّ هناك شيئاً ما قد حدث له، فليس من عادته ألا يهاتفها ليطمئنها عليه بنفسه، اقترب الأب من "أنس" وهمس في أذنه قائلاً:

- لا تخبر أمك فهي لا تعلم شيئاً، فأنا أخبرتها أنك كنت مع رفاته، وهذا ما حدث بالفعل.

ضمّ الأب الهاتف لصدره ليكتم الصوت ورممه بحزم وأردف قائلاً:

- لا تخبرها ولا أي أحد آخر غيري وجداك... لن تصدقك وسيظنك الجميع مجنوناً.

أمسك "أنس" الهاتف وتحدث مع أمّه بصعوبة، كان يعتذر وحسب، ويذكر اعتذاره مرات ومرات، ظلت تصيح عليه في الهاتف وتلومه فقد كانت في غاية الفلق عليه وظنت أنه أصيب في حادث أو شيء ما، أنبت صياحها بكاء شديد فأخذ يهدئ من روعها ثم قال بصوت يقطر ألمًا:

- كنت مع رفافي...

قالها "أنس" وهو يتآلم، كان يفتقد رفاق رحلته العجيبة، فقد احتل كلّ منهم جزءاً من كيانه، تذكّر قول العجوز "ناردين" عن كلّ من تلتقي بهم وتحبّهم، وكيف كانت تشير إلى صدرها وتقول أنّهم مروا من هنا.. كان "أنس" في غاية الحزن.

أغلق الهاتف وأمسك برأسه فجأة، كان يشعر بخفقان يضغط على صدره والحرقة تنخر معدته فسقط مغشياً عليه فحمله أبوه وجده وأعاداه إلى فراشه وجلسا طوال الليل بجواره يتأملان لألمه ويسألان الله له الثبات.



أطلت الشمس من خلف السحب، وكأنّها تختفي من "أنس"، كان بالفعل مستيقظاً منذ وقت طويل، يحملق في سقف الغرفة ويسترجع كل لحظة مرّت به، وثب وارتدى ملابسه على عجل وخرج دون أن يشعر به أبوه وجده، قرر أن يذهب للقاء "شهاب" بالقاهرة، بعد ساعات كان يهرب خارجاً من محطة القطارات وصوله باحثاً عن سيارة أجرة، ولكن يحصل على عنوان بيته اتجه أولاً لدار "مملكة البلاغة" للنشر والتوزيع، بناءً أنيق من القرميد الأحمر تحيط به حديقة رائعة من كل الجهات، أخرج بطاقة الشخصية للحارس التحيف الذي كان يبعث بشاربه وهو يتفحّص هاتفه الجوال، لم يطالع الحارس البطاقة ولم ينظر حتى لوجهه، تأخر المصعد وكان "أنس" في قمة التوتر حتى أنه بدأ يقرض شفتيه، هرول نحو الدرج وصعده وثباً متوجهاً لمكتب مديرية الدار في الطابق الخامس من تلك البناء، وبعد أن أشارت إليه موظفة الاستقبال بلطف ليتفضل بالدخول طرق الباب وفتحه وهم بالدخول وكانت المفاجأة.

الحوراء تجلس أمامه بشحمة ولحمها، تجلس بوقار خلف المكتب على كرمي من الجلد الفاخر وعلى أنفها عوينات صغيرة تطل من خلفها عيناهما الواسعتان والسوداوان حيث كانت تطالع شاشة الكمبيوتر باهتمام شديد، التفتت إليه وخلعت عويناتها وابتسمت له، ثم قالت مرحة به:

- أهلاً وسهلاً، تفضل بالجلوس.

ثم أمسكت ببطاقة ورقية صغيرة وقرأت ما دون عليها وقالت:

- المهندس "أنس كمال".

- نعم أنا.

- مرحبا بك، كيف أستطيع أن أساعدك؟

- عفواً سيّدي، هل التقينا من قبل؟

- لا أظن! تبدو مألوفاً لكنني لم أرك من قبل يا ولدي!

- حسناً، وددت أن أسأل عن رقم هاتف السيد "شهاب السيوسي"

- هل أستطيع أن أعرف السبب؟
- أمر خاص بروايته الجديدة.
- وما بها؟

- أفضل أن أخبره شخصياً.

اعتدلت المديرة في جلستها وتراجحت على مقعدها على نحو خفيف وقالت باهتمام:

- كل ما يخص تلك الرواية بالذات يخصنا.
- وددت فقط أن أسأله عن نهايتها ومصير أحد الأبطال في الرواية.
- انتظر إذن حتى تطبع وتقرأها.
- لا أستطيع الانتظار فهناك أحداث لا بد أن تُعدّل بشكل سريع.
- وهل تعرف أحداً منها؟
- نعم
- أقرأتها؟.. معقول!! من سرّها... أخبرني؟
- لم أقرأها ورقاً ولكن...
- مهلاً... أنت لا تعرف رقم هاتف السيد شهاب ولا عنوانه، ولم تلتقط به! فكيف تعرف أحداث الرواية!
- علمت أن اسمي مدرج بها، وبعض ما يخصني شخصياً.
- كيف هذا!! الرواية تتحدث عن قصة نوبية قديمة! والأسماء فيها لا تتضمن اسمك!
- ربما...
- أرجوك كن واضحاً معي!

- أود أن ألتقي به. ولتعتبرى ما أعرفه عن الرواية مجرد تخمين، أو شيء يشبه الرؤى.

- من فضلك ليس لدى وقت لهذه الحوارات، ولن أستطيع إمدادك بعنوان السيد "شهاب"، فكلامك يقلقني، ربما تود أن تلتقي به لإعجابك به يا بي، ولكن ليس بتلك الطريقة! لكتاب حياتهم الخاصة، انتظر حتى تلتقي به في حفل التوقيع.

- ولكن..

- من فضلك!!

رفعت يدها لتسألها فلما دخلت الغرفة غاضبًا، يبدو أن الأمر أعقد مما تخيله، وقف شارداً أمام المصعد ينتظر وصوله، كان يغمض عينيه ويتأفف بينما اقترب شاب أنيق يرتدي بدلة سوداء فاخرة حسنة التقطيع أظهرت تناسق جسده، عطره النفاذ أرغم "أنس" على فتح عينيه، كاد يصرخ عندما رأى ملامحه، إنه "الزاجل الأزرق"!! دلف معه المصعد وهو يطالعه بفضول شديد، كان الشاب يمسك هاتفه النقال ويقلب فيه باهتمام، رفع عينيه على نحو سريع وحياته بابتسامة مقتضبة ثم عاد ينظر إليه مرة أخرى عندما لاحظ اندهاشه فقال له:

- هل أنت جديد هنا؟

قال "أنس" وما زالت عيناه معلقتين على وجه الشاب:

- لا.. أنا مجرد زائر.

- أنت كاتب إذن!

- تقريرياً.

- هل قمت بتقديم عملكاليوم؟

- ليس بعد.

- أسرع إذن فالسيدة "ناردين" سنتهي من مراجعة رواية الأديب "شهاب السيفي" الليلة، حتى تضم عملك في جدولها قبل أن تُنشر الرواية، فبعدها ستنهى علينا الأعمال من الكتاب والأدباء كالعادة، وربما يتاخر دورك.

- هل تعمل هنا؟

- أنا "أحمد" وبالفعل أعمل هنا.

- مرحباً بك.

- تبدو شاباً لطيفاً، لا بد أن كتاباتك رائعة.

- هل من الممكن أن أطلب منك شيئاً بسيطاً؟

- وما هو؟

- رقم هاتف السيد "شهاب السيفي"، أود أن ألتقي به وأعرض عليه عملاً ما.

- حسناً، ها هو رقمه، دونه الآن، ولا تنس أن تصيفني على "الفيسبوك"
- وما اسمك هناك؟

- "الزاجل الأزرق"

فغر "أنس" فاه ثم هز رأسه متعجباً، الأمر مضحك ومموجع في آن واحد، ما الذي يحدث الآن بالتحديد!!

بدأ الأمل يدب في نفسه فربما يلتقي بـ"مارام" أيضاً! كان يرجز تحت موجة من الجنين إليها، يشთاق لوجودها بجواره، تتنفس نفس الهواء، تسير وتتحرك وتروح وتجيء وإن كانت بعيدة عنه ولكن في نفس المكان، نفس العالم!

خرج من المصعد وسار بخطوات بطيئة خلف "أحمد"، نفس طريقة السير، نفس الصوت، نفس الإيماءات الخاصة، إنه هو "الزاجل الأزرق"! بأصابع مرتعشة ضغط "أنس" على أزرار هاتفه ليحدث السيد "شهاب"، كان صوته على الهاتف أكثر اتزاناً من صوته في مملكة البلاغة، حتى طريقته في

الكلام بدت أكثر تعقلاً وهدوءاً، عرفه بنفسه وطلب منه أن يلتقي به، وأخبره أن السيد "أحمد" هو الذي نصحه بلقائه قبل أن يعرض أي عمل على السيدة "نادين"، بعد مماطلة من "شهاب" وافق أخيراً على لقاء "أنس" وأعطاه عنوانه، أسرع بوقف سيارة أجرة لتقله سريعاً إلى هناك، كانت دقات قلبه تتواكب وتتساقب على نحو سريع، شعر بها وكأنها طبول تدق في أذنيه، وقفـت السيارة الأجرة أمام بناء عتيق مكون من طابقين، كانت البوابة الحديدية تحمل لافتة مكتوب عليها بخط واضح "فيلا شهاب السيوسي"، ترجلـ من السيارة بعد أن نقد السائق الأجرة ووقف شارداً يتأمل الـبنـاء، كانت الثانية عشرة إلا الـربع، باقٍ ربع ساعة على موعدـه معـه، تنهـد بـعمـق وأغمـض عـيـنهـ، ما زـال مـوجـوعـاً، مـسـح عـلـى صـدرـه بـيـدهـ وكـانـهـ يتـحسـسـ الـأـلـمـ، لمـ يـنتـظـرـ حقـتمـ الـرـبـعـ سـاعـةـ، بلـ أـسـرعـ يـدـقـ جـرسـ الـبـابـ.



شهاب

تنهى إلى سمعه صوت خطوات تقترب من الباب، فتح السيد "شهاب" له الباب بنفسه، كانت ملامحه كما هي عندما رأه هناك، وجه يحمل مسحة من الوسامية بشعره البني، وبشرته الباهته وفكه العريض، وأماماً تلك النظرة الساخرة التي كانت تُطلَّ من عينيه الضيقتين تبدّلت بنظره عميقـة منكسرة، وكانت عيناه خلف عوينات أضفت على مظهره وقاراً لطيفـاً. كانت دقات قلب "أنس" متسرعة، حتى أن "شهاب" شعر بتوتره وهو يصافحه حيث قال وهو يهزّ يده بحرارة:

- مرحباً بك، يبدو أنك متوتر جداً، يدك باردة جداً وكأنها قطعة من الثلج.
تنحنح "أنس" في ارتباك وهو يتأنّق وجه "شهاب"، بدا أكثر اتزاناً وتعلقاً
مما كان عليه، أكبرـاً عمـراً ربـما! وكأنه أربعينيـاً!

كما أنه تخلى عن نزعة الغرور التي كانت تطفح من عينيه، أغلق "أنس" الباب وسار خلفه، مرـ بـ روـاقـ الـ بـيـتـ حيثـ كانـ كلـ شـيءـ يـسبـحـ فيـ هـدوـءـ شـديـدـ، وصـلاـ سـريـعاـ إلىـ غـرـفـةـ كـبـيرـةـ جـدـراـنـهاـ تـحـضـنـ الـكـثـيرـ منـ الرـفـوفـ المـكتـظـةـ بالـكـتبـ، كانـ رـائـحةـ الصـنـدـلـ تـفـوحـ مـنـ الـمـكـانـ ذـكـرـتـهـ الرـائـحةـ بـالـغـابـةـ والـعـجـوزـ "نـارـدـينـ". قال "شهاب":

- أخبرتني على الهاتف أنك حصلت على رقي من "أحمد".
- نعم... الزاجل الأزرق.

قهقهـ "شهابـ" وهو يتـأرجـحـ بـالـكـرـسيـ الـجلـديـ الفـاخـرـ الـذـيـ غـاصـ فـيـ خـلـفـ مـكـتبـهـ ثـمـ خـلـعـ عـوـيـنـاتـهـ وـقـالـ سـاخـرـاـ:

- أنت صديق له على الفيسبوك أيضاً، كم هو لطيف ذاك الفتى، أحبه كثيراً، حسناً أخبرني عن روایتك أو كتابك، ألم... هل أنت شاعر؟
- في الحقيقة لست بكاتب ولكنني جئتكم في أمر آخر هام جداً بالنسبة لي.
- اعتدل "شهاب" في جلسته أعاد ارتداء عويناته ونظر إليه بجدية وسألة:

 - وما هو؟
 - أنت تعرفه.. لا تزعم أنك لم ترني من قبل!
 - أنا بالفعل لا أعرفك!

- لم يتمالك "أنس" نفسه وثار فجأة ووقف يتحدى بعصبية شديدة:

 - أين "مراٌم"؟
 - ومن هي "مراٌم"؟
 - لماذا أخرجتني من هناك قبل أن ألتقي بها؟
 - أخرجتكم من أين!!
 - طرق "أنس" بقوة على سطح المكتب وقال:
 - لم يكن الأمر واضحاً في بدايته، لكنني أدركت الحقيقة عندما ربطت بين الأرقام التي كانت على الخريطة والفجوات، وما من أحداث محددة في أماكن محددة برقم خاص.
 - شعر "شهاب" بالقلق وبدأ يتحرك من مكانه نحو باب الغرفة وهو يقول:

 - أيَّ أرقام! وأيَّ فجوات؟ هل أنت مجنون؟
 - رفع "أنس" سبابته وحرَّكها بعصبية في الهواء وقال:
 - لم تنجح خدعتك، لا تحاول العبث بعقل من درس الهندسة، فأنا لدى خيال واسع وسرعة بديهية سهلت عليَّ كشف الحقيقة!
 - ثار "شهاب" ودفع "أنس" تجاه باب الغرفة وقال:

- اخرج من بيتي!

كاد "أنس" يسقط، لكنه عاد ووقف بثبات وقرب وجهه من وجه "شهاب" وقال:

- الأرقام كانت أرقام صفحات رواياتك، وكنت أنتقل بالفجوات من رواية لأخرى، حتى أني عدت بـ "حليم" لصفحات سابقة ليلى كيف قتل "كمشاق" والده وذبحه واستولى على عرشه، وكان ذاك عوناً لي ليكون في صفي عندما اقتحمت القصر للأخر "كلودة".

- "حليم" و "كمشاق" و "كلودة" شخصيات في رواية لي بالفعل، لكنني لا أفهمك!!

بدأ "شهاب" يرتجف، كانت يداه تهتزان كما لو كان يعاني من اضطراب أو مرض ما، ارتبك "أنس" وعاونه على الجلوس على أقرب مقعد، هدأ كلامها للحظات كانت كافية لخلط الأفكار في رأس "أنس"، ربما "شهاب" لا يعرف شيئاً عمّا رأه وعاشه، وكما قال والده وجده سيئته مجنوناً كما سينته أي شخص آخر لم يُخُض تلك التجربة بنفسه، قرر أن يشرح له الأمر بطريقة أخرى، لعله يصل إلى أي معلومة عن "مراهم"، قال بعد أن تنفس بعمق ثم مسح وجهه بكفيه:

- حسناً يا سيد... اسمع، أنا مررت بتجربة غريبة وحدث لي شيء لا يُصدق.

هر "شهاب" رأسه ليشجعه على إكمال كلامه فأردف "أنس" مكملاً حدديثه:

- بطريقة ما انتقلت إلى مملكة البلاغة وعشت هناك لفترة.

- أقصد دار النشر؟

- لا... مملكة البلاغة هي بلاد غريبة، حتى أني التقيت هناك بعدة أشخاص قد تكون أنت كتبت عنهم في روايتك.

- ماذا!!!

حملق "شهاب" في وجهه وأطرق للحظات يفگر، ظنه يعاني من اضطراب

نفسي فقرر أن يجاريه، سأله مظهراً اهتماماً بكلامه:

- وأين تلك البلاد؟

- لا أدرى مكانها بالتحديد.

- كيف سافرت إلى هناك؟

- حملني صقر.

رمقه "شهاب" بتعجب وقال بنغمة تحالطها رنة ارتياه:

- من فضلك... إن كنت تريد إخباري بفكرة رواية لاكتب عنها فلا تتبع تلك الطريقة معـي... كـن منطقـاً وتحـدث بشـكـل طـبـيعـي وسـأـتـجـاـوـبـ معـكـ.

- أليس هذا ما كتبته في روايتك؟! ألم تكتب اسمـي فيها؟

- في الحقيقة....

قاطـعـهـ "أنـسـ" بـعـصـبـيـهـ وـقـالـ:

- المـغـاثـيرـ،ـ المـجاـهـيمـ،ـ الـأـمـيرـ "أـوـاـواـ"ـ،ـ الـمـحـارـبـونـ!

رفع "شهاب" حاجبيه ثم قال:

- هل اطلعـتـ عـلـىـ النـسـخـةـ الـتـيـ قـدـمـتـهـ لـلـسـيـدـةـ "نـارـدـيـنـ"ـ؟

أـكـمـلـ "أنـسـ"ـ غـيـرـ مـبـالـ بـسـؤـالـهـ:

- قـصـرـ الـمـلـكـ،ـ وـالـقـرـيـةـ،ـ وـالـغـابـةـ...

غضـنـ "شهـابـ"ـ حاجـبـيـهـ غـاضـبـاـ وـقـالـ:

- كـيـفـ سـمـحـواـ لـكـ بـقـرـاءـتـهـاـ!!ـ لـاـ بـدـ أـتـحـدـثـ مـعـهـمـ الـآنـ،ـ هـذـاـ غـيـرـ لـائـقـاـ!

أمسـكـ "شهـابـ"ـ بـهـاتـهـ فـمـدـ "أنـسـ"ـ يـدـهـ وـوـضـعـهـ فـوـقـ يـدـهـ يـسـتـوـقـهـ وـقـالـ
برـجـاءـ:

- سـيـديـ مـنـ فـضـلـكـ....ـ أـرـجـوـكـ صـدـقـيـ،ـ الـكـتـابـ اـخـتـارـيـ بـنـفـسـهـ.

احتدّت نَبْرَة صوت "شهاب" وهو يسأله:

- أي كتاب؟

- كتاب قديم صفحاته خالية كان بمكتبة جدي.

- أنت شخص غريب!

- "أبادول" .. هل تعني لك شيئاً؟

حرّك "شهاب" عينيه في المكان ثم قال:

- تلك رواية كتبها روائي عظيم من أساتذتي منذ سنوات، وأصدرتها نفس دار النشر .. لماذا تذكرها؟

- هذا جدي.. أبادول هو جدي.

ران عليهما صمت ثقيل للحظات، حاول "شهاب" أن يستعيد رباطة جأشه، تأمل وجه "أنس" وتفرّس في ملامحه ثم قال بجدية:

- يبدو أنك واسع الخيال يا فقي، ربما الأفضل لك أن تتجه للكتابة، تلك الأفكار ستساعدك وربما ينجح الأمر معك وتصبح كاتباً مشهوراً يوماً ما، أرجوك انتهت الزيارة.

وقف "شهاب" فوقف "أنس" متأنّحاً وقال:

- إيكادولي... هل تعني لك شيئاً؟

رفع "شهاب" كفيه في استغراب شديد وقال:

- كيف عرفت اسم روائي!! لم أخبر أي مخلوق أنني اخترت هذا الاسم بعد لروايتي! حتى دار النشر نفسها لا تعلمها! حتى السيدة "ناردين" فقد أرسلتها إليها معنونة بعدة اقتراحات للاسم ليس هذا من بينها فقد فكرت فيه أمس!!، حتى زوجي وتوأم روحي التي تشاركي في كل شيء لا تعرفه!

قال "أنس" في ثقة:

- ألم أخبرك أنني كنت هناك؟ الآن ستصدقني.. أليس كذلك؟

- ماذا تقول؟.. كن منطقياً أرجوك..

قاطعه "أنس" وقال متحجاً:

- ما حديث لي خارج نطاق المنطق، لا تخبرني بأن الغابة والمملكة والقرى حولها غير موجودة، انظر إلى يدي، ذاك أثر الحبال لما حملت "مرام" عندما سقطت من فوق الجبل.

مدّ "أنس" يده أمام "شهاب" الذي اتسعت حدقتا عينيه عندما رأى أثر الحبال المجدولة على يد أنس وذراعه، تذكّر ما كتبه في روايته، شعر بقشعريرة تجتاح جسده، تسارعت دقات قلبه من شدة الانفعال وتراجع خطوة للخلف، حملق في وجه "أنس" مرّة أخرى!! قال بصوت مرتعش:

- الجبل الذي تعلّقت الفتاة به !!

خر "شهاب" على الكرسي خلفه بعد أن ترمع قليلاً وقال بخفوت:

- يا إلهي !! لا أصدق ..

- هل ستساعدني إذن؟

- في أي شيء؟

- عدّل نهاية روايتك... أرجوك.

كان "شهاب" يحدّق في وجه "أنس" الذي انطلق متقدّماً بسرعة:

- كنت أعيش في روايتك، لا أدرى كيف، لكنها الحقيقة، حتى أنت التقيت بمحاربة أخرى هناك اسمها "مرام" كانت تعيش أحداث رواية أخرى تسمى "هيلاء".

- "هيلاء" رواية أخرى لي بالفعل... ولكن مهلاً.. أنت تقول أنك التقيت بذلك الفتاة هناك؟

- نعم..."مرام"

- بالفعل روائي الجديدة "إيكادولي" والتي لا يعلم مخلوق أنني اخترت لها هذا الاسم تحتوي على أحداث مشابكة وبها شخصية محارب ومحاربة!

- أقصد أنا و "مَرَام"؟

- حسناً كما تحب... أنتما...

قال "أنس" بصوت غلب عليه نَبْرَةُ التَّوْسِلِ والرجاء:

- أرجوك يا سيدي تحدث عن الأمر بتلك الطريقة فهذا سيعني لي الكثير لأنني عشت بالفعل... قل أنت و "مَرَام"

تمهد "شهاب" بعمق وقال بهدوء:

- حسناً يا "أنس"، اجلس وأخبرني بكل ما مررت به بالتفصيل، وكلّي آذان صاغية.

كان "شهاب" يحرك رأسه يمنة ويسرة ويفرك كفيه بتوتر شديد وهو ينصلت إلى "أنس" الذي بدأ يحكى له بالتفصيل كل شاردة وواردة مَرَّ بها، كان ما يرويه الشاب عصي على الفهم، عصي على الشرح، عصي على التصديق! في النهاية، وبعد أن أفرغ "أنس" ما بعنته، قال "شهاب" بعد أن خلع عوبيناته ومسح وجهه وصمت لوهلة وكأنه يرتّب أفكاره:

- في الحقيقة يا "أنس" ما تخبرني به عجيب، فرواياتي وإن كان أبطالها من النوبة وبها من الشخصيات مثل "كلودة" و"أونتي" و"كمشاق" و"نَبْرَة"، إلا أنني لم أكتب عن الصقور، كما أن أمر الكتب واختيارها للمحارب لم يكن موجوداً.

- ماذا تعني!

- إن كان ما تحكيه صدق..

ثم رمقه بنظرة عميقة وأردف:

- فهذا يعني أن الكتب حيّة وتنبض وتشعر بنا.

قاطعهما أزير الباب وهو يدفع بطفف، ظهرت زوجة "شهاب" التي عادت للبيت منذ دقائق، وجه مريح عليه مسحة طيبةٍ وسمات تنم عن جمالٍ

متعب، رحّبت بـ "أنس" ووضعت أمامهما كوبين من عصير البرتقال وانصرفت بهدوء.

التفت "أنس" تجاه "شهاب" وسأله:

- لديك ثلاثة بنات، "جميلة"، و"جمانة"، و"جويرية" .. أليس كذلك؟
شخص "شهاب" للحظات، ثم قال مذهولاً:

- يبدو أنك اخترقت رأسي ... وقرأت أفكاري.

- ماذا تعني؟

اقرب "شهاب" من باب الغرفة وأغلقه بحرص وعاد ل مكانه وقال بصوت خفيض:

- هذا ما كنت أحلم به قبل زواجي، أن ننجب أنا زوجتي ثلاثة فتيات متباينات وكأنهن توائم ولدن في سنوات متفرقة، نسخة متطابقة ومتكرونة، يركضن حولي ويتعلقن بساقي عندما أدخل إلى البيت، يغرونني بالحب، "جميلة" و"جمانة" و "جويرية" ، هكذا تمنيت، لكن الله برحمته كتب على زوجتي أن تتعرّى على درج الأمومة، فهي لا تخطي الشهر الثاني في حملها وسرعاً ما يسقط الجنين، وما زلت أحلم... وما زلنا ننتظر الفرج من الله، لكنني لا أحدثها أبداً بذلك الحلم وتلك الأممية، ولم أحدث بها مخلوقاً!

- لقد رأيتها هناك.

ابتسم "شهاب" وربّت على ساق "أنس" وقال له:

- بل رأيتها في رأسي، يبدو أنك كنت هنا.

وأشار لرأسه وهو يتسم بلطف، لاحظ "أنس" في تلك اللحظة علامات الهم التي ارتسمت على وجه "شهاب"، كانت روحه متعبةً ذاك الحد الذي جعله لا يقوى على إكمال حديثه مع "أنس".

أطبق عليهم الصمت حيث ندم "أنس" على ما قاله، بينما جعل هذا "شهاب" يزداد ثقة به، فها هو يتحدث عن أحلامه وأمنياته التي يخبيها في رأسه، قال "أنس" محاولاً أن يخفف عن "شهاب":

- آسف -

هزّ "شهاب" رأسه وقال بثقة:

- لا عليك، أعلم أنك من النوع الذي يراعي مشاعر الآخرين، أنسىت؟ أنا أعرف كل شيء عنك، كتبت عنك طوال الأيام الماضية. فسمات شخصيتك مطابقة لسمات شخصية المحارب في الرواية.

قام "شهاب" وتوجه نحو أحد الرفوف وأحضر مجموعة من الروايات وبسطها على مكتبه أمام "أنس" وبدأ يقرأ العناوين:

- هذه روایاتي الخمس، كل منها رواية منفصلة عن الآخريات، ويا للعجب! يبدو أنك بالفعل عشتها بل وكتبت سبباً في انتقال الشخصيات من رواية لأخرى بطريقة ما!!.. رواية "الغاية المسحورة" حيث العجوز "ناردين، ورواية "المجاھيم" وعاليهم تحت الأرض، ورواية "مملكة الشمال" حيث الملكة العادلة "الجوراء" وابنها الذي يفعل الخير ويساعد الناس متخفياً مع رفقاء، ورواية "مملكة الجنوب" حيث كان ملك ظالم وشقيقته الهميرة شديدة الجمال التي أحببها شاب حليم الطياع لكنها كانت أنانية ولا تستحقه، وفي تلك المملكة عدة قرى متغيرة تعكس روعة أهل التوبة وأخلاقهم وعدائهم الجميلة، لكن قرية سرها الغامض ، واحدة منها كان فيها كهل يسمى "الرمادي" يتجرّول فيها ولاقى الكثير مع زوجته. وأخيراً هذه رواية "هيللا" التي يبدو أنك لم تخترق صفحاتها، ولو اخترقتها وعشتها لعشقت أهل التوبة بحق!

ثم سكت هنية وأردف قائلاً:

- أمّا أمر الكتب والمكتبة فهو عظيم لكنني لم أكتب عنه ولا عن الصقور!.. وددت لو ذهبت إلى هناك يا "أنس" .. لا شك أنه شعور رائع، وصفك للمكان والرفوف وللقاؤك بالكتاب في تلك الغرفة والحراس وهيبيتهم فتن عقلي وأسر روحي.

قال "أنس" وهو ينقل عينيه بين أغلفة الروايات:

- ولهذا كان هناك فاصل حجري يفصل بين كل مكان والآخر لا يتعداه أحد،
فكل رواية منفصلة عن الآخريات.

- وتلك الفجوات التي كنت تصنعها بالخنجر وتنقل بها من مكان لآخر كانت طريقة ذكية تنتقل بها من صفحة لأخرى، وخاصة استخدامك لأرقام الصفحات، حتى أنك نجحت في تغيير بعض الأحداث! ونقلت بعض الشخصيات من رواية لأخرى يا "أنس".

- أدركت هذا وأنا هنالك.

- لكن ما لم تدركه أنك دخلت رواية منهم بطريقة معكوسة، لقد بدأت رحلتك من صفحاتها الأخيرة يا "أنس"

- ماذَا!

- القصة تبدأ بشاب سيء الخلق يسمى "كلودة"، تحبه ابنة عمّه في صمت، تمناه زوجاً بينما يعيش قصة حب مع أميرة تدعى "أونتي" كانت أنانية وشهوانية، لا تفكّر في مشاعر الآخرين، تطارده فيقع في غرامها، كان الناس يعرفون بقصتها، وكانوا ينفرون منه.

- ألمـذا كانت "أشريا" ترفض الزواج منه؟

- نعم، كانت تعلم خبيئته وتألم، وعندما أفاق من غفلته وندم وتوقف عن لقائها وتزوج من ابنة عمّه ثارت الأميرة وغضبت، وظلت تهدده ليعود إليها، فعاني كثيراً ومرض بسبب فراق زوجته التي جرحتها الأمر.

تذكّر "أنس" عندما ذهب معه للطبيب أول مرة التقى به فيها وقال:

- كان يتناول علاجاً من خلطة خاصة يعدها طبيب له، عاني من الهمسات وكان حزيئاً..

- لكنه ظل على ثباته فأمرت الأميرة بقتل ابنتهما، فهربا للغابة، فتبعهما حراس الأميرة وقتلت "أشريا" وخطفت ابنتها الرضيعة، فانطلق "كلودة" هائماً على وجهه يبحث عنها حتى وجدها، وعاد للقرية وأعطها لزوجة

الخبار لترضعها وترعاها، وتنسّك وظل على حاله منكسرًا حزيناً وباكيًا على زوجته، يسبح ليلاً ونهاراً ويدرك الله في كلّ حين.

سكت "شهاب" للحظات ثم أردف:

- كان أول لقائك بـ"كلودة" في الصفحة الأخيرة، لكنك بإلباسك القلادة لـ"أشريا" وابنته أنقذتها من الهلاك والموت على يد "المجاهيم"، تغيرت بعض المواقف بالطبع، ثم عدت إلى البداية حيث بيت "كلودة" عندما بدأ صباح أول يوم لك معه، ولهذا أخبرتني أنك شعرت أنه بروح جديدة وكأنه لم يبك في الليلة الماضية كما أخبرتني! ولهذا أيضًا عندما سالت عن الرضيعة لم تحصل على إجابة شافية، لقد بدأ "كلودة" فاسداً ثم تاب وتزوج من حبيبته "أشريا"، وتنسّك بعد ذلك ولم ينتكس ويضلّ كما طننت أنت، ومررت الأحداث تتوالى، وانطلقت تعديل في الرواية أيام المحارب، بل وسحبت شخصيتين من رواية "إيكادولي" وأدخلتهم رواية "الغاية المسحورة"! في الحقيقة أنا مذهول! حق العبر الذي سكته العجوز "ناردين" في جرح "كلودة" أنقذه لأنّه شخصية مكتوبة في رواية!.. دماؤه سوداء لأنّها مجرد حبر!

كنت تظن أن "كلودة" وـ"أشريا" هما أبطال رواية "إيكادولي"، والصحيح أن المحارب والمحاربة هما البطلان! أنتما! أنت وـ"مراام"! كان الجميع هناك يراكمًا في صورة المحاربين! كنتما مكائمه!

شعر "أنس" وكان هناك من ألقى بجبل من الحجارة على رأسه، تخشب لسانه للحظات قبل أن يسأل بصوت متقطع:

- وأي شيء كنت أحاربه؟

- هذه النقطة تحديداً أود أن أوضحها لك يا "أنس"، المحارب لا يحارب بخنجر ولا بسيف وليس معركته بالنبال والسيهام، حياتنا كلّها معارك، وكلّنا محاربون، نحارب أحياناً أفكارنا الشّاذة، ونحارب أنفسنا عندما نضلّ، ونحارب شهواتنا عندما نتوب ونعود لخالقنا، ونصارع الأنانية فينا، نحارب الحقد وتلك النفس المتقلبة التي تجرنا أحياناً إلى الشروق تسقطنا في الفتنة، نحارب حتى ننطق بالحق والصدق، ونحارب من أجل الحب... كلّنا محاربون.

- لماذا اختارني كتاب "إيكادولي"؟

- لأنك تؤمن بالفضيلة يا "أنس"، كان واضحًا وجليًا وأنت تحكي لي بالتفصيل أنك كنت ثابتاً عليها حتى وأنت تعاني من السحر، وحتى عندما دق الحب على أوتار قلبك، أنتما أو المحاريان، كنتما من وجهة نظرى مؤلف تماريان نفسياً كما لأتكمما وقعتما في الحب رغم أنفيكم، وهذا ما وصفته في رواية "إيكادولي"، المحاريان شخصيتان رئيسيتان، أنت و"مَرَام"! كلاكمَا كان يجاهد نفسه، تمسكتما بالفضيلة لآخر لحظة، دار صراع عظيم وأحداث عدة، وتفرقتما عدة مرات.

- وماذا حدث في نهاية الرواية؟ أخبرني كيف كتبتها؟

- تركت النهاية مفتوحة.

- لماذا؟

- وددت أن أترك للقارئ مساحة ليفكر بنفسه، ليحدد ما يراه من منظوره مناسباً.

- ولماذا.. لماذا تفعل هذا! إما نهاية سعيدة أو مؤلمة... اقتلني إذن لكن لا تتركني هكذا بدونها.

- رضاء القراء غاية لا تدرك، إن كتبت نهاية سعيدة سيقولون هذا هراء ويشبهونها بالأفلام التافهة والمسلسلات الفاشلة، وسيتهمون القصة بالضعف كالعادة، وإن كتبت نهاية حزينة سيسبووني ويقولون إن الرواية كثيبة، النهاية المفتوحة ترمي الكرة في ملعيهم، فلينهرا كلّ منهم في خاطره كما يحب، أو تدري! حتى النهاية المفتوحة تُحزن البعض مثلك في ترکهم في تخبط مؤلم كمن سقط منه شيء ثمين وحزن عليه.

- وأنا؟ و"مَرَام"؟

لاح شبح ابتسامة على وجه "شهاب" وهو يقول:

- أتعلم أنها فكرة مجنونة!

- أي فكرة؟

- أن التقى بشخصية في رواية كتبها!!!

- لكنني التقى بك هناك! كنت تهددني، وأخبرتني أنني لن أستطيع تغيير شيء!

- لم أكن أنا! وكانت تلك نفسك تهدي لك هذا!! لا تستهن بالصراع الداخلي الذي كنت تخوضه مع نفسك، ليتني كنت هناك مع بناتي اللاتي وصفتهن لي!

همهم "أنس" بكلام غير مفهوم، بدأ ينهر وتخلّى عن تماسكه، أمسك "شهاب" بيده بعد أن أشفع عليه وسارا نحو أريكة وثيرة تتوسط غرفة المكتب وجلس بجواره يحدثه بهدوء حيث قال:

- لولا إحساسك الذي لا أستطيع تكذيبه بأنك شاب طيب وصادق لأنه يهيت هذا اللقاء فوراً. ولأنك أخبرتني بأشياء مخبأة في رأسي فقد أنصت إليك وأنا الآن أصدقك... لكن أظنهنني أستطيع تغيير شيء؟

- لا أدرى!

- بل تدري، فكلّ شيء يحدث لنا في حياتنا له تفسير منطقي.

- وبعد؟

- لا أدرى؟ وددت لو أستطيع أن أساعدك، لكنني عاجز، ليس بيدي شيء! قال "أنس" وهو يتحسس ضلعه:

- وماذا سأفعل أنا!.

وضع "شهاب" كفه على صدر "أنس" وقال:

- ألم الفراق، أعلم ما شعرت به هناك، أحياناً وأنا أكتب تراودني مشاعر مشابهة وكأنني رحلت إلى تلك الأماكن التي أكتب عنها، أشعر بك..

قال "أنس" وكأنه يقطع الكلمات من قلبه:

- وما أحمله الآن من ألم؟

ترقرقت دمعة في عينيه فتأثر "شهاب" وقال وهو يضع يده على صدر "أنس":

- حتى ما تحمله الآن من ألم... فقد صرت كتاباً مفتوحاً أمامي أنها الشاب الطيب، قد تظن أن حياتك قد انتهت، وأن كل لحظة تعيشها ستزيد همك، وأنه لا يوجد بصيص نور في هذا الظلام، لكنك ستسعد عندما تتبسم في وجه عجوز، أو تنظر برحمة لصديق، أو تقف بجواره في محنة، أو تطعم فما جاءع، أو تسعد أحدهم بكلمة، نفحات السعادة التي ستحققها للأخرين سترتد إليك بعد حين، قد يكون الحصول على السعادة أمر صعب، لكن منحها لمن حولنا أيسر بكثير.

ثم قال بحنان:

- "أنس"، لا تظن أن قدرك بين يدي أنا مخلوق ضعيف مثلك، ما مررت به غريب وعجب، لكن الأقدار بيد الله وحده، هو الذي يكتب علينا جميعاً ما سيحدث لنا، ما أنا إلا شخص ضعيف يحاول أن يكتب شيئاً بيدي قياماً هنا، ويزرع أملًا يزهر هناك، لكنني في النهاية ضعيف ليس بيدي شيء أقدمه لك، وإن كنت قد قدمته لنفسي قبلك! فلا تلجا إلا لله وحده... اطلبها منه!

رمضن "أنس" بعينيه، وأقر ما سمعه وعيnahme ساهمنا، كادت تندد منه أنه موجعة لكتنه تماسك، تتمت بالدعاء بصوت خفيض "اللهم اجبر كسر قلبي"، وجلس ساكناً للحظات. ثم ودع "شهاب" وشكراً على إنصاته له وكاد ينصرف لولا أن "شهاب" استوقفه وقال له:

- الأمر يشبه ما حكيته عن العجوز "ناردين"، اهمس بالدعاء.. فالهمس بالدعاء وبحكايانا التي توجعنا ونخبئها بين طيات سهام الليل يسبق ما نعيشه وما نكتبه! أما تعلم أن الداء يتصارع مع القدر ويغلبه أحياناً ويسبقه!

ثم ابتسم "شهاب" وعانقه طويلاً، انصرف "أنس" وقد ازداد شعوره بالغرابة والوحشة، وغادر المكان برصيد هائل من الحزن. كانت زوجة "شهاب"

ترافقه من خلف زجاج النافذة، اقترب منها "شهاب" وأحاط كتفها بذراعه، كاد يخبرها عن "أنس" لكنه خشي ألا تصدقه! ظلا يراقبانه وهو يتبعده. قالت بهدوء:

- أليس هذا هو الشاب اللطيف الذي كان يداعب الأطفال الصغار في محطة القطار والذي رأيناه منذ أسبوع أو أكثر ونحن عائدون من الفيوم؟
- يا إلهي... يبدو أنه هو!

ابتسم "شهاب" وأطرق مفكراً، هل من الممكن أن ينقله صقر إلى مملكة البلاغة في يوم ما!



(٢٥)

النهاية

اختفي "أنس"... اختفي المحارب!

ارتبك كل من بالوادي، ثمة لمسة من الحزن الشاجي تظلل المكان، كانت الحوراء تتلفت يمنة ويسرة في تعجب، ركض "الراجل الأزرق" تجاه "سامي كول" الذي كان ثابتاً في مكانه كالصنم، عيناه ثابتتان كعادته، وسأله عن سبب اختطاف "الرمادي" فجأة لـ"أنس"، قال "سامي كول" بعد أن تنهَّد بعمق ورفع صوته ليسكن الجميع وكأن الصمت ألقى فوق رءوسهم عباءته فجأة:

- لقد نجح "أنس" واستعاد كل شيء، الصفحات امتلأت بالكلمات، وتم ختم الكتاب وضمه لسجلات المكتبة وسينشر في الآفاق.

قالت "الحوراء":

- ولماذا إذن اختطفه "الرمادي" بتلك الطريقة! لم نودعه كما يليق به!
أجاها "سامي كول" بجدية شديدة:

- كان لا بد من حمايته، "الرمادي" أنقذه في اللحظة الأخيرة، كاد "القرناس" يقتل رأسه.

- القرناس!!!... لماذا؟

- إنها "نَبْرَة" عادت لثثار.

سألته "مَرَام" وعلامات القهر على وجهها:

- هل سأراه مرة أخرى؟

- ربما نعم... وربما لا... الله وحده يعلم.

- لقد حدث ما أخبرتني به أيمها الحكيم، كان طوق نجاة لي..

سالت دموعها وسط صمت الجميع، لم يجدوا من الكلمات ما يواسونها به، لم تفلح في إخفاء مشاعرها، الآن بدأت " قطرة الدم تحلق فوق رءوسهم ، ت يريد أن تعيد " مَرَام " لعلها . رفعت " مَرَام " رأسها بوجه أغرقته الدموع، ثم كفكت دموعها وركضت نحو " الحوراء " وأمسكت بثوبها وقالت تترجها والدموع تملاً عينيها:

- أرجوك يا مولاتي حقي لي ما وعدتني به، ألم تعديني بتحقيق ما أطلبه منك بعد انتهاء مهمتي هنا؟

- بلـ

- الآن... حقي لي طلبي.

انحنىت " الحوراء " وأمسكت بيديها وساعدتها على النهوض وقالت لها بحنان:

- وما هو طلبك يا ابني؟

- ستحققينه مهما كان؟

- بالتأكيد أنتِ تعلمين أنني عندما أعدُّ لا أخلف الوعد يا ابني.

- أريد حق التدوين.

- ماذًا!!!

اقربت " مَرَام " من " الحوراء " وهمست لها:

- نعم، أنت الوحيدة التي يسمع لها الصدور، وتسمع لها الحروف، أريد أن أكتب نهاية قصتنا، لم أتوقع أن أحب " أنس " ، ظننت الأمر أبسط لكنني لا أملك قلبي الآن ولم أتمكن من حجب حبه عنه، لقد ابتليت بحبه.

طالعها " الحوراء " بإشراق وقالت:

- عودي يا ابني ليتك، ربما تلتقين به يوماً ما.
- قبل أن أعود... لا بد أن يكون هنا كتاب يحكي قصتنا، ينتهي بـلقاء! أرجوك، اسمحي لي بالتدوين.
- ماذا تقولين!!
- نعم، ولن تحتاجوا إلى استدعاء محارب، فهي مجرد قصة ستقرأ يوماً ما...
- عن ماذا؟
- عني وعن "أنس"، عن الحب الذي يعيش ظاهراً حتى اللحظة الأخيرة وإن لم يلتقي الحبيبان.
- ولكن يا "مَرَام" ..
- أرجوك يا مولاتي ارفعي بقلبي واطلي من الصقور وحراس المكتبة أن يسمحوا لي.

نقلت "الحوراء" نظراتها لأبها "سامي كول" واقتربت منه وأمسكت بيده، فسحب كفه من بين يديها برفق ونكّس رأسه، لم يتبس ببنت شفة، أدركت أنه يحيل القرار لها وحدها، بدا عليها الارتياب الشديد، مررت الأحداث أمام عينيها تتوالى، كلّ ما قدمته "مَرَام" وقدمه "أنس" للمكتبة، سارت عدة خطوات تتبعها نظرات الجميع، ثم ارتفعت فوق درجات السلم المؤدي لبوابة قصرها ورفعت صوتها قائلة لتفاجي الجميع بقرارات متواالية:

- أنها الجمع الكريم الطيب، كنت أخطط لتلك اللحظة، أفكّر فيها وأرتّب لها، لكنني لم أتخيل أنها ستكون الآن...
- صمتت هنّهة والكل يتربّع ثُم أردفت قائلة:

- حان وقت انتقال الحكم لولدي الأكبر والذي ظلّ لفترة طويلة بين صفوف "المغايير" ساعياً لخدمتكم لا يطلب مجدًا ولا شهرة، فاسمحوا لي بإلياسه التاج، فأنا على وشك القيام بأمر جلل.

رفعت "الحوراء" كفّها وخلعت التاج عن رأسها، وتقدّمت تجاه "الزاجل"

الأزرق" ووضعته على رأسه وسحبت غطاء وجهه لينكشف أمام الجميع، كان مرتباً ذات الحد الذي عقد لسانه وجعله يقف صامتاً أمام نظرات عيني أمّه التي ترجمت كلّ شيء، كلّ الحب، كلّ التقدير، كلّ الفخر به. اندفع بمشاعر الابن التي كان يخفّها دائمًا أمام الجميع وقبل يد أمّه بإجلال ثمّ عانقها، فقد اعتاد وأمه على التعامل بشكل رسميًّا أمامهم حيث كان يصرّ على إخفاء هويته ليفعل الخير ويساعد الناس دون أن ينال منهم شكرًا ولا جزاء على فعله، سالت دموعة من عيني "الحوراء" وهي تضع كفها على خده وتأمله وكأنّها تملّى عينيها منه، تصافح كل التفاصيل الصغيرة بمقلمتها!

تحرك الموكب والكل في ذهول مما حدث، أصبح لديهم ملك جديد!، حتى "سامي كول" لم يجد كلمات يعبر بها عما يعتمل بصدره من مشاعر، سارت "الحوراء" نحو الغابة، يبدو أنها سترسل "مَرَام" لحراس المكتبة، تحرك الموكب تكلاه الهيبة، وصلوا للحدود حيث وقفت "الحوراء" وهي تمسك بيد "مَرَام" أمّام الفاصل الحجري بين أرض مملكتها والغابة، التفتت ولوحت لشعبها الذي كان يهتف باسمها، فاجأتهم ورفعت طرف ثوبها وتحطّت الحاجز الحجري ومشت خطوة واحدة ووقفت تتراجع على أرض الغابة ثمّ ندت منها صيحة فزع، لقد أظلمت الدنيا في عينيها فجأة، فقدت "الحوراء" بصرها للأبد، صرخ "الزاجل الأزرق":

- لماذا يا أمي؟!!

ادرك الآن أنّ أمّه دخلت الغابة بإرادتها وهي تعلم أنها ستفقد بصرها للأبد لتلتقي ببار الصقور وتتحدث إليهم، ولتنقل رياح الغابة كلماتها للحروف فوق الجبل الأحمر، ولحراس المكتبة الأجلاء، وأدرك أيضًا أنها لن تتراجع عن قرارها وأنّه لن يستطيع الدخول معها للغابة.

ارتفع صوت أبيها "سامي كول" وهو يقول مثبتًا إياها:

- رعاك الله يا ابني، هذا عهدي بك، لا بدّ من تصحيحة لأجل المحاربين، هذا دين وستسدينه علينا.

ثمّ همس لحفيده "الزاجل الأزرق" الذي اقترب وعيناه تراقبان أمّه وهي تبتعد:

- كان "أنس" طوق النجاة لـ"مراهم" عندما أنقذها من الموت، وستكون طوق النجاة لقلبه.

مضت "الحوراء" في الغابة تسعّها "مرام" وهي تبكي، كانت تظن أن الملكة ستسدّي الصقور ربما أو ترسلها إلى مكان ما، لكنها لم تخيل أنها ستدخل معها الغابة بنفسها!

لم تتمكن "مَرَام" أن يحدث هذا، لكنه القدر!



أوراق الأشجار المتساقطة تدور وكأنّ هناك من يتلاعب بها، الأشجار تهتز وكأنّ هناك صاعقة تصطربها، الرياح تهبّ من هنا وهناك، الغابة ترتج، وهناك من يهمسون..

"الملكة في الغابة.. الملكة في الغابة"

دوي مخيف يصدر من الأكواخ وكان وحشاً تسكمها، أظلمت فجأة! ثم عبر شعاع الشمس فشق الضباب فسقطت خيوط ذهبية وتقاطعت على الأرض أمام "مراام"، كانت "الحوراء" تتخطب وتتعثر، قالت بارتباك:

- لم أدرك قدر نعمة البصر إلّا الآن! سبحان الله!

- سامحینی یا مولاتی.

- لا عليك يا "مرام"، كان لا بد من هذا، كنت أعلم أنني سأدخل الغابة يوماً ما، لكنني لم أعلم متى بالتحديد، حتى أني كنت أربط عيني من آن لآخر وأسير في غرفات القصر.. كنت أستعد!

- تستعدّين لماذا؟

- هكذا تمضي الأمور، عند انتقال الحكم لا بدّ من الخروج من نطاق

- الملكة ودخول الغابة، مرحلة جديدة تبدأ، وملك جديد يتولى الحكم.
فقد أبي بصره هو الآخر عندما دخل إلى الغابة، أليسني التاج قبل أن يدخلها بإرادته، من أجل محارب قديم، ضحي من أجله هو الآخر..
- أتعلمين يا جالة الملكة.. كنت أظنه يرى، فهو يحرك عينيه ويطالع من يحدهه وكأنه يراها!
- هكذا يظن الكثيرون، لأنه أيضًا يسير وحده بدون مساعدة، فهو يحفظ كل شبر بالملكة.
- إنه رجل عظيم.

- نعم يا ابني، هو رجل عظيم وأب رائع، وكان ملّاً عظيمًا أيضًا، إن كان فقد بصره فهو لم يفقد بصيرته.

هبت رياح قوية أطارت أوراق الأشجار المتساقطة على الأرض وأطاحت بالأغصان الصغيرة فوق سطح مياه الهر الأخضر حيث كانت "الحوراء" تسير مع "مَرَام"، ظهرت "ناردين" فجأة ووقفت وهي تستند على عكازها، همست بكلمات لم تفهمها "مَرَام" فإذا بالحوراء تبتسم وتضفط على يدها وتقول بحماس:

- "ناردين؟ أهذا أنت؟
- طالعتها العجوز وقالت بإجلال:
- نعم يا مولاتي، هي أنا.. العجوز الوحيدة في الغابة.
- كم كنت أتمنى أن ألقاك.
- وهذا نحن ذا.. نلتقي أخيرًا.
- أحنت الملكة رأسها وقالت بخفوت:
- ليتني أرى وجهك.
- لقد فات الأوان يا مولاتي.

- نعم... لقد فات الأوان.

- لماذا دخلت الغابة؟

- من أجل "مَرَام" ... طلبت حق التدوين، تريد أن تكتب قصة حبها.
التفتت "ناردين" إلى "مَرَام" وقالت:

- ولكن نهايتها مؤلمة يا "مَرَام"!

زفرت "مَرَام" بقهر ولم تتكلم، استدارت "ناردين" وضربت الأرض بعказها فارتاجّت الغابة واهتزّت أشجارها وأسقطت المزيد من أوراقها على الأرض، من بعيد ومن خلف الجبل الأحمر أطلت كوكبة من الصقور يحلقون في نظام بياني، كان هناك صقر كبير يتقدّمهم بينما يصطف خلفه الصقور على التوازي في خطوط تزداد طولاً وعدداً وكأنّهم جيش كبير، اقتربوا تجلّهم الهيبة وحلقوا للحظات قبل أن يهبطوا على الأرض الفسيحة أمام "ناردين"، وقفوا بنظام كما كانوا يطيرون بنظام، ضمّموا أجنحتهم إلى أجسادهم ووقفوا ببرءوس شامخة ينتظرون تجاه الملكة "الحوراء"، ارتجفت "مَرَام" وجاست خلال الصفوف تبحث عن قطرة الدموع، اطمأنّت أخيراً عندما استقرّت عينها عليها وقد عرفتها من لون ريش رأسها المميز، استدارت "ناردين" ووجهت حدّيثها إلى الملكة وقالت:

- تفضلي يا مولاتي.

خطّت "الحوراء" خطوة للأمام، وبدأت تتحدث بإيجاز، ألقّت التحية على الصقور، ذكرت أسماء بعضهم من قضوا نحبهم خلال سنوات مضت، ذكرتهم بأحداث جليلة، تحدثت عن أيّها، وعن الكتب التي تتحدث عن النور، والخير، والحب، والصدق، والفضيلة. عن الحروف والكلمات، وعن قيمة ما يُكتب ويُقرأ، كانت الصقور تنصت إليها في صمت بليغ، لم يتحرّك أحد منهم، ولم يرّف لهم جناح، إلا عندما ذكرت "القرناس"، وكيف كان سيقضي على "أنس" لولا "الرمادي" الذي أنقذ حياته فحينها أصدروا غمفمات تشوي بغضّهم منه، سألت عن "الرمادي" فأسرعت "ناردين" تنفي وجوده، لم يعد بعد، نكست "الحوراء" رأسها حزناً عندما تذكّرت كيف رحل "أنس" دون

وداع يليق به، طلبت أخيراً من الصقور أن يساعدوا "مَرَام" لتقوم بكتابه
قصة حبها على الورق، مرت لحظة صمت مهيبة قبل أن يبسط أكبر الصقور
جناحيه ثم يقترب من الملكة التي انحنىت على "مَرَام" وقالت لها:

- الآن يا "مَرَام"

- الآن ماذا؟

- سيحملك هذا الصقر إلى المكتبة العظمى حيث ستكتبين ما يريح قلبك
- ولكن...

شعرت "مَرَام" بالخوف، كادت تتراجع لولا "القرناس" الذي ظهر فجأة ونقر
كبير الصقور بين عينيه، تراجعت الصقور وأفسحوا المجال لزعيمهم ليقاتل
"القرناس"، انقض كلّاهما على الآخر في معركة شرسّة، شُكّلت الصقور دائرة
حولهم فغاب المشهد عن "مَرَام" التي كانت تمسّك بيد الملكة ومعهما
العجز "ناردين"، ابتعدت الثلاثة وساروا نحو الكوخ، لا بدّ من الاحتماء به حتى
تنتهي المعركة، من الخلف ظهرت "نَبْرَة" وهي يدها خنجر غريب يبرق حده
كاللجين، كان "القرناس" قد حملها إلى الغابة وتركها خلف الأشجار، انقضت
على "مَرَام" وأسقطتها أرضاً وكادت تغرز الخنجر في قلبها وهي تقول:

- إن لم يكن "أنس" يوماً لي، فلن يكون يوماً لك.

ثم أطلقت صرخة غضب عالية وهي ترفع يدها للأعلى لكي تهوي بالخنجر
وتحقب قلب "مَرَام"، في تلك اللحظة انقضت بومتها عليها وغرزت مخالفها في
عينيها فسقط الخنجر من يدها واستمر صراخها وهي تركض في الغابة حتى
سقطت في النهر الأخضر الذي استحال سواداً، ثم عاد لونه الزمردي بعد أن
أحدث فوراً وكأنه يبتلع شيئاً ما، حلقت البومة البيضاء التي طالما كانت
"نَبْرَة" ترى بعينيها فوق النهر حتى تأكّدت أن "نَبْرَة" غرفت فيه، لم تنس تلك
البومة أبداً عندما خنقت "نَبْرَة" صغارها في العشن لأنّها انشغلت بهم ولم تحلق
ليلاً لأيام جعلتها لا تتمكن من متابعة تحركات "أنس"، كرهت تلك اللحظة
التي قهرتها فيها "نَبْرَة" على صغارها ولم تنسها أبداً، عادت حيث كانت "مَرَام"
ورقّتها بنظرة تعني الكثير، ثم حطت على رأس "الحوراء" التي صاحت:

- ما هذا!! ما الذي يحدث! اتركوني اتركوني.

أسرعت "مَرَام" تجاه "الحوراء" محاولة إزاحة البومة عن رأسها، لكن "ناردين" منعها بعказها الذي مدتة أمام صدر "مَرَام" وهي تتقدم وقالت لها:

- لا... اتركها!

اهتزّت البومة وبسطت جناحيها الأبيضين وغطّت عيني "الحوراء" بهما ثم أغمضت عينيها هي الأخرى للحظات ونزلت ل تستقر على كتف "الحوراء" التي كانت في غاية الارتباك بينما وبشكل سريع انتشرت على أطراف جناحيها تموجات رفيعة باللون اللازوري الفتان أظهرت بياض لونها بقوة وزادتها تألقاً وجمالاً، وفجأة! صرخت "الحوراء":

- ما هذا!! أنا أرى!! عاد بصري!!! عاد بصري!!

تهلل وجه "ناردين" واقتربت منها ثم قالت:

- بل منحتك البومة هدية، أنت ترين الآن بعينيهما كما كان يحدث مع "نبرة" الهاكلة، ستتصحبك البومة وستكون دليلك يا مولاتي.

التفتت "الحوراء" تجاه البومة وتأملت لونها الرائع وابتسمت، كان بياضها يحاكي روح "الحوراء" النقية، قالت "الحوراء" وقد بدا التأثر عليها:

- سأسمّها "الشهباء"، كم هي جميلة!

انتفض الثلاثة عندما قعّق الرعد في السماء، رياح قوية هبّت عليهم وتناهى إلى سمعهم غرققة أحد الصقور... كان "القريناس" يلفظ أنفاسه الأخيرة، بينما يستعد الجميع للتحقيق مرة أخرى خلف زعيّمهم الذي اقترب من "مَرَام" وما زالت الدماء تقطّر من منقاره، دون أن يسأل الحوراء حمل "مَرَام" من كتفها وانطلق بها وخلفه الصقور في صفووف، اشتدت الرياح، ندف شلجمية صغيرة تتطاير في كلّ صوب، كانت "ناردين" تصيح وتلوّح لها:

- لا تخافي يا "مَرَام" أنت في أمان.

كانت تحمل حقيبة "أنس" حيث أخفت خنجره، وما تبقى من الخبر في الزجاجة الزرقاء التي استخدمتها "ناردين" في علاج جرح "كلودة"، ووصلت أخيراً

وُفتحت لها الأبواب، وانتقلت مع كبير حراس الكتب إلى ديوان الكتابة حيث تستطيع كتابة قصتها مع "أنس" ب نهاية ترجمتها، بينما يسيران تجاه ديوان الكتابة، وفي أحد المرات التي دخلها "أنس" من قبل، توقف كبير الحراس وكان يشعر بمعاناتها وقال متأثراً:

- ذاك باب الغرفة الخاصة بكتاب "إيكادولي".

توقفت "مَرام" أمامه، أرادت أن تدخل وترى الكتاب، حاولت أن تفتح الباب فلم تتمكن.

اقرب منها كبير الحراس وقال بهدوء:

- هذا الباب لا يُفتح إلا بمفتاح خاص، وذاك المفتاح كان مع "أنس"، وقبله والده، وقبلهما جده، فهل المفتاح معك؟

فتشت "مَرام" في الحقيبة فلم تجد المفتاح وأسقطت في يدها وشعرت وكأن الأرض تميد تحت قدميها، سالت دموعها، ما عادت تقوى على الكلام، طنّ من المشاعر الجريحة يقع بين ضلوعها الضعيفة... وفجأة، صدر دوي مكتوم، ثم فتح لها باب الغرفة على مصراعيه! بلا مفتاح! كست وجه كبير الحراس ابتسامة واسعة، وهز رأسه يشجعها على الدخول، دخلت تهrol يسبقها قليلاً مهرولاً على درج الذكريات، كل لحظة مرّت والتقت فيها بـ"أنس" أو تحدثت إليه فيما تتجدد الآن! شعور بالحنين يغمرها، أجملت عندما نشر كتاب "إيكادولي" صفحاته أمام عينيهما ثم بدأت تقرأ كل شيء، كل تلك التفاصيل الصغيرة التي مررت بها، دارت الصفحات حولها وغمرها شعور بالسکينة ، قرأتها وهي تبكي، سقطت الصفحة الأخيرة أمامها على الطاولة، أسرعت نحوها وأخرجت زجاجة الخبر من حقيبة "أنس" بيد ترتفع، تلفت حولها بحيرة، كانت تبحث عن شيء ما تغمسه في تلك الزجاجة وتكتب به، أرادت أن تنقش شيئاً هاماً على الورقة، ربما لقاء أخير لهما وإن لم يكن، أو ربما نهاية سعيدة كانت تمناها، وأخيراً رفعت الصفحة الأخيرة أمام عينيهما وارتفعت في الهواء بعيداً عنها فانخلع قليلاً ومدّت يدها محاولة أن تجذبها لكنها لم تتمكن، كانت تظن أنها ستكتب نهاية لتلك القصة التي عاشتها، لكنها لم تقدر، فلن نكتب أبداً أقدارنا!!!

وبينما تبكي... شعرت بأنفاس دافئة قربة من وجهها فأجفلت فهي وحدها
في تلك الغرفة! همس بصوت عذب تردد في أذنيها!

إنه كتاب "إيكادولي" الذي كان يخبرها بشيء ما!!



في الغابة، التفتت "ناردين" تجاه الملكة التي كانت تراها بعيوني بومتها "الشبياء"، ابتسمت لها "الحوراء"، وأخيراً رأت وجهها وملامحها، عانقها بحرارة وسارت معها، صعدت العجوز التلة وجلست على الدرج الحجري فجلست الملكة "الحوراء" بجوارها ثم قالت وعلى وجهها ابتسامة مشرقة:

- أظن أن "مَرَام" ستحسن كتابة نهاية سعيدة.

- المسكينة، تظن أنها تستطيع كتابة النهاية بنفسها، لكنها ستتفيق بعد مرور الصدمة، ولست قلقة عليها، فهي فتاة عاقلة ومؤمنة تعلم أن أمرهما بيد الله وحده.

قالت "ناردين" بتعجب:

- ألن تكتب هي النهاية؟

- لا!

- إذن فلم طلبت حق التدوين؟

- أنسىت يا "ناردين" أن كل هذا مكتوب في رواية!! كان لا بد أن تطلب "مَرَام" حق التدوين لتذهب إلى هناك لسبب ما ربما لا أعرفه أنا ولا أنت.

- صحيح.. نسيت.. عموماً، لا تزال لقصتها بقية... فالستار لم يسدل بعد.

لكرزتها "الحوراء" في ذراعها وقالت:

- نحن النساء نفضل النهايات السعيدة، أليس كذلك؟

- نعم، فأنا لا أفضل النهايات المفتوحة، أرأيت كيف أصبحت نهاية قصة "كلودة" و "أشريا"؟

صفقت "الحوراء" وقالت مبتهجة:

- نعم.. لم تمت "أشريا" بل خرجت من الغابة، والآن يعيش الزوجان في سعادة.

رفعت "ناردين" عينها وكأنها تقتبس فكرة ثم قالت:

- لكنني... وددت أن يتزوج "كُومبو" من فتاة جميلة، ويسمى قليلاً حتى يناسبه اسمه! ربما في مرّة قادمة، أليس كذلك؟

- ولم لا!!

- والآن... تعالى لنهمس بقصة "أنس" و "مراام" حتى نسمع الجميع.

- هيّا.... فلنبدأ.

بدأت العجوز "ناردين" تهمس وخلفها "الحوراء" تردد الكلمات... سمعتهما الرياح وحملت أصواتهما هنا وهناك، وتناقلت أجواء الكون قصة حبّ عفيف طاهر،...

(يحكى أنه كان هناك شاب مليح الوجه له عينان بندقيتان و حاجبان كثيفان على وشك اللتحام يرى كل ليلة كابوساً مزعجاً)



في اليوم التالي ليوم لقائه بـ"شهاب" في القاهرة، وبعد ليلة لم ينم فيها ووصل سهده بهجده وهمس بالدعاء، وعلى شاطئ البحر في الإسكندرية، بعد أن تذكري وسط يأسه وحزنه أنه كان قد اتفق مع "مراام" على مكان اللقاء، فللمع في نفسه بصيص أمل وظل يفسح له حتى ملأ الضياء جوانب نفسه فأسرع مهرولاً تجاه المكان الذي اتفقا عليه منذ طلوع فجر ذلك اليوم، كان يقف ساهماً يراقب الساعة من آن لآخر، وكلما مرت دقيقة كان يشعر

بالاختناق وكأنه على وشك الغرق، كان ينتظر طوق النجاة لقلبه، يرجو أن يراها مرة أخرى، ارتج كيانه وهو يسمع صوتاً أنثويّاً رفيفاً ولطيفاً خلف أذنه يناديه:

- "أنس؟ أنت؟!"

شعر بوجيب في قلبه عندما سمع صوتها، التفت مرتباً فإذا بها خلفه بقامتها القصيرة وجسدها الرقيق ولامحها البريئة، وعينيها الرائعتين، مخبوءة في شاعر نوراني من حيائها الجميل... إنها "مَرَام" !!
صاحب حماس غير مبال بالتفات المارة إليه:

- "مَرَام" ... يا إلهي!

طالعها بنظرة بثـَ فيها كل ما بقلبه من أشواق، رفعت كفها في الهواء فظهرت آثار العبال المجدولة عليه، ما زال الجرح يحرقها، رفع "أنس" هو الآخر يده ليりـَها آثار العبال على كـَفه وذراعه، وكأن كلاهما يريد أن يثبت للآخر أنه هو بدا عليهمما الارتكـَب الممزوج بالسعادة، لمعت دمعة ظاهرة في عينها كنجمة قطب ثم نفرت من جفنها وسالت على خدّها برفق، رفعت عينها الشهلاـَين وعلـَّهمـَا آثار التعب وقالـَت:

- ظنـَـتـَـكـَـ مجردـَـ شخصـَـيةـَـ فيـَـ روـَـاـَـةـَـ،ـَـ هـَـكـَـذاـَـ أـَـخـَـبرـَـتـَـنيـَـ أمـَـيـَـ...

مرـَـتـَـ لـَـحظـَـةـَـ صـَـمتـَـ لـَـطـَـيفـَـ قالـَـ بـَـعـَـدـَـهاـَـ:

- كيفـَـ عـَـدـَـتـَـ إـَـلـَـىـَـ هـَـنـَـاـَـ؟

- أمرـَـ الـَـمـَـلـَـكـَـ الـَـجـَـدـَـيدـَـ "ـَـقـَـطـَـرـَـةـَـ الدـَـمـَـعـَـ"ـَـ بـَـإـَـعـَـادـَـتـَـيـَـ.

- مـَـلـَـكـَـ جـَـدـَـيدـَـ!

- تخلـَـتـَـ "ـَـحـَـوـَـرـَـاءـَـ"ـَـ عـَـنـَـ عـَـرـَـشـَـهـَـاـَـ لـَـابـَـهـَـاـَـ.

- "الزاجل الأزرق"!

- وهل كنت تعرف أنه ابنها؟

- بل عرفت عندما أتيت إلى هنا، سأخبرك لاحقاً، يبدو أنَّ كلانا لديه ما يحكيه للآخر، المهم أننا التقينا، وهذا من فضل الله، كنت على يقين أنَّني سأجذك هنا... وثبتت برببي.

قالت وهي تشعر أنَّ كيامها يختلِّج:

- أتدرى، همس لي "إيكادولي" يذكُرني بالمكان والموعد الذي اتفقنا أن نلتقي فيه يوماً إن افترقنا.. أرجوك لا تختمي مرَّة أخرى...

- وإن حدث... سأبحث عنك حتى أجده، كوني على ثقة من هذا.

انزوت على ثغرها ابتسامة وقالت وهي تشيح بعينيها بعيداً عنه:

- أتفق بهذا.

ثم قالت باهتمام شديد:

- "أنس"، عندما كنَا فوق قمة الجبل أخبرتني أنَّك بشيء ما تودَّ أن تخبرني به، فهل ما زلت تذكر هذا الأمر الهام؟

- بالطبع أذكره، وكيف أنساها!

- وما هو؟

أومضت حفنة من النجوم في عينيه البنديقتين وقال:

- هل تقبلين الزواج معي؟

لم تنطق "مَرَام" بكلمة، كانت الدموع تهمر على وجنتها مختلطة بما المطر الذي بدأ يهطل برقعة وعدوبة، غمرتها حمرة الخجل، ثمَّ هممت موافقة

بصوتٍ خفيض، شعر "أنس" بالفرحة تموج في صدره، كست وجهه ابتسامة واسعة فأشرقت عيناه، كان يتارجح في مكانه وكأن صاعقة أصابته فجأة..

اختباً قرص الشمس خلف سحابة هشة وبدأ المطر الهاون يسقط عليهمما،

دنس "أنس" يديه في جبي سترته وسألها عن الساعة وهي التي كانت خارج نطاق الزمان والمكان، ثم قال بحماس:

- فلتذهب الآن للقاء والدتك..

ردت مشرقة:

- حسناً أيها المحارب.

قهقهه "أنس" وفتح ذراعيه ثم رفع رأسه يستقبل زخات المطر على وجهه الذي أضاءه الحب، بدأ يغفي بصوت تنضح منه البهجة وفي لحن جميل كان يردد أغنية طالما ردها "كلودة" و "كومبو"، كانت بدايتها كلمة واحدة محببة لقلبه... "إيكادولي.... إيكادولي"

غضبت "مَارَم" حاجيها وقالت بغضب ممزوج بالخجل:

- مهلاً مهلاً... ليس الآن!

ثم هرولت أمامه في خجل ورفعت يدها ل تستوقف سيارة أجرة تقليهما للقاء أمها بينما كان يلاحقها معتذرًا وهو يقول:

- كنت أغنها فقط... لم أقصد أن... يا "مَارَم" لقد فهمتني خطأ.. أقصد ..
هذا بالفعل ما أشعر به.. ساميبي.

- "ليس الآن... ليس الآن"

قالتها وهي تهرب بعينها منه...

بعد سنوات، وحيث حملت الأيام ثلاث بشريات لـ"شهاب" وزوجته، ونثرت الكثير من السعادة على "مِرَام" وـ"أَنْس"، وفي بيت الجد، وبينما في بقعة أخرى من مكان آخر كان هناك شاب لطيف وواسع الخيال يجلس في غرفته ويقرض أظافر يده اليسرى ويتمتم وهو يكتب آخر جملة في روايته الجديدة.. كانت الكتب تدور في مكتبة الجد بالفيوم حول "حبيبة" شقيقة "أَنْس"، والتي كادت تفقد الوعي عندما سقطت الكتب فجأة على أرض الغرفة مخلفة حولها سحابة من الغبار حيث أصدر سقوطها دويًا مهيبًا، كان هناك كتاب واحد فقط بقي مفتوحًا أمامها، كانت ترتجف وهي تحملق في الصفحات وهي تتقلب وحدها أمام عينيها وكأن هناك شبحًا يعبث فيها، اقتربت بحذر من الكتاب، رأت صورتها تُرسم على الصفحة، ثمَّ بلون أحمر كرزي رأت رمزاً غريباً يُكتب بوضوح!

.. تمت ..